LAU
الجامعة اللبنانية الأميركية
Lebanese American University

مرايا التراث

العدد الخامس عشر – خريف ٢٠٢١/شتاء ٢٠٢٢

مَلَفّ العدد
الدولة في تراث اللبنانيين

- ريشة ابرهيم الجر ورضوان الشهال
- بيروت في القرن التاسع عشر
- أوّل المنفيين اللبنانيين إلى القُدس

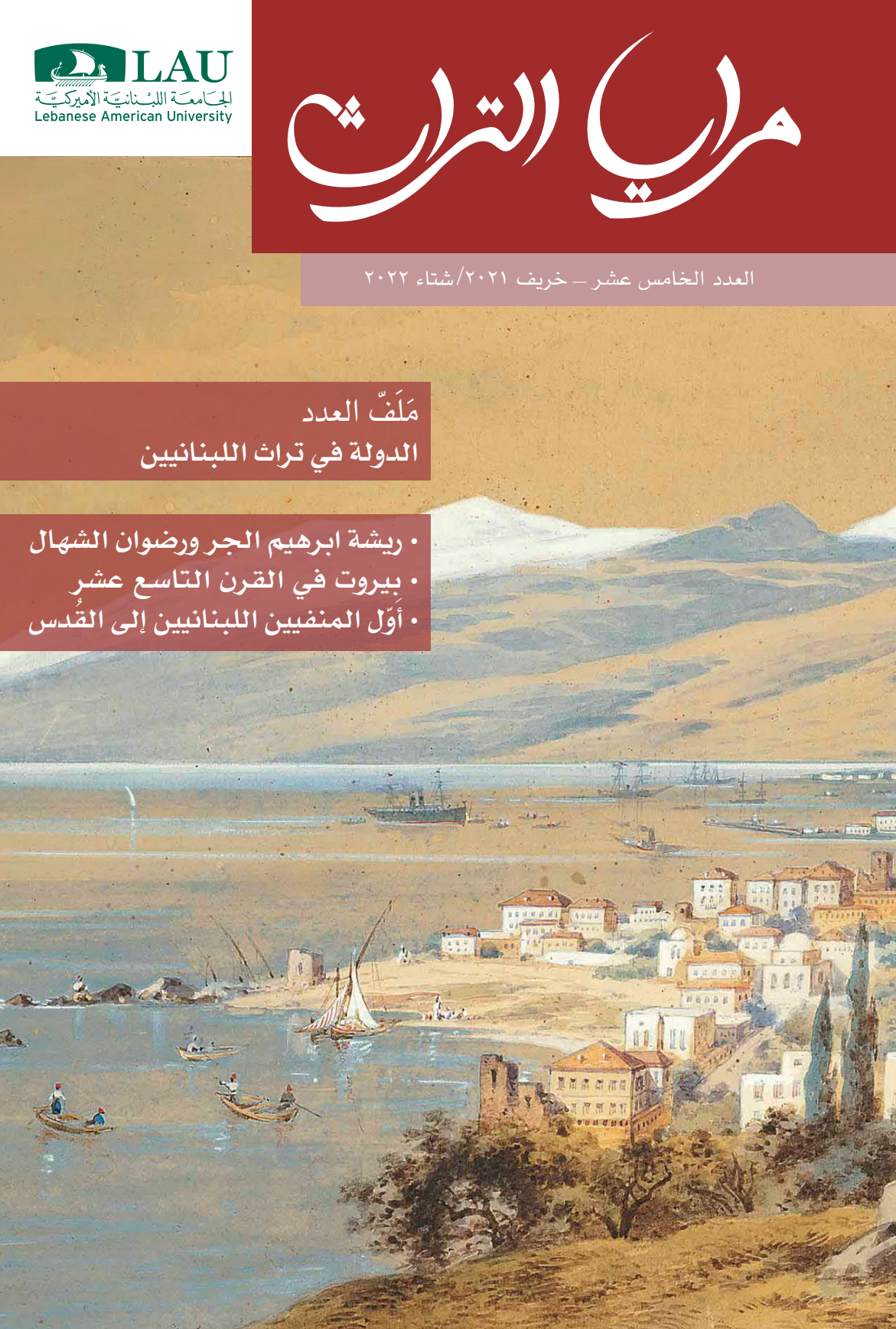

مرايا التراث

أَكاديميّة مُحَكَّمَة تَصدر مرتين في السنة

يَنشُرُها

مركز التراث اللبناني

في

الجامعة اللبنانية الأَميركية LAU

رئيس التحرير المسؤُول/مدير المركز

هنري زغيب

الهيئَة العِلْميَّة

الأَساتذةُ الدُّكاترة (ترتيبًا أَبجديًا بِاسْم العائِلة):

ناديا اسكندراني | **جامعة بيروت العربية** | **رئيسة قسم اللغة الفرنسية وآدابها**

سامي بارودي | **الجامعة اللبنانية الأَميركية** | **أُستاذ العلوم السياسية والعلاقات الدُولية**

رمزي بعلبكي | **الجامعة الأَميركية** | **أُستاذ كرسيّ الدراسات العربية**

كاتيا جنيناتي | **الجامعة اللبنانية الأَميركية** | **عميدة كُلية الآداب والعلوم**

أَهيَف سنو | **جامعة القديس يوسف** | **أُستاذ الدراسات العربية والإِسلامية**

پول طبر | **الجامعة اللبنانية الأَميركية** | **أُستاذ العلوم الاجتماعية**

أَنطوان قسّيس | **جامعة الرّوح القدس-الكسليك**

كلوديا كوزمان | **الجامعة اللبنانية الأَميركية** | **أُستاذة مساعدة في الصحافة والإِعلام**

الإِدارة والتحرير

مركز التراث اللبناني - الجامعة اللبنانية الأَميركية - قريطم - بيروت

هاتف: ٦٤ ٦٤ ٧٨ ١ ٩٦١ + (المقسّم ١٦٠٠)

ص ب: ٥٠٥٣ - ١٣ بيروت - لبنان

clh@lau.edu.lb

www.lau.edu.lb/centers-institutes/clh

مجلة مرايا التراث Facebook: Mirrors of heritage

تصميم و إخراج STRATCOM–LAU

مرايا التراث

العدد الخامس عشر - خريف ٢٠٢١/شتاء ٢٠٢٢

٣ | **أُولى الـ«مرايا» - هنري زغيب**
السنة السابعة... ويا برَكةَ الحصاد

تراثنا الصحافيّ

٦ | **د. رشيد العفاقي**
الصَّحافة اللُّبنانية المُهَاجِرَة إلى طَنْجَة ١٨٨٩ – ١٩١٣

تراثنا التشكيليّ

٢٢ | ابراهيم خليل الجر ١٨٧٣–١٩٣٦

٢٧ | رضوان الشهَّال ١٩١٥–١٩٨٨

مَلَفّ العدد

الدولة في تراث اللبنانيين

٣٤ | **أنطوان مسرّه**

تراثُنا الأدبيّ

١٠٦ | **بَسكال لحُّود**
جدليَّةُ المُضاء والمعتم في شخصيّات جبُّور الدويهي (١٩٤٩–٢٠٢١)

تراثُنا التاريخيّ

١٢٢ | **هيام جورج ملاَّط**
١٩١٥: أول دُفعة لبنانيين منفيين إلى القدس

١٣٧ | **نبيل شحادة**
«صاحبةُ السعادة» السلطانةُ بيروت

تراثُنا البلديّ

١٤٩ | **شربل النجار**
المتَين لؤْلؤَةُ المَتْنَين

الغلاف: بيروت سنة ١٨٩٨ بريشة الرسام الألماني يوهان برلبُرغ (Johann Friedrich Perlberg 1848–1921) وهو زارها عامئذٍ برفقة الأمبراطور وليام الثاني الذي زار أيضًا بعلبك في طريقه إلى دمشق وواصل إلى زيارة الأراضي المقدسة

السنة السابعة... ويا برَكةَ الحصاد

هنري زغيب
رئيس التحرير

مع هذا العدد، تبلغ «مرايا التراث» سنتها السابعة (العدد الأَول: خريف ٢٠١٤).

وإذا في منطق السنوات الجامعية أَنَّ السنة السابعة هي للاستراحة من التدريس والانصراف أَكثر إِلى الأَبحاث والدراسات، فـ«مرايا التراث» لن تستريح، وهي باقيةٌ مواصِلَةً رسالتَها، عددًا نصفَ سنويٍّ بعد عدد، في الكشْف عن كنوز تراث لبنان، ماديِّه وغيرِ المادّي، وعن أَعلام هذا التراث في أَيِّ عصر حالي أَو فائت، وعن معالمه في كل حقل معرفي، وعن علاماته التي تميزه، هنا على أَرضه الأُمّ، وثَمَّ في كل مهجر حمل إِليه اللبنانيون تراثهم وحفظوه وحافظوا عليه إِرثًا ولا أَغلى.

ذلك أَن للإِرث اثْنَين: مَن يَحفظه ومَن يُحافظ عليه. الأَول يَرِثُهُ ويُبْقيه حيثما هو، في انتظار الآخَر الذي يتولاَّه كشْفًا ودراسةً وتحليلاً وتأْريخًا وتَموقُعًا ونشْرًا.

«مرايا التراث»، منذ ١٥ عددًا، تتولَّى هذا الدورَ الآخَر، باحثةً في كل عددٍ عن عَلَم أَو مَعْلَم أَو علامة، قاصدةً كلَّ بيدرٍ لبناني مُثْمر بالغلال، وتسعى إِلى نشْر الحصاد كما يليق بقمح الحصاد أَن يتوزَّع على الناس.

هنا دور «مركز التراث اللبناني» في حَرَم الجامعة اللبنانية الأَميركية LAU، وبرعايتها ودعمها هي التي – بين جامعات لبنان – تتفرَّد بإِنشاء هذا المركز ذاكرةً لتراث لبنان ومنارةً لإِطلاقه نورًا يقتبسه جيلُ اليوم، ويستضيْءُ به الجيلُ التالي ومَن بَعده.

وفي نظرة استعادية إِلى مواضيع الأَعداد الخمسة عشر، يتَّضح أَنها تشكِّل مخزونًا ثقافيًّا تراثيًّا غنيًّا مفتوح الآفاق للباحثين في شؤُون التراث والدارسين خصائصه، لأَن الحرص دومًا هو على نشْر نُصوص موثَّقة من كُتَّاب موثِّقين ذوي ثقة، وعلى إِخراج النُصوص في الحلَّة الآنَق. ففي عصرنا اليوم، بما يتوفَّر له من وسائلَ ووسائطَ، لم يَعُد جائزًا تقديمُ مضمونٍ جيِّدٍ في شكل أَقل منه جودة.

لذا تحرص «مرايا التراث» على الصدور أَمينةَ المضمون أَنيقةَ الشكل، كي تليقَ أَن تكون على طاولة المعنيين بالتراث، وأَن تتلقَّفَها، حفْظًا ومرجعيةً، حلقاتُ المكتبات الجامعية والمكتبات العامة والمؤَسسات الثقافية والرديفة تراثيًّا في لبنان والعالم.

هنا تتوجَّهُ التحية إِلى أَعضاء الهيئة العلْمية، وجميعُهم أَكاديميُّون مكرَّسون، على مراجعتهم جميع النصوص قبل ذهابها إِلى الإِخراج فالطباعة، ما يَجعل «مرايا التراث» دومًا على مستواها الأَكاديمي «مجلَّة محكَّمة» تضمن علْمية المعنيين جامعيًّا باحتساب نصوص مَن يكتبون فيها لترقية رتبتهم الأُستاذية، وعلْمية المعنيين ثقافيًّا وتراثيًّا كي يعتمدوها مرجعًا لطلاَّبهم والمتخصصين.

هكذا تُكمل «مرايا التراث» رسالتها لتبقى، كما منذ صُدُورها، مرجعيةً أَكاديمية نقيَّة.

هنري زغيب

مدير المركز/رئيس التحرير

تراثنا الصحافيّ

د. رشيد العفاقي

الصَّحافة اللُّبنانية المُهَاجِرَة إِلى طَنْجَة
١٨٨٩ – ١٩١٣

الصَّحافة اللُّبنانية المُهَاجِرَة إلى طَنْجَة ١٨٨٩ - ١٩١٣

د. رشيد العفاقي
كاتب ومُؤَرِّخ – طنجة (المغرب)

اشتهر اللبنانيون بالهجرة والاغتراب منذ كانوا، أي منذ ركب أجدادهم الفينيقيون البحر لاستكشاف العوالم المجهولة. لست أؤرِّخ لهذه الهجرة من مطالعها، فأخبار تلك الهجرات اللبنانية أضحت معلومةً لدى مؤرِّخين اهتموا بانتشار اللبنانيين في كل اتجاه، خصوصًا بعد حوادث جبل لبنان سنة ١٨٦٠، تلك «السنَة المشؤومة»، ثم بعد حوادث «الاستبداد العثماني» الذي تأذّت منه فئات من مواطني سوريا وبلاد الشام، فكانت عوامل اقتصادية مُرَّة دفعت بلبنانيين كثيرين إلى مُغادرة بلدهم بحثًا عن فُرَصٍ أفضل.

ويلفت الانتباه نقص في أبحاث مؤرخين درسوا هذه الهجرة في مَوْطِنِها ونادرًا ما تَتَبَّعُوا آثار أبنائها في المهَاجِر البعيدة. فَهُم هاجروا بعد تلك الأحداث إلى مناطق عديدة من العالم، وكوّنوا جاليات مُتميِّزة في الولايات المتحدة الأميركية وأُستراليا والأميركتين الجنوبية والوسطى، وهي مَهَاجر لُبنانية معروفة يجد الباحثُ عن تاريخها الكثيرَ من النصوص والأضواء في كُتب الرحلات والمذكّرات والصُّحف، وصدرت حولها دراسات بالإنكليزية والإسبانية والفرنسية.

الأمن والحرية قبل الرغيف

نُجْحِف بحق هؤلاء اللبنانيين أو «السوريين» (بحسب الاصطلاح الشائع آنذاك) إذا اعتبرنا هِجرتهم فقط «بقصد التجارة وتوسيع المال وتحصيل الثروة الطائلة» (كما ذكَر الأمير محمد علي باشا في «رحلته الشامية»). ففي الحقائق أنّ كثيرين منهم هاجروا بحثًا عن الأَمْنِ وعن بيئاتٍ تتوفَّر فيها الحرية الفكرية بنِسْبَةٍ طَيِبَّةٍ، وأسدى كثيرون منهم خدمات جليلةً للثقافة العالمية، فأنشأوا الصُّحُفَ وساهموا في تنشيط الحركة العلمية والفَنِّية في البلدان التي استقبلتهم. وثَمَّةَ مَهَاجرُ لبنانيةٌ معروفةٌ لفَتَت المؤرخين، نُشير إليها قبل التركيز على المغرب ونعرض الريادة اللبنانية فيه.

اجتذبَت مصر لبنانيي هجرة ما بعد ١٨٦٠. قَصَدُوها لِما رَأوا في رُبوعِها من حرية وما في أُمرائها من أريحية. تركزوا في الإسكندرية والقاهرة مُستقَرًّا ومُقامًا، أسّسوا فيهما الصحُف، اشتغلوا في دواوين الترجمة لدى السفارات الأوروبية والأميركية، وعملوا في المسرح والسينما والفنّ عمومًا، وكانت لهم إسهامات جيدة حتى في الميدان الفلاحي والصناعي. والباحث عن أخبار «الشوام في أرض الكنانة» يجد عنهم نصوصًا كثيرة. وقصد اللبنانيون أُوروبا فأنشأوا صُحفًا ومجلات في باريس ومارسيليا ولندن، وعن هجرة اللبنانيين إلى القارة العتيقة نُصوص ومُعطيات تُؤَرِّخ لِمُقامهم فيها وتُبرز إسهاماتهم في إغناء الثقافة العربية هناك.

لكن الباحث لا يجد مادةً وافية عن لبنانيين نزحوا إلى المغرب. لم نجد دارسًا واحدًا اهتم بـ«الشوَام» الذين لَجَأُوا إلى هذا البلد في أقصى غرب الوطن العربي. والسبب نُدرةُ المعلومات عن مُقامهم في الديار المغربية وصعوبة الوصول إليها. وكان الأستاذ أحمد المكاوي أشار إلى هذا النقص في كتابه «المغرب في تاريخه المنسي»: «إنّ جوانبَ كثيرة من مسألة التواصل بين المغرب والمشرق في الفترة الحديثة والمعاصرة لا تزال غير معروفة بشكل دقيق بل يلفّها الغموض، ولا سيما أهمية الجالية الشامية في المغرب ودورها في مجالات متعددة: الصحافة والنشر والإصلاح وغيرها».

لماذا إلى المغرب؟

إغفالُ المؤرخين ما لحِق بهجرات اللبنانيين إلى المغرب حفزني على لَمِّ شتات أوراقٍ كُنت سجَّلْتُ فيها بيانات تاريخية عن لبنانيين استقروا في مدينة طنجة المغربية. فهذه المدينة كانت في القرن التاسع عشر مَقَرّ سُفراء وقَنَاصِل دولٍ أوروبية وأميركية، لذا أَنْشَأَتْ الدولة المغربية فيها «دار النائب السلطاني» لتمثيل سُلطان المغرب في التفاوض مع المفوضيات والقناصل. وكانت تلك تُعرَف بـ«دار النيابة»، ولا تزال بنايتُها حتى اليوم في «زُقاق الصيّاغين» لكنها فقدت الكثير من أصالتها وتحوّلت مكاتب للعُدُول والموثّقين قبل أن تُقفَل نهائيًّا. قُبالة «دار النيابة»، أيام اشتغالها في القرن التاسع عشر كان

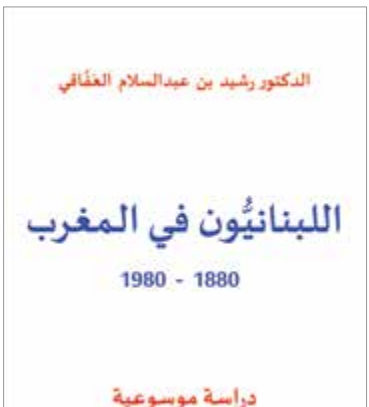

موسوعة في أجزاء متوالية ينوي إصدارها رشيد العفاقي كاتب هذا المقال

مَحلّ لتاجر لبناني مشهور في المدينة يُدعى جوزيف سعادة، وفي الزُّقاق ذاته مكتبة ميشال كرم، أحد ثلاثة أشقَّاء من آل كرم اللبنانيين، نزلوا عروس البلاد المغربية فاستفادوا وأفادوا.

قبل التعريف بأشهر لبنانيين انتقلوا إلى طنجة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر فأنشأوا الصحف واشتغلوا مع المخزن (الحكومة أو السلطة في الاصطلاح المغربي) ومع القنصليات والسفارات الأوروبية والأميركية، وفي معرض البحث عن ظهور الصحافة في المغرب وما كان لِلُّبنانيين فيها من دور رائد وإسهام بارز في تكوين مدرسة من الصحافيين المغاربة، نرسم إطارًا زمنيًّا وسياسيًّا صادفه أولئك اللبنانيون عندما حَلُّوا في المغرب. فوُصولهم تزامن مع انتهاء المغرب من عمره السياسي المستقل ولم يبقَ إلاّ الإعلان عن «الوفاة». فوجد أوَّل الوافدين إليه أن البلد يعيش الهزيع الأخير من عصر السيادة، إذ كان التنافس في ذروته بين القِوى الاستعمارية الأربع (فرنسا، إنكلترا، إسپانيا، ألمانيا) وبلغت هذه الدول مُبتغاها في استنْزَاف الدولة المغربية وحرمانها من مواثيق وامتيازات كانت تُبيح لها التّصرف في خيرات البلاد وشؤون العباد. تدخلت تلك الدول الأربع في رسم سياسة المغرب وقيّدتها بالتزامات ودُيُون كبّلتْها فلم تَعُدْ قادرةً على التصرف. وكان كُلٌّ من أولئك «الأربعة الكِبار» يَدَّعِي بأنَّ له الحقّ في إصلاح نظام الدولة المغربية ومساعدتها على النهوض، لِذا أَوْجَدَ كلّ واحد منهم أدواتٍ تُسهِّل مُهِمَّتَهُ وتُلَمِّعَ صُورَته عند السلطان ولدى المغاربة بعامّة، وتَعمَل على الدعاية لمحاسِنِه وعلى تبيان مساوئ خَصْمه وغريمه. من تلك الأدوات: الصحافة. هكذا برز الصِّراع بين القوى المتنافسة على صفحات الجرائد، وإذا بكل فريق، بكل ما أُوتِيَ من دهاءٍ وقوة، يسعى لَدَى «المخزن» المغربي إلى إقصاء مُنافسه، ونشأت حِكايات مثيرة في هذا الموضوع لا مكان هنا لعرض تفاصيلها.

الصحافة بين إحراجين

في الجانب المغربي لم تَخْلُ الساحة السياسية من صراع على مُستوى سُدّة الحُكم: دبّ النزاع بين وَرَثَة عرش السلطان الحسن الأوّل (توفي سنة ١٨٩٤) وامتدَّ سنواتٍ هرع خلالها المتنافسان (السلطان عبد العزيز وأخوه الأمير عبد الحفيظ) يتَّخذان من الصحافة منبرًا لنشر لآرائهما وتسويق أفكارهما. فأصحاب الجرائد فَتَرَتَئِذٍ كانوا بين موقفين: أن يعملوا مع السفارات الأوروبية أو مع السلطان، وفي كلتا الحالتين كانوا مُعَرَّضِين لمُضايقة الخصوم. وإذ اختار صحافيو العمل مع هذا السلطان وقَعَ في

مَوْقِفٍ حَرِجٍ حين رجّحت لأحداث كَفّةَ غيره، فكان لا بد لبعض اللبنانيين من «اللعبِ على الحبلين»، كما حال الأَخَوَيْن نَمُّور صاحبي جريدة «لسان المغرب». ومارس نواب السلطة وموظفو «المخزن» عمومًا تضييقًا على الصحافيين فبدا مربحًا لأصحاب الصحف العملُ مع الأوروبيين والأميركان لأنّ هؤلاء امتلكوا قوة القرار، ما كان يضمن للصحافي حماية لا يجدها في الطرف الآخر. وهذا ما اتّضح بوضوح بعدما أصبح المغرب كله تحت «الحماية» (Protectorat) الفرنسية والإسبانية سنة ١٩١٢.

أولى المدن المغربية التي نزلها أوائل اللبنانيين: طنجة وتطوان والرباط وفاس والدار البيضاء والصويرة ومراكش. وسنقتصر في هذه الدِّراسة على أعلام الصّحافة اللبنانية الْمُهاجِرَة إلى طنجة، فكانت لهم الريادة في هذا المجال وشكّلوا نخبة جليلة المكانة والحضور للحياة الثقافية والسياسية في المغرب منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر.

«المغرب» ١٨٨٩ أوّل جريدة عربية في المغرب

أسسها ثلاثة لبنانيين: عيسى فرح، سليم كسباني، أسعد كلارجي كرم. وهي أوّل صحيفة في بلاد المغرب الأقصى وفق العبارة على صدر ترويستها: «أوّل جريدة عربية طُبعت في مراكش». كانت «المغرب» تصدر أسبوعيًّا في مدينة طنجة، وصدر عددها الأول نهار الأربعاء ١٤ رمضان ١٣٠٦ الموافق ١٥ مايو ١٨٨٩.

في بحث المؤرخ الفرنسي جان لويس مْيِيجْ عن صحافة طنجة، جاء: «المحاولة الوحيدة لإنشاء جريدة عربية في القرن التاسع عشر كانت سنة ١٨٨٩. لكن «المغرب» المولودة في ربيع ذاك العام لم تتجاوز الخريف. كان مُحرّرها بادجيت ميكِن (Budget Meakin: كاتب إنجليزي سكَن طنجة وأنشأ فيها سنة ١٨٨٣ جريدة «أزمنة المغرب» Times of Morocco)، وهذا كافٍ لتفسير توقفها إذ لم تكن المفوضيات الأوروبية راغبة في رؤية صورة عربية لمقالات إنكليزية تزعجها».

أصحاب الجريدة ظهرت أسماؤهم في العدد الأوّل هكذا: عيسى فرح–كلارجي–كسباني. وعن هوية هؤلاء المؤسسين اكتشفنا أنّ الأوّل (عيسى فرح) راهبٌ لبناني بروتستانتي كان في طنجة مُمَثِّل «المؤسسة الإنجيلية الإنكليزية في الخارج» (Foreign Bible Society British).

أسعد كلارجي كرم استمر اسمه يظهر على صفحات الأعداد العشرة الأولى، حتى كان العدد ١١ فظهر على صفحته الأولى أنّ صاحبَي الجريدة

هما: عيسى فرح، وسليم كسباني، مما يعني أنّ كلارجي لم يعد من أسرة الجريدة. وأسعد كرم كلارجي لبنانيٌّ من بلدة كفرشيما، استقر في طنجة مع شقيقيه ميشال ووديع وأسّسوا جريدة «الترقي».

سليم كسباني لبناني من كفرشيما كذلك. أديب وصحافي لم يستقر في طنجة طويلاً فغادرها إلى الولايات المتحدة الأميركية في مطلع القرن العشرين.

في خبرٍ على الصفحة الأولى للعدد ٣٥٨ (١ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٨٩) من جريدة «المغرب الأقصى» (أوّل جريدة بالإسپانية صدرت في طنجة) جاء أن ناشرَ الجريدة سوريٌّ الأصل، والسائد يومها أن مفردة «السوري» كانت تعني «اللبناني» في المقام الأوّل.

كانت «المغرب» تصدر في أربع صفحات، وفي شعارها أنها «جريدة إخبارية أدبية علمية». وأوضحت نهجها منذ افتتاحية العدد الأول المطوّلة، وفيها أَنْ «كانت هذه البلاد مُفتقرة إلى جريدة عربية اللغة والمشرب لنشر الأنباء الحقيقية والحقائق العلمية والاستنباطات المستحدَثة الصناعية التي من شأنها ترقية منزلة البلاد بأن تنير في رؤوس أهلها نارَ الحمية العربية، وتُدِبَّ فيهم النخوة الوطنية وتَنهض بهمم الرجال من حضيض الإهمال إلى التدرج في مراقي الكمال لكي يسعوا في إصلاح حالة بلادهم، باذلين النفْس والنفِيس في درء المفاسد عنها، وجلب المنافع إليها، وكل ما يعود إلى رفع رتبتها، عاملين على مكانتهم في مجاراة بقية البلدان في مضمار النجاح والقوة».

وديع كرم: «السَّعادة» و«الصّباح»

وديع كرم، (أو وديع بن خليل كلارجي كرم) هو أشهر ثلاثة أشقاء من آل كرم نزلوا طنجة. وآل كرم أسرة لبنانية مشهورة في الصحافة، موزّعة في جبل لبنان على عدد من قُراه وضيعاته. ووديع من آل كلارجي كرم الذين يسكنون كفرشيما، وكثيرون من أفراد هذه العائلة هاجروا بعد حوادث ١٨٦٠، فكان أن قصد المغربَ الأشقاءُ وديع وميشال وأسعد.

بدأ وديع كرم عمله الصحافي في مصر ثم انتقل إلى طنجة عام ١٩٠٤، وتوظّف ترجمانًا لدى القنصلية الفرنسية التي أنشأت جريدة «السعادة» سنة ١٩٠٤ لتكون صوتًا يدافع عن مصالحها في المغرب فعيّنت إدريس بن محمد الخبزاوي الجزائري مدير تحريرها ووديع كرم مُساعدًا إياه. وحين عاد الخبزاوي إلى الجزائر سنة ١٩٠٦ انفرد وديع كرم برئاسة التحرير.

«السعادة» منبر وديع كرم

وكانت الجريدة واسعة الانتشار وتصل إلى النخب المثقفة في معظم حواضر المغرب الكبرى.

إبّان كان وديع كرم يدير «السعادة» أنشأ معها جريدة «الصباح» المحلية اتفاقًا مع صاحب المطبعة سليمان بن حيّون. وكانت «الصباح» أسبوعية بالعربية، في أربع صفحات، تولى إدارتها صاحب المطبعة ورَأس تحريرها وديع كرم. صدر عددها الأوّل في طنجة نهار ٢٧ جمادى الأولى ١٣٢٤هـ/ ١٠ تموز/يوليو ١٩٠٦، وصدر الأخير (رقم ٩٨) نهار الثلاثاء ١٢ربيع الأول ١٣٢٦هـ/ ١٤ نيسان/أبريل ١٩٠٨م. شعارها «سياسية أدبية علمية تجارية». وتحت اسمها عبارة: «عند الصباح يحمد القوم السرى».

بعد فترةٍ حوّلها وديع كرم إلى مجلةٍ، وعلى غلافها «مجلة علمية تجارية أدبية تاريخية تصدر في طنجة مرتين في الشهر»، من ١٦ صفحة حجمًا متوسطًا. صدر عددها الأول نهار ١٧ رجب ١٣٢٦هـ/١٥ آب/أغسطس ١٩٠٨م. نشرت قصائدَ لشعراء من لبنان والعراق، وموادَّ تاريخية تُعَرِّفُ بالمدن المغربية العريقة، وأخبار الطب وحال السياسة في العالم، وأحوال المؤسسات المغربية كمؤسسة السجون والقضاء وغيرهما.

بين لبنانيين كتبوا في «الصباح»: ميشال الخازن ترجمان المفوضية الأميركية في طنجة التي جاءها في أواخر القرن التاسع عشر وبقي فيها حتى ظَهَر عام ١٩٢٣ «وَفْق باريس» فَحَدّد الوضع الدولي للمدينة وألغى القنصليات والسفارات، فنقلَت الولاياتُ المتحدة الأمريكية إدارة قنصليتها إلى الدار البيضاء. فترتذاك كان الصحافي

«الصباح» أصدرها وديع كرم تَوازيًا مع «السعادة»

اللبناني صالح أبو رزق مراسل «السعادة» في الدار البيضاء ويسجل أخبار الوافدين إليها من وطني أو أجنبي، فكتب في رسالته تاريخ ٢١ آب/أغسطس ١٩٢٥: «بين من حضروا للإقامة الدائمة في الدار البيضاء مسيو ميشال الخازن المعروف في هذه البلاد ويعمل منذ مدة طويلة ترجمانًا لدى سفارة أميركا في طنجة. وبما أن السفارات أُلغيَت من طنجة بحسب النظام الجديد تحوَّلَت وظيفته إلى قنصلاتو الدار البيضاء. نرحب بجنابه ونطلب له كل خير وصلاح في الدار البيضاء».

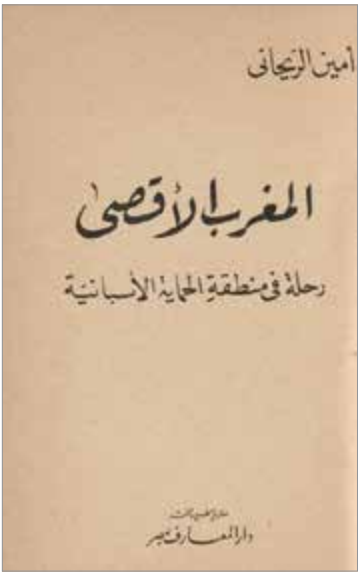

وحين وضع أمين الريحاني كتابه «المغرب الأقصى» أشاد ببعض «اللبنانيين المغتربين الرافعين اسم لبنان عاليًا بما أوتوا من المواهب العقلية والخلقية، وبما لهم من هِمّة وإقدام»، وذكر منهم «في طنجة الشيخ ميشال عبد الله الخازن في القنصلية الأميركية».

وبين لبنانيين كتبوا في «الصباح»: ميشال كرم (شقيق وديع)، وهو شاعر وناثر، يتقن الفرنسية. وأظنه أوّل الإخوة كرم وصولاً إلى طنجة. كتب ميشال كرم في الصحافة الطنجية كباقي إخوته، وعمل في الترجمة لدى السفارة الفرنسية في طنجة وأنشأ فيها مكتبة تجارية على طريق الصياغين أكبر شوارع طنجة القديمة. وإلى جانب نثره كان بارعًا في النظم، منه اكتشافي قصيدته في مدح السلطان عبد العزيز («الصباح» – العدد ٧٢ – نهار الأول من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٠٧. ومن شعره قصيدةٌ سنة ١٣١٩ه./١٩٠١م. خاطب بها المؤرخ محمد بن علي الدكالي الذي كان سأله عن محتويات مكتبته في طنجة. عاد ميشال كرم إلى لبنان وتوفي في كفرشيما سنة ١٩٢٨.

وبقي وديع، مع رئاسته «الصباح»، مُحتفظًا بموقعه في «السعادة» رئيسَ تحرير مسؤولاً عما يُكتب فيها، هي المُواليةُ فرنسا وتناصر السلطان عبد العزيز. فلما خلعه علماء فاس وبايعوا أخاه الأمير عبد الحفيظ، كتب وديع كرم (العدد ١٦٩ – الخميس ١١ ذي الحجة ١٣٢٥هـ/١٥ كانون الثاني/يناير ١٩٠٨م) مقالاً نعى فيه على أهل فاس خَلْعَهُم بيعةَ السلطان عبد العزيز ونعَتَهم بالزنادقة والمارقين الثوار. عندئذ قامت حملة ضد وديع كرم

اشترك فيها عدد من عُلماء فاس لدحض أفكار تُروّجها جريدة «السعادة» التي كان شيوخُ فاس ينعتونها بِـ«الشَّقاوة» وتارة بـ«التعاسة»، وأصدروا منشورات تُوضّح شَرْعِية بَيْعة السلطان عبد الحفيظ حملت عناوين لافتة بتوجيه السّهام إلى وديع كرم، منها: «مفاكهة ذوي النبل والإجادة حضرة مدير جريدة «السعادة»، للشيخ عبد الحي الكتاني، و«الجيش العرمرم لِهَزْم وديع كرم» لمؤلف مجهول فرغ من تأليفه سنة ١٩٠٨ (٢٤ صفحة، مطبَوع على الحجر في فاس)، و«مقالة من سِنان القلم لتنبيه وديع كرم» كتبها محمد العابد بن سُودة (٣٢ صفحة، طبعة حجرية، فاس ١٩٠٩). وحين ترجّحت كفة الأمير عبد الحفيظ وصار سلطانًا على المغرب، هدأت الأمور وتوقفت المعارك على صفحات الجرائد وفي المنشورات السياسية. وعند توقيع عقْد «الحماية» الفرنسية على المغرب سنة ١٩١٢ انتقلت «السعادة» إلى الرباط (العاصمة الجديدة للبلاد) فانتقل معها وديع كرم (في كانون الثاني/ يناير ١٩١٣). ومن مقاله في مغادرة طنجة: «وداعًا أيتها الربوع الجميلة والسماء الصافية الأديم. وداعًا يا بلدًا استطبتُ بهوائه ومائه، وآنستُ غربتي بكرم سجايا سكّانه ودماثة أخلاق أبنائه. وداعًا ولَسْتُ بِنَاسٍ لأهل طنجة الفضل والمعروف. وداعا واللّه عليمٌ بذات الصدور».

بقي وديع كرم يدير «السعادة» حتى ١٩١٩ حين عاد إلى لبنان ترجمانَ السفارة الفرنسية في بيروت.

وبين لبنانيين كتبوا في «السعادة» بعد انتقال إدارتها إلى العاصمة الرباط: يوسف كرم. وهو ليس من آل كلارجي كرم (كفرشيما) بل وُلد في برمانا، وجاء إلى المغرب نحو سنة ١٩١٤، ترجمانًا لدى الإقامة العامة الفرنسية في الرباط. كان أديبًا بليغًا وشاعرًا مجيدًا، بدأ يكتب في «السعادة» منذ ١٩١٩ حتى مغادرته المغرب سنة ١٩٣٥. كان يوقّع مقالاته بـ«ياكب» (اختصار يوسف أبي كرم البرماني). وعقد صداقات ومراسلات مع بعض أدباء المغرب وشعرائه وصلنا منها نزر يسير، بينها قصيدته في تهنئة الفقيه أحمد سكيرج بتوَلِّيه قضاء مدينة الجديدة (أوائل رجب ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٢م).

الشقيقان فَرَج اللّه وأَرتور نَمُّور: «لسان المغرب»

وَفَدَا على طنجة وأصدرا فيها جريدة «لسان المغرب». فرج اللّه بن سليم بن ابراهيم بن يوسف، وُلِدَ في صيدا عام ١٨٦٨، درس الفرنسيو وأحكام أصول العربية لدى مدرسة الآباء اليسوعيين في صيدا. وعن

لسان المغرب
Lissan - ul - Maghreb
(L'organe du Maghreb)
Journal hebdomadaire, Politique, Littéraire et Commercial.

«لسان المغرب» جريدة الأخوين نمُّور

الكُونْت فيليب دي طرازي أنه «كان رجل عِلْم وعَمَل، لَيِّنَ المعشر، يُجِيد الكتابة نثرًا وشعرًا». شقيقه أرتور كان صحافيًا نبيهًا، صحب شقيقه في رحلاته إلى أوروبا والمغرب. وبعد إقامة وجيزة في الإسكندرية وطرابلس الغرب وتونس انتقل الأخوان إلى باريس فلندن فإلى طنجة بحثًا عن فُرص أفضل. بلغاها في كانون الثاني/يناير ١٩٠٦ وغايتهما تأسيس جريدة عربيةً. وحين أدركا أن القنصليةَ الألمانية في طنجة في إصدار جريدة عربية تكون صوتًا لها ودعاية لأفكارها ونَشْرًا محاسِنَها، تلَقَّيَا منها المساعدة الكافية وأنشآ مطبعة استحضرا لوازمها من المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين في بيروت، وجهَّزاها لطبع الجرائد والكتب. وبعد سنة من الاستعداد ظهر في طنجة نهار ٨ شباط/فبراير ١٩٠٧ أوّل عدد من «لسان المغرب»، أسبوعية من ٤ صفحات بالعربية، فرج الله نمّور مديرًا سياسيًّا وأرتور نمّور رئيس تحريرها. وأنشأ الشقيقان مكتبة في المدينة ضمّت نفائس مهمة. وفي العدد ٢٤ (١٩٠٨/٢/١٤) نشرا عقْد بيع الجريدة لـ«المخزن» المغربي (الحكومة) ما يعني التزامَهُمَا بالعمل لحساب السلطة. وسارت الأمور جيدةً في السنة الأولى من توقيع العقد، حتى ظهرت خلافات بين الأخوين نمور و«المخزن» (الحكومة) وصلت حدّ القطيعة فالطلاق. وكشفا أن «المخزن» المغربي لم يحترم التزاماته المالية تجاههما، مطبعةً وجريدة، وأخذ «المخزن» يتجاهل مطالبهما فأيقنا أنهما لن يحصلا منه على ما يرغبان. عندها راحا يفضحان عورات «المخزن» ونشرا في «لسان المغرب» كتاباتٍ شديدةَ اللهجة في انتقاد سياسة الحكومة، ومقالاتٍ تناقش «مسؤولية الملوك ووُلاة الأمور» وتُلمح إلى أن مآل حُكم السلطان عبد الحفيظ قد يُشبه ما انتهى إليه النظام العثماني بعدما عمّ فيه الفساد.

وبدأت الكتابات تصف سياسة الحكومة بـ«العوجاء» وبأنها «آخذة برقبة الأمة إلى الشقاء والفناء وبناصية المغرب إلى الدمار والخراب». وحين ضاق «مخزن» السلطان عبد الحفيظ بانتقادات «لسان المغرب» أصدر أوامره إلى النائب السلطاني في طنجة السيد محمد الكبّاص بتوقيف الجريدة ونفْي صاحبيْها من المغرب. فتوقفت الجريدة بعد صُدور عددها الأخير (رقم ٨٤ نهار ٢ أيار/مايو ١٩٠٩) واستولت الحكومة المخزنية على مطبعتها ونَقَلَتْهَا إلى مدينة مُراكش. هكذا انطفأت تجربة صحافية لبنانية في الديار المغربية لم تدُم طويلاً لأنها ظهرت في ظروف سياسية حرجة وغامضة. بعدها غادر الأخوان نمور من ميناء طنجة (أواخر أيار/مايو ١٩٠٨) متسلِّمَين من السفارة الفرنسية مبلغًا كبيرًا مكّنهما من السفر إلى أميركا الجنوبية. وعن الكونت فيليب دي طرازي أنّ فرج الله نمّور استقرَّ في البرازيل واشترى «المدرسة الشرقية الكبرى» في سان پاوْلُو ليخدم فيها أبناء وطنه، وبقي فيها حتى وفاته سنة ١٩١٩ عن ٥٤ عامًا.

الشيخ نعمة الله الدّحداح: «الفجر» و«الحق»

هو اللبناني نِعمة الله بن اسحاق بن موسى بن إبراهيم بن يوسف الدّحداح، وفد إلى طنجة مترجم الدولة الإسپانية في المغرب. درّس العربية لأبناء الإسپان في المدرسة العربية الإسپانية (Escuela Hispano-Arabe de Tanger) التي تأسست في ٥ شباط/فبراير ١٩٠٧.

«الحق» لنعمة الله الدحداح (عاشت سبعة أعداد)

أنشأ نعمة الله الدحداح جريدة «الفجر» بإيعاز من السلطان عبد الحفيظ قبل تَوَلّيه الحُكْم بأَشهُر لتكون صوتًا له ودعايةً لأفكاره في طنجة ونواحيها. وتحت اسم الجريدة عبارة «ولولا سواد الليل ما طلع الفجر». ظهر عددها الأوّل نهار ٢٧ حزيران/يونيو ١٩٠٨ واحتجبت بعد العدد السابع. لكن نعمة الله، بإيعاز من الإسپان، أسس في طنجة سنة ١٩١١ جريدة «الحق»، فيما بقي يُدرّس العربية لدى مدرسة ألفونصو الثالث عشر (Escuela de Alfonso XIII) التي

أسّستها الإرسالية الكاثوليكية في طنجة سنة ١٩١٣. لكنه انتقل إلى تطوان (نحو ٦٠ كلم عن طنجة) إذ أصبحت عاصمة المنطقة المغربية الشمالية التي احتلّتها إسپانيا. وفي تطوان أصدر الدحداح جريدة «الإصلاح» سنة ١٩١٧، وكتب فترتئذٍ مقالات بالإسپانية في مجلة أفريكا (AFRICA) التي كانت تصدر في سبتة (مدينة محتلة حاليًّا). ولَمّا أنشأت الإدارة الإسپانية في تطوان مجلة «الاتحاد» (عددها الأول في أول آذار/مارس ١٩٢٧) أَسندت رئاستها إلى الصحافي الإسپاني إِنْريكي أَرْكيس، وتوَلّى تحريرها الشيخ نعمة الله الدحداح. وله مؤلفات عدة، بينها: «تشنيف الآذان في مختصر تاريخ الإسپان» (١٩٣٢ – المطبعة المهدية – تطوان – ٢٣٤ صفحة)، وبقي في المدينة حتى وفاته سنة ١٩٣٧.

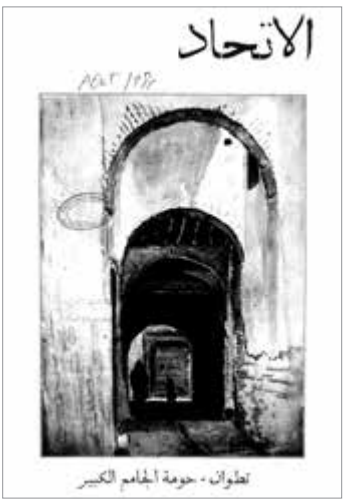

صفحات من مجلة «الاتحاد»
التي تولى تحريرها نعمة الله الدحداح

نعمة الله الدحداح (إلى يسار الصورة)
مع الأمير شكيب أرسلان (جالسًا)

أسعد كلارجي كرم: «التَّرَقِّي»

هو شقيق الأخوين ميشال ووديع، ولد في كفرشيما، ودرس في بيروت، ثم سافر إلى مصر فالمغرب. أقام في طنجة سنة ١٨٨٩ وكان شريك شقيقيه في تأسيس «المغرب» أوّل صحيفة عربية ظهرت في المغرب. عمِل ترجمانًا لدى القنصلية الإنكليزية في طنجة. وكتب في «السعادة» التي كان يرأس تحريرَها أخوه وديع. ولما انتقلت «السعادة» من طنجة إلى الرباط (١٩١٣) رأى الفرنسيون أن المجال الصحافي في المدينة سيخلو لمنافسيهم الإسپان والإنكليز والألمان، فقرروا إنشاء جريدة بالعربية مكان «السعادة»، موّل طباعتَها المثقف الفرنسي

المغرب
حوادث

أول جريدة عربية صدرَت في «المغرب»
أسسها الإخوة اللبنانيون ميشال ووديع وأسعد كرم

«الترقّي» جريدة أسعد كرم

أندريه بيار (Andre Pierre) الشهير فترتذاك في المدينة، فأدارها وآلت رئاسة تحريرها إلى اللبناني أسعد كرم فسمَّاها «الترقي». ظهر عددها الأوّل في طنجة تحت رعاية السفارة الفرنسية (١٢ نيسان/ أبريل ١٩١٣م/٥ جمادى الأولى١٣٣١هـ) وصدرت مرتين في الأسبوع، مكرسةً اهتماماتها للاقتصاد المغربي وفلاحته بصفة خاصة، إلى مواضيع أدبية وعلمية. وبقي أسعد كرم مراسل «السعادة» من طنجة ورئيس تحرير «الترقي» حتى احتجابها في أواخر ١٩٢٤. وخلال إقامته في طنجة كان يراسل صحفًا إنكليزية محلية ولدولية. وكانت وفاته في طنجة سنة ١٩٤٠.

ضريح أسعد كرم في طنجة

بين لبنانيين حرّروا في «الترقي»: الشاعر رشيد مصوبع الذي جاء إلى المغرب أواخر العقد الأوّل من القرن العشرين، وتجوَّل في بعض مدنه وقراه: طنجة والرباط والدار البيضاء ومكناس ومراكش، ومَدَح السلطان مولاي يوسف والماريشال ليوتّي (المقيم العام الفرنسي في المغرب) وغيرهما من رجال الحكومة المغربية وقادة الاحتلال الفرنسي، وخصّ بشعره بعض الأعيان المغاربة وأدبائهم. سكن طويلاً في طنجة، وساهم في تأسيس «لسان المغرب» للأخوين نمور. وللأستاذ عبد الله كنون في طنجة مقال أدبي عنه في كتاب «التعاشيب. كتب مصوبع في صحف عربية عدة منها «الترقي»، ثم انتقل إلى الدار البيضاء وفيها توفي سنة ١٩٢٤. ونعاه في «السعادة» صديقه صالح أبو رزق في مقال «مات الشاعر» جاء فيه: «أَجَل مات الشاعر، مات الناثر، مات اللغوي، مات تلميذ الشيخ ابراهيم اليازجي إمام اللغة، مات مَن شهد له العدو قبل الصديق بأنه شاعر من الطبقة الأولى. أجل، مات الكريم، مات المحسن، مات الجواد. مات مَن يجود بكل ما تملك يداه دفعة واحدة فلا يترك لنفسه ما تقتات

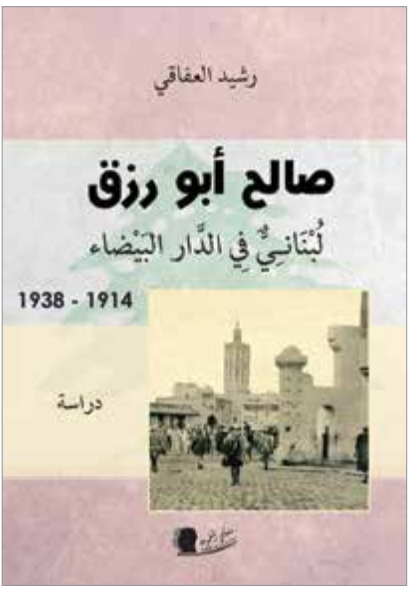

«صالح أبو رزق»، الجزء الأول من موسوعة رشيد العفاقي «اللبنانيون في المغرب خلال ١٠٠ سنة: ١٨٨٠–١٩٨٠»

به. أجل مات الشاعر السوري الشهير في هذه البلاد وغيرها المرحوم الشيخ رشيد مصوبع. مات مَن كانت نفسه لا تطمح إلا للمعالي والمجد، مات من كان لكثرة حبه للرفعة يطلب الإمارة فلا عجب من ذلك. وهذه عادة الشعراء من قبله، فإنهم ادّعوا النبوة. مات القائل: أنا شاعر الدنيا بدون مزاحم... فلا شاعر قبلي ولا شاعر بعدي». مات، رحمه الله، بعد أن عارك دهره معاركة الأبطال لتحصيل المعاش كما هي عادة أغلب الشعراء والكتاب والأدباء. مات غريبًا بعيدًا عن الأهل والأحباب. مات في المستشفى بعد أن قضى فيه مدة شهر للتداوي من مرض الإسهال الذي أصابه ولم تنجع فيه حِيَل الأطباء. مات فريدًا وحيدًا وقت النزع الأخير. مات، وأسفاه عليه، على هذه الحال. مات ولم يمش وراء نعشه سوى اثنين لا ثالث لهما، كأنه لم يتعرّف بحياته على أحدٍ، لا من كبراء ولا من علماء ولا من شعراء. دُفِنَ ولم يقل أحد على قبره ولا كلمة رثاء ووداع، وكان بحياته قد أبّن كثيرًا ورثى كثيرًا ومدح أكثر وأكثر. لم أكن عارفا أنك تقضي بهذه السرعة، بل كان أملي أن أراك خارجًا من المستشفى ممتلئًا صحة وعافية. ولم أكن عارفًا أنْ بِبُعْدي عن المدينة في هذين اليومين ستقضي، ولم أحضر مأتمك وأودعك الوداع الأخير. هكذا قدر، وهكذا كان، فلا حول ولا قوة إلا بالله. سِرْ إلى المقر الأخير حيث لا وجع ولا تعب، سِرْ إلى عالم غير هذا العالم الذي لا يُعرف فيه قدْرُ الشاعر إلا بعد موته».

المصادر والمراجع

أ. الصُحف: «**المغرب**»، «**السعادة**»، «**الصباح**»، «**لسان المغرب**»، «**الفجر**»، «**الترقي**»، «**الحق**». وجريدة «**Al-moghreb Al-Aqsa**» بالإسبانية.

ب. المجلات: «**الصباح**» ، «**الاتحاد**».

ج. الكتب المطبوعة:

- محمد المنوني، **مظاهر يقظة المغرب الحديث**، الجزء ١–٢، دار الغرب الإسلامي. بيروت ١٩٨٥.
- عبد الصمد العشاب، **مائة سنة من تاريخ الصحافة في مدينة طنجة**، مقالات منشورة في جريدة «الشمال» (طنجة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م)، الأعداد: ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤.
- فيليب دي طرازي، **تاريخ الصحافة العربية**، الجزء الرابع، المطبعة الأدبية. بيروت ١٩١٤.
- جامع بيضا، **صحافة طنجة: مرآة للصراع الدولي حول المغرب (١٩٠٠–١٩١٢)**. دراسة في ندوة: **طنجة في التاريخ المعاصر**، منشورات كلية الآداب – الرباط ١٩٩١.
- زين العابدين الكتاني، **الصحافة المغربية، نشأتها وتطورها**. منشورات وزارة الأنباء. لا تاريخ طبع.
- مصطفى بوشعراء، **الاستيطان والحماية، الجزء الثاني**، المطبعة الملكية. الرباط ١٩٨٧.
- الأمير محمد علي باشا، **الرحلة الشامية** (١٩١٠م). دار السويدي. أبوظبي ٢٠٠٠.
- أمين الريحاني، **المغرب ونور الأندلس**، دار الجيل. بيروت. ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.
- رشيد العفاقي، **صالح أبو رزق، لبناني في الدار البيضاء ١٩١٤-١٩٣٨**. منشورات سليكي أخوين. طنجة. ٢٠٢٠.
- أحمد مكاوي، **المغرب في تاريخه المنسي**، منشورات جذور. الرباط ٢٠٠٨.
- Jean-Louis Miège, *Journaux et journalistes à Tanger au XIX siècle*, revue Hesperis. Tome. XLI , 1954.
- Ricardo Ruiz Orsatti, *La Enseñanza en Marruecos*, Tetuan. 1919.

د. مخطوطات ووثائق:

- الشيخ عبد الكريم بن أحمد سكيرج، **دفتر ثغر الجديدة**. (مخطوط في خزانة عائلية خاصة).
- رسائل ووثائق من «**أرشيف المغرب**» و«**أرشيف نانْتْ**» (فرنسا).

تراثنا التشكيليّ

ابراهيم خليل الجر ١٨٧٣–١٩٣٦

رضوان الشهَّال ١٩١٥–١٩٨٨

ابراهيم خليل الجر
١٨٧٣-١٩٣٦

في كل نهضة فنية آباء مؤَسسون مهَّدوا لمن جاء بعدهم، فتحقَّقت تلك النهضة، وفتحَت فضاءً جديدًا لتاريخ الفنون في كل بلَدٍ تتوالى فيه أَعمالُ أَعلام همُ الذين يَبنُون تاريخ البلاد فيَبقى على الزمن ما أُعطيَ الزمان منَ بقاء.

«مرايا التراث» التي تتعهَّدُ رسالة الكشْف عن تراث لبنان أَعلامًا ومعالِمَ وعلامات، تنشُر تباعًا ملامحَ من تراث لبنان التشكيلي.

وها هي، في هذا العدد، تَفتح صفحةَ رائدٍ من القرن التاسع عشر، شكَّل مع أَترابه نخبةَ الذين كانوا خميرةَ ما عاينَّاه بعدهم في الجيلَين الثاني والثالث من المبدعين اللبنانيين.

هذه اليوم صفحة ابرهيم خليل الجُر الذي لم يَحُكَّ ريشته على سنديانة الأَكاديميا، فإذا بأَعماله مرحلة نابضة في الدراسات الأَكاديميَّة.

هــو

وُلِد في يحشوش (فتوح كسروان) سنة ١٨٧٣، وتوفي في جبَيل سنة ١٩٣٦.

تابع دروسه الابتدائية في مار ميخائيل القرن (المراديَّة) وأَكمل وحدَه بسبب مرض أَصابه.

لم يَدرس الرسم أَكاديميًّا بل قاربَه فطريًّا، كاكتسابه ثقافته مطالعةً واطِّلاعًا. درس الرسم على رسام إِيطالي كان يسكن عمشيت، عرض عليه منحةً لدراسة الفن في روما، لِما توسَّم في موهبته من حذاقة وقدرة على التعلُّم. لكن ابرهيم كان دائم التوعك في طفولته فخافت عليه أمه وحالت

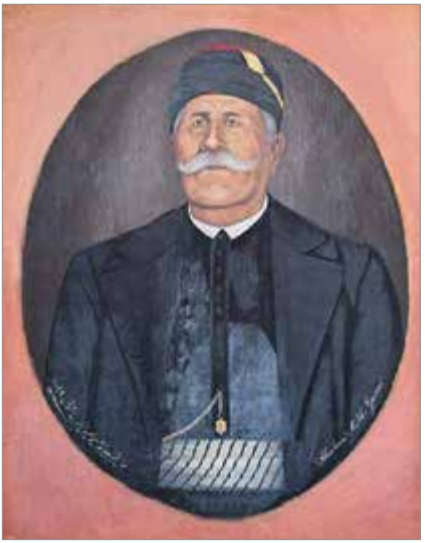

رجل من يحشوش – ١٨٩٩

دون اطِّلابه العلمَ بعيدًا عنها، فخسر الفتى الطَموح فرصةَ العمر. لكنه ثابر بما لديه من قوة موهبة وإرادة تعلُّم ذاتي فانتصر على المحدودية في بيئة القرية، وراح ينهل من المعرفة عميقًا حتى أَنه حفِظ الإلياذة غيبًا، وغرف من قاموس «دائرة المعارف»، وراسل غير مجلة وجريدة.

كان خطه جميلاً أنيقًا فنفذ رسومًا وخطوطًا لمجلات عدة بينها «المنارة». وبخطه الجميل نسخ عددًا من الكتب القديمة بينها إعادة توليف الصفحات الأولى (الضائعة) من قاموس المطران جرمانوس فرحات.

أَولى بلْدته يحشوش اهتمامًا كاملاً فاختاره أَهلها شيخ صُلح بينهم طوال حياته، وبقي على خدمتهم في جميع المراحل وأَصعبها. منها، مثلاً، إبان الحرب العالمية الأُولى واستفحال السلطنة العثمانية في فرض ضرائبَ قاسيةٍ على القُرى يجبيها لها شيخ الصلح في القرية. أراد ابرهيم الجر أن يخفِّف الضريبة عن أَهل يحشوش، وكانوا يعانون من المجاعة، فصكَّ نقودًا معدنية شبيهة بالريال المجيدي العثماني سدَّد بها الضريبة عن أَهالي يحشوش. وكي لا ينكشف تقليدُه العمْلةَ المطابقة فيكون عقابه السجن المؤَبد أَو قطْع الرأْس، تعمَّد الخطأ في التزوير ووضَع لكلمة «قسطنطينية» نونًا واحدة بدل اثنتين: «عز نصره ضرب في القسطنطية».

كانت لابراهيم الجر صيدلية، لِما كان ملمًّا به من معلومات مكثَّفة في علْم الطب على مذهب ابن سينا، فأَقبل عليه أَهل يحشوش والقرى المجاورة يَستعينون بخدماته الطبية.

تقدَّم بطلب زوجته ماري يوم زفافها من رجل آخر اختاره لها أبوها. تجاوبَت معه وتزوجتْه وشكَّلا عائلة من سبعة أَولاد: خليل، ضو، ألبير، ريمون، جوزف، ميشال، فرنسواز.

ريشتُه

لوحاتُه ثمرة مجهوده الشخصي النابع من حبه الرسم. ومعظم زيتياته رسْمُ أَشخاص وقديسين، أَكثرها مواضيع تخص الكنيسة. سوى أَنه،

زيارة السيدة العذراء

العذراء والطفل يسوع (١٩٠٠)

برغم لأَكاديميَّته دراسةً، كان بارع استعمال الريشة والتنقُّل من لون إلى آخر، والحفاظ على التوازن في تصميم اللوحة، ومزْج الأَلوان في براعةٍ واختيارها بما يحاكي عصرئذٍ براعات المرحلة الأُولى من عصر النهضة الإيطالية. وواضحٌ تأَثُّرُه بها في مواضيعه الكنَسية والپورتريه، وفْقَ قاعدة ذاك الزمن، أَي تصميم اللوحة من قسمين: الأَول «پريمو پيانو» (مقدمة اللوحة) والآخر «سكُونْدو پيانو» (خلفية اللوحة) فينحصر الموضوع في المقدمة ويتوزع الأَشخاص فيها تباعًا، ثم يأْتي القسم الآخر منظرًا طبيعيًّا بعيدًا في الخلفية.

من ذاك النموذج مثلاً زيتية الجر «مار سمعان العمودي»: ركَّز الموضوع على مقدمة اللوحة ووزع الأَشخاص عموديًّا وأُفقيًّا، وفي البعيد منظر الطبيعة والأُفق، ما يؤكد تأَثُّرَه بالمرحلة الأُولى من عصر النهضة الإيطالية. وكذلك زيتيَّته «مار بطرس وبولس» (كنيسة العذرا – فتوح كسَروان) وفي كنيسة سيدة غوشريا (يحشوش – الفتوح).

في لوحاته جمودٌ كما في غياب الحركة تمامًا لدى رواد المرحلة الأُولى من عصر النهضة الإيطالية. وذلك عائد إلى غياب أُصول علْم المنظور في تلك اللوحات قبلَ اكتشافاتٍ شهدتْها لاَحقًا المرحلتان الثانية والثالثة مع عباقرة ذاك العصر، وأَبرزُهم ليون أَلبرتي (واضع قواعد علْم المنظور) وليوناردو دافنتشي مستنبط تقنية إلغاء الخطوط والانتقال من طبقة لونية إلى أُخرى بتدرُّج دقيق.

كل هذا بلغَه ابرهيم الجر بدون معرفته تلك الاكتشافات التقْنية، بل من إحساسه الفطري وقدراته على التعبير بلُغة تشكيلية خاصة وفريدة، طابعُها الصدق في التعبير والبساطة في اللغة التشكيلية ولو بدون إتقان تقني ودقة عملية.

تنتشر لوحاته في الكنائس والمنازل والأَديار في كل لبنان، عُرِضَت في معارض عدة أَبرزُها سنة ٢٠٠٢ عرْضُ ٧٥ لوحة في بريطانيا بدَعوة من الجمعية البريطانية اللبنانية.

كنتُ مريضًا فعُدتُموني

مار مارون واثنان من تلامذته (١٩٣٠)

زيتيَّاتُه

هنا ثَبْتٌ ببعض زيتيات الجر:

أَولاً - في الكنائس:

١. كنيسة مار سمعان (يحشوش)
٢. كنيسة سيدة غوشريا (يحشوش – ٣ لوحات)
٣. كنيسة سيدة قهمز
٤. كنيسة مار الياس (الكحاله – ٥ لوحات)
٥. كنيسة مار يوحنا (المرادية)
٦. كنيسة مار جرجس (حقل الريِّس – غبالة)
٧. كنيسة مار أنطونيوس (عين الجاع – غبالة)

٨. كنيسة مار يوحنا (شنَنْعير)
٩. كنيسة السيدة (الغينة)
١٠. كنيسة مار سركيس وباخوس (غبالة)
١١. كنيسة مدرسة القرن – المرادية
١٢. لوحة مار يوسف والطفل يسوع (أنطش جبيل)
١٣. كنيسة مار أنطونيوس (نيحا ١٩٠٥)
١٤. مطرانية جونيه (عرمون)
١٥. دير مار يوحنا مارون (البترون – ١٩٠١)
١٦. دير مار بطرس وبولس (العذرا – فتوح كسروان – ١٩٠٠)
١٧. كنيسة مار نهرا (١٩٠٠)
١٨. كنيسة الوردية (يحشوش)

ثانيًا - زيتيات في منازل كلٍّ من:

ابرهيم الجر بريشته

١. سمعان فارس زوين/يحشوش (لوحتان)
٢. فايز عطاالله/يحشوش
٣. أديب زوين/يحشوش
٤. منزل الياس طنوس عطاالله / أدونيس
٥. خليل الجر/يحشوش
٦. سمعان الخوري سعيد/يحشوش
٧. جوزف رزق الله/أدونيس
٨. حبيب عطاالله/أدونيس
٩. الأب طوبيا سعيد/مشَّان
١٠. منزل ايلي خير الله/زيتون (لوحتان)
١١. ميشال الجر/يحشوش
١٢. جان وجاك مراد/المرادية
١٣. جرجس الخوري زوين/يحشوش (١٨٩٦)
١٤. ابنة شقيقه السيدة الهراوي/بسكنتا

* «مرايا التراث» تشكر ولْيَم مطر على بعض ما جاء في هذا النص من صُوَر ومعلومات وردَت في موقعه الإلكتروني One Fine Art

رضوان الشهَّال
١٩١٥-١٩٨٨

من المؤلفات ما يكتفي باسم صاحبها للرواج. ومنها ما يزين غلافها برسم معبِّر يزيد من رونقها للعين والفُضُول، وتزيد منها رسومٌ داخلية من وحي نصوصها، فتُصبح قراءتها سائغةً مريحة. ويصحُّ هذا كذلك في سلاسل كتُب الأَطفال التي توسّع أَغلفتُها ورسومُها آفاق الطفل خلال مشواره مع الكتاب.

لبنان عرف منذ الأَربعينات هذه الظاهرة، فكانت أَغلفة الكتب تَغوى برسوم وخطوط ورسوم داخلية تزيد من أَناقة الكتاب واقتنائه. واشتهر فترتئذٍ عددٌ من التشكيليين تخصصوا في هذا العمل الفني.

في طليعة هؤُلاء: رضوان الشهّال الذي زيَّن عددًا كبيرًا من كتُب كبار أُدباء لبنان كانوا يطلبون من رضوان أَن يوقِّع اسمه مع أَسمائهم لِما اشتهر عنه من براعةِ رسمٍ وتعبير، حتى بات اسمُهُ علَمًا أَول في ظاهرة أَغلفة الكتب.

«مرايا التراث» تتذكَّره في هذا النص ناشرةً نبذةً عنه وبعضًا من ثمرات ريشته أَغلفةَ كتُبٍ ورسومًا داخلية.

هـو

ولد في طرابلس وانتقل طفلاً سنة ١٩٢٠ إلى صيدا حيث عُيِّن والدُه رئيس محكمة البداية، فتلقَّى علومه الابتدائية هناك في «مدرسة الشمعون الرسمية» وحفظ القرآن الكريم وختمه مرتين.

بدأَت تظهر منذ فُتُوَّته الأُولى ميوله الأَدبية والفنية في شغفه بالمطالعة والكتابة والرسم.

عاد سنة ١٩٣١ إلى طرابلس إذ عُيِّنَ والدُه رئيس محكمتها، فانصرف الفتى إِلى مطالعة روائع الأَدب الغربي من توماس مان ومكسيم

الكتاب التذكاري في ذكراه

غوركي وتشيخوف ودوستويفسكي وتولستوي» وسواهم وأخذ يزداد شغفًا بالأدب.

انتقل إلى بيروت يدرس في الكلية البطريركية متتلمذًا على الشيخ ابراهيم المنذر، ثم عاد إلى طرابلس يتابع دراسته الثانوية في كلية التربية والتعليم فنال شهادة البكالوريا سنة ١٩٣٣.

استهواه جوُّ بيروت الأدبي فعاد إليها وسكن عند أخواله آل البحيري أصحاب منشورات «دار الأحد» التي كانت فترتئذٍ ملتقى أهل السياسة والأدب (رياض الصلح وكاظم وعادل وتقي الدين الصلح، أمين الريحاني وميخائيل نعيمة وبشارة الخوري (الأخطل الصغير) وسواهم.

أراد آل البحيري إصدار مجلة عن دارهم باسم «الأحد» يكون رضوان من أُسرتها كتابةً ورسمًا، لكن سلطة الانتداب لم ترخّص لهم فغادر رضوان إلى مصر سنة ١٩٣٦ ملتحقًا في الإسكندرية بكلية الحقوق. لكن جو الأدب والفن ظل ساطعًا في اهتماماته، فغادر الدراسة في الإسكندرية وانتقل إلى القاهرة موظفًا لدى قسم الرسم التجاري (الإعلانات) في دار الهلال» و«شركة الإعلانات الشرقية»، ما أتاح له الاتصال بالحركة الثقافية والأدبية والفنية في القاهرة. واشتهر هناك برسم الوجوه: طه حسين ومصطفى النحاس باشا ومحمد عبد الوهاب، ...) فذاعت طريقته المبتكرة.

كاتبًا إلى كونه رسامًا

عاد إلى بيروت سنة ١٩٣٨ وانصرف إلى الرسم الصحافي والكتابة ووضع رسوم لأغلفة الكتب وداخلها من وحي نصوصها.

سنة ١٩٤٥ تزوَّج من حنيفة كفرسوسا ولهما ولدان: ابراهيم وعمر.

سنة ١٩٥١ ترشَّح للانتخابات النيابية في طرابلس لكنه لم يوَفَّق.

مع تعثُّر الوضع في مطالع حرب السنتَين في بيروت، عاد سنة ١٩٧٧ إلى طرابلس منصرفًا إلى الكتابة والرسم.

سنة ١٩٨١ أقام معرضًا للوحاته في «مركز رشيد كرامي الثقافي» – طرابلس ضمَّ ٤٥ لوحة (حبر صيني وغراتاج ومائيات).

في أواخر ١٩٨٧ ظهرَت عليه ملامح مرض خبيثٍ ظلَّ يقاومه حتى توفي في ١٥ تشرين الأول ١٩٨٨.

في أربعينه تنادت مؤسسات ثقافية عدة إلى احتفالَين لتكريمه في قاعة «الرابطة الثقافية» – طربلس: الأول خطابي نهار الأحد ١١ كانون الأول ١٩٨٨، والآخر نهار الإثنين ١٢ كانون الأول قراءات من شعره قدَّمها «منتدى طرابلس الشعري».

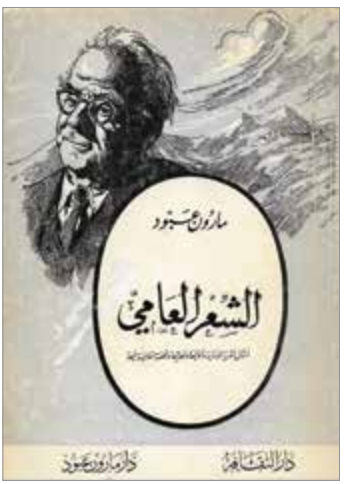

اثنان من أغلفة كثيرة وضعها لمؤلفات مارون عبود

عقْد الصداقات

من أصدقائه الكاتب كريم مروّه الذي في كتابه «ملامح الشخصية اللبنانية – سِيَر وإبداعات المثقَّفين اللبنانيين» (الدار العربية للعلوم ناشرون – ٢٠١٤ – ٣٢٠ صفحة قطعًا كبيرًا) خصص له فصلاً كاملاً

(ص ٢٥٥ – ٢٦١) جاء فيه: «استمر رضوان على امتداد حياته أَمينًا لمواقفه الفكرية من الأَدب والفن، ولصيقًا بالدور الذي وضعه لنفسه كأَديب ورسام. كنتُ بين مجموعة كبيرة من أَصدقائه، وبقيتُ على صلة ثابتة معه حتى آخر لحظة من حياته، نناقش معه، فنتَّفق ونختلف، ونكنُّ له على الدوام التقديرَ الكبير لإسهاماته. وغادر الحياة تاركًا تراثًا أَدبيًّا وفنيًّا يُذكر به أُسوة بالكثيرين أمثالَه في لبنان».

وفي دلالة استذكارية أُخرى على قيمته وحضوره، كان حوار عنه («النهار» – ٢٣ حزيران ٢٠١٩) مع ابنه عمر الذي قال باعتزاز عن والده: «كان أَبي رضوان صاحب ريشة فنية طبعَت غالبية الكتب الأَدبية اللبنانية بين الأَربعينات والستينات من القرن الماضي رسومًا داخليةً وأَغلفة كتُب ومجلّات، بينها «المكشوف» و«الشرق العسكري» و«الصياد»، وصحُف بينها «الأَخبار» و«الشعب». وكان صديق عدد كبير من الفنانين (خصوصًا

رسم يسوع كما رأتْه المجدلية، في كِتاب «المجدلية» لسعيد عقل (الطبعة الأُولى ١٩٣٧)

من رُسُومه لكتب الأطفال

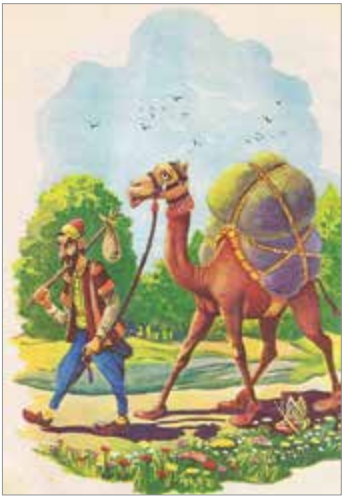

رسم لقصيدة «أَغنار» في «رندلى» سعيد عقل (الطبعة الأُولى ١٩٥٠)

رسْمُه لقصيدة «نار» من «رندلى» سعيد عقل (الطبعة الأُولى ١٩٥٠)

المجدلية في صخب حياتها قبل أن تلتقي يسوع (من كتاب «المجدلية» لسعيد عقل (الطبعة الأولى ١٩٣٧)

رسْمُه مارون عبُّود (ظهَرَ على معظم مؤلفات الأديب الكبير)

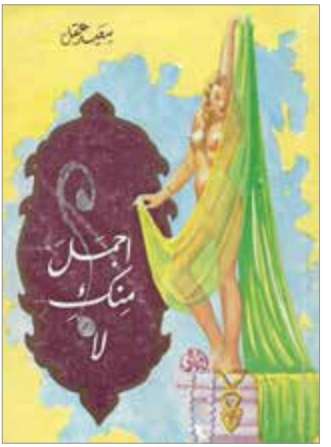

غلافه لكتاب «أجمل منك؟ لا» لسعيد عقل (الطبعة الأُولى ١٩٦٠)

اسمه مع اسم سعيد عقل في الصفحة الداخلية من «رندلى» (الطبعة الأُولى ١٩٥٠) واللافت: ذكْر اسمه الأول فقط (رضوان) لشهرته عصرذاك

رشيد وهبي) والأُدباء والمفكرين. وأَذكر أَن مارون عبود أَوصى أَولاده بأَن تزيّن رسومُ والدي «متحفَ مارون عبود» في عين كفاع. وكان سعيد عقل يتصل بأَبي طالبًا منه رسومًا وأَغلفة لكتبه («المجدلية»، «رندلى»، «أَجمل منكِ؟ لا»). ولم تنقطع العلاقة بينهما أَيام الحرب فكان الشاعر الكبير يتصل بوالدي للاطمئنان عليه بعد انتقاله من بيروت إِلى طرابلس. كما كان على صداقة خاصة مع الأَخطل الصغير ويوسف حبشي الأَشقر. ومن زواره أَيضًا نجيب حنكش الذي طلب من الوالد تزيين كتابه «حنكش بليرتين» فلمَّا رَسَمه «كاريكاتوريًّا» أَصر حنكش على أَن تكون هذه الصورة على الغلاف».

من مؤَلفاته

١. امرؤ القيس كبير شعراء الجاهلية (١٩٦١)
٢. في الشعر والفن والجمال (١٩٦١)
٣. أَبو الطيب المتنبي عملاق الواقعية في الشعر العربي (١٩٦٢)
٤. كيف نتفهَّم الشعر ونتذوقه (١٩٦٣)
٥. جرار الصيف (مجموعة شعرية – ١٩٦٤)، نالت «جائزة أَصدقاء الكتاب» مناصفة مع الشاعر يوسف غصوب، وجائزة سعيد عقل.
٦. رجال في البحر (مجموعة قصصية – ١٩٦٦). نالت جائزة وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة مناصفة مع الأَديب خضر نبوة.

٧. ملحمة لينين: نشيد لمجد الإنسان والأرض (١٩٧٠)
٨. عن الشعر ومسائل الفن (منشورات وزارة الثقافة – دمشق – ١٩٨٦)
٩. رشيد وهبي فنان الطبيعة والإنسان (١٩٨٢)

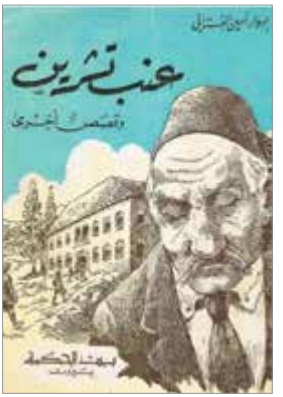

باقة من رُسُومه للأغلفة والصفحات الداخلية
لأدباء لبنانيين، مع اثنين من مؤلفاته الخاصة

الملف

الدولة في تراث اللبنانيين

نحو برنامج ثقافي تربوي وعلى مستوى البلديات لنقل تراث الدولة لبنانيًا للجيل الجديد. شروط مثاقفة الدولة لبنانيًا في الذاكرة الجماعية المشتركة وكتابة التاريخ ودولنة المواطنية.

أنطوان مسرّه

لم تحظَ الدولة لغاية اليوم في الادراك العام الأهمية التي تستحقها. أنتم قادرون ويجب أن تساهموا في هذه التربية.

الرئيس فؤاد شهاب في نادي الضباط، ١٩٦٠/١١/٢٢

Si l'Etat est fort, il nous écrase. S'il est faible, nous périssons.

إذا كانت الدولة قوية تَسحقُنا، وإن كانت ضعيفة نهلك.

Paul Valéry

Quelles traditions étatiques les Libanais trouvent-ils dans leur histoire ?

أي تقاليد دولة يستخرج اللبنانيون من تاريخهم؟

Dominique Chevallier, 1988

هذه الدراسة ذات أبعاد دستورية وثقافية ونفسية وتاريخية وتربوية. لذا سأعتمد فيها الخطاب الاستدلالي أو الاستطرادي discursif، وربما غير المتتابع (*discursus*, discursive, discours, courir)، فيَستخلص فكرة من فكرة أخرى عبر تدرّج في البحث وبدون الالتزام بمسار صارم، تسهيلاً للمقروئية وترجمة المضمون الى برامج وأعمال تطبيقية. وأبقيتُ على بعض التكرار حرصًا على التناسق داخل بعض المقاطع.

الدولة في تراث اللبنانيين

أنطوان مسرّه[1]

مقدمة

ما يعيشه اللبنانيون من كوارث ومآسٍ في جميع المجالات: مختبر معبِّر في علم الاجتماع وانتروبولوجيا التاريخ حول المجتمع والدولة. هكذا، في مجتمع اللادولة، يتقهقر اللبنانيون الى القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد!

ظواهر انفجار المرفأ في ٤ آب ٢٠٢٠، وغياب التيار الكهربائي، والتموين بالمحروقات، والانهيار المالي، وفقدان الدواء والمواد الأساسية في الأسواق، والفلتان الأمني،... جميعها طبيعية naturelles لا نظامية normales، في حال غياب الدولة التي هي المولجة بتطبيق القانون mise en oeuvre du droit.

هذه الضبابية في عمق الادراك اللبناني حول الدولة تتمظهر في سجالات فئات وأحزاب وحوارات متلفزة، فيتم اتهام المصارف والتجار والمستوردين ومحطات المحروقات...، بينما سبب الفوضى واحد: غياب الدولة. فهكذا تتدهور الأمور عند غياب الدولة، أو يتم التركيز حصرًا على الطبقة الحاكمة او على ضرورة تجديد النخبة الحاكمة من خلال الانتخابات...، ولكن دون البحث في الجذور الثقافية لبنانيًا لغياب الدولة

---

١) **رئيس كرسي اليونسكو لدراسة الأديان المقارنة والوساطة والحوار في جامعة القديس يوسف.**
عضو المجلس الدستوري سابقًا، ٢٠٠٩–٢٠١٩.
أستاذ في الجامعة اللبنانية منذ ١٩٧٦ وفي جامعة القديس يوسف
أستاذ في معهد الدروس القضائية
عضو مؤسس للمؤسسة اللبنانية للسلم الأهلي الدائم (جائزة برنامج الأمم المتحدة الإنمائي UNDP ومؤسسة جوزف ولور مغيزل للسلم الأهلي وحقوق الانسان)، ١٩٩٧
جائزة الرئيس الياس هراوي: لبنان الميثاق، ٢٠٠٧
جائزة مؤسسة المطران اغناطيوس مارون لكتاب: **الثقافة المواطنية في مجتمع تعددي: لبنان من منظور مقارن**، بيروت، «تصالح»، منشورات المكتبة الشرقية (بالفرنسية)، ٢٠١٥، ٥٦٠ ص، وطبعة عربية مضافة، ٢٠١٩، ٧٧٠ ص.

وتقاعس القيّمين على الشأن العام. وتتشظى اتهامات متبادلة وسجالات تزيد من الضبابية وتُشكّل تغطية لفقدان السيادة الوطنية وإرساء ممارسات لقبائليةٍ ما قبل الدولة pré-étatique. وهذا يتجلى غالبًا في برامج متلفزة بالتداول في شؤون عامة بدون مرجعية، ولا بوصلة، وتعميم منازعات في مجتمع اللادولة، فتنتشر ذهنية قبَلية ما قبل الدولة mentalité tribale pré-étatique، أو يتمادى مثقفون بدون خبرة في الهروب من موضوع الدولة المركزية عبر طروحات حول «الصيغة»، ووثيقة الوفاق الوطني-الطائف، و«ثغرات» في الدستور، والفدرالية، واللامركزية، و«الطائفية»...، بينما في أرقى المجتمعات لا تستقيم أي منظومة سياسية بدون دولة تتمتع بكامل المواصفات الملكية للدولة ومثاقفة الدولة في الادراك الجماعي acculturation de l'Etat.

كتب عبد الحميد الاحدب: «أي بلد لا يستطيع ان يعيش تحت الفوضى (...). نحن في جنازة الدولة اللبنانية (...). جاء وقت إنشاء دولة (...). أيها اللبنانيون، سرقوا دولتكم ونحن نسير في جنازتها»[٢].

ا. ما معنى «دولة» في لبنان؟

١. تتنادى السجالات في توصيف الدولة في لبنان: «مدنية»، «علمانية»... والدولة في لبنان ليست مُكتملة الصفات الأساسية ontologiques المسماة ملكية (régaliens, *rex, regis*, roi) وهي أربع:
   - احتكار القوة المنظِّمة
   - احتكار العلاقات الدبلوماسية
   - فرض وجباية الضرائب
   - إدارة السياسات العامة.

٢. منذ اتفاق القاهرة سنة ١٩٦٩ وبين ١٩٧٥-١٩٩٠، وخلال احتلال الجيش السوري بعد ١٩٩٠، حتى العملية الإرهابية ضد الرئيس الشهيد رفيق الحريري وموكبه في ٢٠٠٥/٢/١٤، وفي «اتفاقية قاهرة» متجدّدة في تحالف مار ميخائيل في ٢٠٠٦/٢/٦ بين جهةٍ سياسية وجيشٍ/حزبٍ مرتبط بسلاحه ودبلوماسيته بالجمهورية الإسلامية الإيرانية،... والدولة في لبنان فاقدةٌ سيادتَها وسلطتَها على العلاقات الدبلوماسية، وبها حاجة قصوى لـ«فك الحصار عن الشرعية».

٢) عبد الحميد الاحدب، «أيها اللبنانيون... لم تعد لكم دولة»، **النهار**، ٢٠٢١/٨/١٤.

٣. لجميع الفرقاء في لبنان ارتباطات خارجية، ما يشير إلى الخلط بين أربعة أشكال في العلاقات الخارجية:

- الاحتلال
- التدخّل الخارجي لصالح فئة سياسية بالمال والسلاح
- الدعم من خلال سلطة الدولة
- قرارات الشرعية الدولية حيثما لبنان عضو وغالبًا عضو مؤسس.

٤. في دراسات حديثة حول السياسة والحدود وردَت تسمية ثلاث دول بأنها «دول من ورق» (Etats de papiers) هي: سوريا والصومال ولبنان![٣]

٢. الدولة في إدراك اللبنانيين

٥. ماذا تعني الدولة في ادراك اللبنانيين من منظور علم النفس؟ للإجابة يجدر الغوص على الجذور الذهنية في الفكر والسلوك في لبنان بالتشخيص والتحليل والمعالج (بالمعنى الطبي) وعلى الأقل بالحد من استغلال البنيات الذهنية في التنافس والتعبئة النزاعية.

تدور ابحاث ومناقشات ومطالبات لبنانيين يُجمعون، برغم اختلافاتهم، على الحاجة الى دولة قوية وبناء الدولة القوية. وتُجمِع سجالات بخاصة منذ ١٩٧٥ على الاعتبار لبنان مجتمعَ الـ«لادولة» او «الدولة الضعيفة» بدون تعريف مفهوم الدولة ومفاهيم القوة والضعف لدى الدولة من منظور لبناني.

٦. في اللاوعي اللبناني تسود صورة دولة يطغى عليها منطقُ قوةٍ هو في اساس البناء الصهيوني تحت ستار «رفع الظلم عن يهودية مُضطهدة»، ومنطقُ قوةٍ في مجتمعات عربية لا تتدرج في أعلى سلّم الديمقراطية حسب المعايير الدولية، او هي في حالة تحوّل ديمقراطي transition démocratique.

الدولة في طبيعتها قوةُ قمعٍ صفتُها الاساسية احتكار القوة المنظِّمة. ما يجعل الدولة ديمقراطيةً: خضوعُ قوتها الى القانون فتكون القوة في خدمة العدل والمصلحة العامة. أما الدولة القوية بذاتها *in se* والتي ينتظرها الناس كشقَّة مفروشة مع مفاتيحها، فهي دولة قمعية سلطوية او دولة استعمارية من صُنع الآخرين.

(٣ Bruno Tertrais et Delphine Papin, *L'Atlas des frontières* (Murs, conflits, migrations), Les Arènes, 2016, et *Sciences humaines*, no spécial, mai 2020, pp. 18–23, p. 21.

في الذهن اللبناني عمومًا: النمط السلطوي للدولة هو الراسخ في علم النفس التاريخي psychologie historique إذ كانت الدولة تاريخيًا جسمًا غريبًا مُحتلاًّ او مُستعمرًا او مُنتدِبًا. الدولة في الإدراك النفسي التاريخي لدى لبنانيين ما زالت بابًا عاليًا خارجيًّا Sublime Porte. واستمرت الصورة الذهنية هذه بعد استقلال ١٩٤٣ خصوصًا بسبب الاستمرار في التأْريخ وفي تعليم التاريخ بأنماط استعمارية رغم زوال الفترات الاستعمارية والانتدابية والاحتلالية.

٧. الدولة في علم النفس التاريخي اللبناني جسم خارجي. تُعبّر عن ذلك حالات عدة يومية في اقوال الناس. يُخبر الدكتور نواف كباره انه كان عائدًا من طرابلس فطالعه سائق يقود سيارته في اتجاه معاكس. قال له محذرًا: «انت مخالف»! اجابه السائق: «**ليش فيه دولة؟**» هذا الجواب يعبّر عن سيكولوجيا الدولة في لبنان. ما علاقة الدولة بهذا اللبناني (ولا اقول المواطن) يُخاطر بحياته في اتجاه معاكس على الأوتوستراد، ويعتبر ان كل الامور جائزة طالما ان الدولة بالنسبة اليه هي مجرد قمع؟

وتستمع الى وزير أو نائب على شاشات التلفزة يتوجه الى «الدولة» ويتهم «الدولة» وأنه غريب عن المؤسسات العامة. وتستمع الى موظف متقاعد في ادارة عامة عمل مديرًا عامًا طيلة أكثر من ثلاثين سنة ينتقد «الدولة» كأنه غريب عن المؤسسات الرسمية وبالذات عن المؤسسة الرسمية التي كان مديرًا عامًا فيها ويتقاضى منها مالاً عامًا.

وتستمع الى لبناني في قريةٍ ينتقد الفساد في «الدولة» لأن موظف بلديته يُمارس الغش في عيار المياه، ما يعني ان الدولة في تصوُّره ليست مجموعة مؤسسات بل سلطة أحادية قمعية عليا تُمارس الحكم على كل المستويات، فلا مجلس نواب لمراقبة الحكومة، ولا قضاء، ولا مجلس شورى، ولا تفتيش اداريًا، ولا محافظين ولا بلديات...

٨. تكتنف الضبابية لبنانيًا مفهوم الدولة، عبر استعمال الناس كلمة «دولة» في مختلف الشؤون. في حال خالف عامل في البلدية أنظمة البلدية يُقال: «**ما فيه دولة**»! وفي حال تعثرت معاملة في وزارة الاشغال ولم تأخذ طريقها الصحيح يُقال: «**وين الدولة؟**» واذا كان مستوى التعليم في مدرسة رسمية سيئًا يقال: «**ما فيه دولة**»!

يدرس اللبنانيون في كليات الحقوق (او بالأحرى كليات القانون) مبدأ فصل السلطات. إنما لم يتأصل في الادراك اللبناني بعدُ ان الدولة الديمقراطية **متمايزة الوظائف**، فيستعمل اللبنانيون، بخاصة في برامج مُتلفزة، حول كل شاردة وواردة، كلمة «دولة» ويتذمرون من غيابها. يقتضي

المنطق حصر استعمال عبارة دولة في الشؤون المُسماة ملكية droits régaliens المذكورة سابقًا أي في أربع حالات فقط.

٩. في جميع الحالات الأُخرى يجب ذكر المسؤول وتحديده: مجلس النواب، الحكومة، وزارة الاشغال العامة او غيرها، الامن الداخلي، البلدية... لكن اللبناني غالبًا لا يريد الدخول في نزاع مع اعضاء مجلس بلديته، ولا مع النائب الفلاني، ولا مع الوزير الفلاني الذي يعرفه... فيلقي التهم بالجملة ضد «الدولة» كجسم خارجي حادي السلطة! ويتم تنظيم برامج حول الشفافية والمساءلة والمحاسبة بدون التطرق الى الجذور النفسية لبنانيًا لمفهوم «الدولة» المتمايزة الوظائف وبالتالي المتمايزة في المسؤوليات.

١٠. كيف التوفيق بين الادراك النفسي اللبناني للدولة السلطوية الأحادية القوية بذاتها *in se* ينتظرها اللبنانيون دفاعًا عن سيادتهم ونوعية حياتهم اليومية ومستقبلهم، وبين تمسّك اللبنانيين الغريزي بالحريات؟ بدلاً من التطرق الى اشكالية الدولة الديمقراطية، وهي قوية لا بذاتها in se بل بشرعيتها légitimité، اي بدعم المواطنين إياها ومُساندتهم، يلجأ باحثون ومُفكرون واعلاميون الى مختلف اشكال الهروب من خلال أبحاث تجريدية او قانونية شكلية.

١١. الدولة الديمقراطية تتطلب مُثاقفة acculturation في علم النفس التاريخي والذاكرة الوطنية المشتركة، إضافة الى الثقة بالقدرة المواطنية citizen power في المُشاركة والمُحاسبة ودعمًا من لبنانيين مُواطنين. الدولة الديمقراطية عربة ذات دولابين: الاول دولاب السلطة المركزية، والآخر دولاب المجتمع. ولا تسير العربة الديمقراطية الا بهذين الدولابين.

١٢. أضيفت إلى بحوث ومناقشات حول الدولة في لبنان صفتا الدولة القادرة والعادلة. ولكن... كيف تكون الدولة قادرة وعادلة في آن؟ تُدخِل هاتان الصفتان شيئًا من اوتوبيا المدينة الفاضلة والمستبد العادل despote éclairé. والتجربة اللبنانية بالذات، خصوصًا في عهود يعتبرها معظم اللبنانيين مراحل تأسيسية كعهد الرئيس فؤاد شهاب، تُظهر ان الدولة التي تسعى الى القوة العادلة تواجه، برغم إرادتها، عوائق عدة من «اكلة جبنة» وذهنيات سائدة. هكذا قال فؤاد شهاب في بيانه الشهير في ١٩٧٠/٨/١٤. ووسط الحروب المتعددة الجنسيات في لبنان توجَّهَ الرئيس الياس سركيس الى اللبنانيين بقول: «انا منكم انا لكم انا معكم.» ولم يتلقَّ جوابًا!

١٣. في علم النفس العيادي psychanalyse يُعاني اللبناني من انفصام في الشخصية اذ، من جهة، يطالب بدولة قوية هي بطبيعتها سلطوية،

ويتمسك غريزيًّا من جهة أخرى بالحريات حتى درجة الفوضى. وعبّر بيار صادق عن هذا الانفصام في كاريكاتور ورد فيه: «**مش معقول هـ البلد... لا بيطيق احتلال... ولا بيحافظ على استقلال!**» (**النهار**، ٢٠٠٦/٨/١٢).

١٤. في حال رفضت وزارة الاشغال مُعاملة احد المواطنين، يمكنه ان يُقدّم دعوى امام مجلس الشورى الذي هو ايضًا جزء من الدولة. وبإمكانه رفعُ شكوى على المدرسة الرسمية امام التفتيش التربوي الذي هو ايضًا جزء من الدولة. الدولة الديمقراطية مُتمايزة الوظائف. ندخل هنا في علم نفس الدولة psychologie de l'Etat. في ذهن اللبناني صورة الدولة، كما هي في المنطقة وفي ذاكرته الاستعمارية والانتدابية والاحتلالية، سلطوية تفرض ما تريده بالقوة. بينما الدولة الديمقراطية قوية بشرعيتها، اي بقبول الناس بها، وهذا عنصر «ضعف» بالنسبة للسلطويين! كلما زاد دعم الناس للدولة كلما ازدادت قوتها.

كيف تكون الدولة قوية بشرعيتها؟ انا ايضًا جزء من الدولة، والمدير العام والموظف في أية ادارة رسمية والعامل في بلدية هم الدولة، ليس على طريقة لويس الرابع عشر، بل لاني مواطن واقترع واحمل جزءًا من سلطة الدولة والسيادة الشعبية. لم يحصل بعد الاستقلال سنة ١٩٤٣ عمل تربوي ثقافي يُدخِلُ دولة الاستقلال في كتابة التاريخ وفي عقول الناس حتى يدركوا ان الدولة هي دولتهم.

١٥. تَظهر الضبابية في مفهوم الدولة كلما يُطرح موضوع المجتمع المدني. يسارع أحد الجامعيين بالقول، مدعيًا الفهم والبصيرة: «المجتمع المدني ليس بديلاً عن الدولة!» ليس من بديل عن احد في المجال الديمقراطي حيث تتعدّد الوظائف وتتمايز وتنتظم! لا العين بديل عن المعدة ولا الاذن بديل عن اليد! يبيّن ذلك الادراك اللبناني لأحادية الدولة وللمجتمع المدني ايضًا!

في أواخر ١٩٨٩ أصدر الشاعر محمد العبدالله كتابًا فيه جواب في هذا المجال بعنوان: «**حبيبتي الدولة**». نحن من يجعل الدولة الديمقراطية قوية بدعمنا إياها. يحتاج ذلك عملاً كبيرًا على مستوى الدولة وعلى مستوى المجتمع والتنشئة السياسية. تعاني الدولة في لبنان من مشكلة نابعة من ذاتها وجوارها وايضًا من مشكلة نفسية مع الناس.

١٦. الجدل اللبناني حول السيادة خلال اتفاق القاهرة سنة ١٩٦٩ هو الاكثر تعبيرًا عن ادراك مختلف الفئات للدولة. جرى الجدل في السيادة كأنها مجرد ديكور اضافي للدولة وليس عنصرًا ملازمًا الدولة التي وحدها

تمتلك القوة المنظِّمة. والخطاب السياسي حول الجيش غالبًا مؤشرٌ لمفهوم الدولة في البنيات الذهنية. انحصرت على نواحٍ دستورية شكلية بينما البحث متعدد الاختصاصات والابعاد.

١٧. انطلاقًا من تحليل واقعي للتجربة اللبنانية لا يجوز تضخيم مسؤولية الدولة اللبنانية في وضع اقليمي ودُوَلي مُتفجر. قيامُ دورة اسرائيل سنة ١٩٤٨ زلزل المنطقة ولا يزال. ليس كثيرًا ان يحدث ما حدث في لبنان بعد قيام اسرائيل. نقولها لنرحم انفسنا قليلاً. صمد لبنان حتى ١٩٧٥ وبعدها! حقيقة علينا الا نتجاهلها. وهنا اربعة تواريخ تتيح وضع موضوع الدولة في بلد صغير كلبنان في اطار نسبيّ، بدون تضخيم وبدون تبسيط:

١. صباح ٩ نيسان ١٩٧٣ اقتحمت فرقة كوموندس شارع فردان واغتالت ثلاثة زعماء فلسطينيين في فراشهم. استرسلت قوى سياسية ووسائل اعلام عندئذ في الكلام عن العجز البنيوي للدولة اللبنانية.

٢. في ١٦ نيسان ١٩٨٨ نُفذت عملية اسرائيلية في قلب العاصمة التونسية قُتل فيها خليل الوزير (ابو جهاد). اجتاحت موجة استنكار كلَّ تونس، ولم يخطر في بال احد، لا في تونس ولا خارجها، القول ان تونس بلد الدولة المستحيلة او الدولة الضعيفة.

٣. في ٢٩ ايلول ١٩٨٥ في حمام الشط، جنوبي العاصمة التونسية، ضربت طائرات اسرائيلية المقر العام للقيادة الفلسطينية وكان حصيلة العملية ١٦ ضحية فلسطينية وتونسية. لم تَطَل موجةُ الاستنكار مفهوم الدولة التونسية.

٤. في ١٤ شباط ١٩٨٨ توغلت فرقة موساد داخل مرفأ ليماسول واغتالت ثلاثة قياديين من فتح. لم يُشكك احد بعد هذه العملية في متانة الدولة القبرصية كدولة.

هذه الحالات تُبيّن عجز اجهزة الامن اللبنانية والتونسية والقبرصية، وضرورة استنساب الامور في ابعادها الاقليمية والدولية وعدم تقليص ازمة الشرق الاوسط الى مسألة تعديل دستور او فعالية حكومة. لا يعني تراكم الاحداث في لبنان وقدرة الدولة توفر علاقة سببية مطلقة بين علة ومعلول.

١٨. انتشرت مفاهيم وصور ذهنية عن الدولة اللبنانية تجنبًا للتطرق المباشر الى الجانب الثقافي والنفسي: دولة التسوية Etat du compromis، ودولة الخطيئة الاصلية القائمة على التوازن péché originel، ودولة الانصهار intégration forcée والتي يُنتظر منها تذويب المجموعات في قالب واحد، ودولة كبش المحرقة bouc-émissaire التي يحافظ عليها سياسيون وميليشيات لسرقتها، والدولة الرصيف المشرّعة الأبواب Etat

trottoir، ودولة الحد الادنى Etat minimal في بعض الطروحات المسماة اصلاحية، ودولة تعميم نظام اهل الذمة dhimmitude، والدولة الاحتياط Etat de réserve في تركيب آلية حزبية للحلول مكان الدولة الرسمية عندما تسمح بذلك الظروف او الحروب المستوردة.

١٩. استرسل باحثون في مفهوم الدولة في لبنان بدون الانطلاق من الاختبار. من يُروّج ويُنظّر مفهوم اللادولة في لبنان، هل نموذجه المعياري الدولة الصهيونية ام الدولة القمعية؟ وبعض الايديولوجيين، عازلين وانعزاليين، ارادوا تغيير بنْية الدولة اللبنانية جذريًا كمن يرمي الطفل مع ماء الحمام.

ما السبل لمصالحة المواطن مع الدولة، والدولة مع المواطن، ورسم الحدود بين الدولة والطوائف ودولنة المواطنية؟

ينتظر المواطن ان تَعْبُرَ الدولة اليه. اللبناني ينقصه غالبًا مفهوم الشعب ومفهوم الارض إذ يتقوقع في ارض الطائفة او يشطح في ارض الامة، وينقصه مفهوم سلطة الدولة إذ اعتاد العيش في مجتمع يتدّبر امره، وحيث السلطة كانت احيانًا اجنبية. في اساس الدولة: الشعور واليقين بوجود سلطة مسؤولة في المجتمع. الدولة سيكولوجية جماعية psychologie collective وليست مجرد قضية دستورية وحسْب، وهي تتطلب شمولية في النظرة. يوجب ذلك استكشاف سيكولوجية لبنانية جماعية تمتد جذورها الى اعماق التاريخ. لجأت الجماعات الى الميليشيات لحمايتها لكن قوى الأمر الواقع المسلّحة لم تحمِها. وحدا الدولة تحمي. كل طائفة وحدها ليست ذات أهمية. المظهر السلطوي لطبيعة الدولة في المنطقة لا يُشكل نموذجًا يُقتدى به. البديل الايجابي للميليشيات هو الدولة صاحبة السيادة. وهي لا تكون قوية اذا لم تستمد قوتها من المواطنين، ولا تكون شرعية légitime اذا لم تتمكن من الوصول الى عقول الناس وقلوبهم.

٢٠. في لبنان استراتيجيتان متنازعتان: استراتيجية قوى فئوية ومنتحلي صفة تمثيلها، مع ما تحتويه من هواجس الامن الذاتي والامن بالتراضي وتكوين دويلات احتياطية في حال نشوب نزاع، واستراتيجية الدولة.

وليس في لبنان اقليات مقهورة من السلطة المركزية بل أقليات قاهرة، وحتى عاهرة في تعاملها مع الدولة ومع بعضها البعض. الدولة ضمان وجود الطوائف. ومن السلوك السياسي يظهر ان الدولة بالنسبة الى ممثلي قوى تقليدية هي دولة اقحوانية Etat chrysanthème تنتشل كل فئة ورقةً منها دون الاهتمام بالزهرة ككل، وتعمل قوى قبَلية على الاستمرار في برمجة الفرد في ولاءات زبائنية.

٢١. تحصل انتفاضات او ثورات او «مؤامرات» في بعض الدول العربية، كما في دول قوية وقوية جدًا بذاتها ولذاتها. يستتبع ذلك انهيار بنيان ضخم قائم على الخوف والتخويف. انه الإثبات ان **الدولة الديمقراطية قوية بشرعيتها اي قبول الناس بها**. ولا نستثني الكيان الصهيوني الذي يعتمد على القوة والقوة فقط وهو تاليًا مُهدد بالانهيار اذا استمر في تجاهل مدى شرعيته داخل اسرائيل حيال الشعب الفلسطيني. دولة الاتحاد السوفياتي السابق كانت قوية جدًا ونووية طيلة سبعين سنة وانهارت بسبب قوتها بذاتها ولذاتها إنما بدون شرعية شعبية.

٢٢. الدولة اللبنانية ضعيفة ومُحاصرة في شرعيتها بسبب بُنيات ذهنية لبنانية مَرَضية، وغالبًا بسبب تقاعس قوى قبَلية فئوية mentalité tribale préétatique عن الانخراط في الدولة الديمقراطية القوية بشرعيتها الاجتماعية. يقول احد المناضلين التونسيين: «في الماضي كنت اتصرف مع البوليس بصفته جهازًا حاميًا سلطةَ الطبقة الحاكمة والنظام، اما اليوم فالبوليس هو بوليسنا نحن، وهو يحتاج الى دعمنا لاعادة بنائه».

٢٣. ربما كثير من الدول «القوية» بذاتها في المنطقة مُهددة بالانهيار. لكن الدولة اللبنانية الضعيفة والمستضعفة هي ربما الاقوى في صمودها واستمراريتها. وستكون اكثر قوة عندما تدعمها القوى السياسية الكبرى والمواطنون في حال **مثاقفة الدولة اللبنانية في التأريخ اللبناني وفي الادراك الجماعي والذاكرة الوطنية المشتركة**.

٣. فلسفة الدولة لبنانيًا: ادارة ديمقراطية للتعددية او «هيمنة فئوية» وبابٌ عالٍ

٢٤. ما فلسفة الدولة في لبنان؟ كيف تكون الدولة اللبنانية جسر تفاوض وسلطة **حسم وتقرير**؟ يُطرح السؤال والإدارة الديمقراطية للتعددية في لبنان مُستهدفة في توازناتها البنيوية سعيًا لإرساء هيمنة فئوية في ارتباط ببابٍ عالٍ. انه مسار مناقضٌ «لبنان العربي الهوية والانتماء» استنادًا الى مقدمة الدستور اللبناني وابعد من إرادة احتكار شيعي لحقيبة وزارية.

الدستور اللبناني، في نصه وروحيته، في ما يختص بسياق التقرير حسب المادة ٦٥ من الدستور، يهدف إلى تجنب طغيان أكثرية abus de majorité وطغيان اقلية abus de minorité. هذه المادة هي روعة في المخيّلة الدستورية من منظور عالمي ومقارن. وهي ثمرة عباقرة في الفكر الدستوري تنحرف عن مضمونها بإيديولوجية وممارسات «الثلث»،

و«التعطيل» «والحجم» و«الحقيبة الوزارية الطائفية»... وخلف شعارات في «الطائفية» و«الميثاقية».

٢٥. كل نظام برلماني تعددي شبيه بلبنان يعاني من معضلة السلطة autorité في حال ضعف الشرعية légitimité في الثقافة السياسية وحول ثوابت النظام الدستوري وفي حال الخروج عن المرجعية المطلقة لـ«الكتاب» (الدستور وفْقَ تعبير الرئيس فؤاد شهاب).

٢٦. أحد الاحتمالات في إدارة التعددية الدينية والثقافية هو ما يُسميه الكاتب الإسرائيلي Sammy Smooha «الطغيان الفئوي» minority control. يتميز هذا المسار عن الإدارة الديمقراطية المتوازنة والدستورية للتعددية بإرساء هيمنة فئوية[٤]. يفصّل المؤلف ذلك في كتاباته أنها حالة النظام الإسرائيلي او الصهيوني في الهيمنة على المكوِّن العربي في إسرائيل. وهي حالة النظام السوري في هيمنة علوية على تعددية مكونات المجتمع. وهي حالة لبنان خلال احتلال الجيش السوري، ووضع لبنان في الاحتلال بالوكالة في ارتباط استراتيجي مع بابٍ عالٍ. وطوّر الكاتب نظرية الهيمنة الفئوية minority control، نترجم minority «بفئوية» لا بأقلية، لانها في مضمونها لا ترتبط بأكثرية او أقلية عددية. يسعى الكاتب الى مواجهة ابحاث مقارنة منذ ثمانينات القرن الماضي حول بناء الأمم بالمواثيق او الأمم التعاقدية في بنائها التأسيسي consociatio[٥]. يرتكز الكاتب حصرًا على حالات إسرائيل وايرلندا الشمالية (قبل ما يُسمى Friday agreement) وقبرص ونيجيريا والعرب في إسرائيل...، مُتجاهلاً بل مناقضًا حالة لبنان وبلدان أخرى تعددية. لا تتحقق هيمنة فئة في لبنان في إطار ميزان مُتعدد من ثماني عشر طائفة، كلها عمليًا أقليات، ولكن مع أوهام مرضية أكثرية، الا على حساب السيادة الوطنية.

٢٧. الفئة اللبنانية التي تريد الهيمنة – او تتوهّم انها مهيمنة بذاتها – هي مُهيمَنٌ عليها خارجيًا! بين ١٩٧٥ و١٩٩٠، القوى الفلسطينية المسلحة

٤) Sammy Smooha, « *Control of minorities in Israel and North Ireland* », *Comparative studies in society and history*, Cambridge University Press, vol. 22, no 2, April 1980, pp. 256–280.

٥) Hans Daalder, « On Building Consociational Nations : The Cases of the Netherlands and Switzerland », *International Social Science Journal*, vol. 23, no 3, 1971, pp. 355–370.

__, « La formation des nations par consociatio : Le cas des Pays-Bas et de la Suisse », in *L'édification nationale dans diverses régions*, no spécial de la *Revue internationale des sciences sociales*, Unesco, XXIII (3), 1971, Daalder, pp. 384-399. Traduction en arabe par Evelyne Abou Mitry Messarra, *al-Binâ'al-qawmî bi-l-mawâthîq*... (L'édification nationale par les pactes...), Beyrouth, Fondation libanaise pour la paix civile permanente, série « Documents », no 62, 2016, 172 p.

في لبنان واعوانها من اللبنانيين وجدت نفسها خاضعة لسلطة النظام السوري. والشائي الطائفي واعوانه الداخليون الذين يطغون على الحكم او يتوهمون ذلك، يُهددون سيادة الدولة وهم في مواجهة عداء عربي ودولي في ارتباط مع مكافحة الإرهاب بخاصة بعد قرار المحكمة الدولية حول لبنان. يُطبّق حرفيًا الذين يدركون أنفسهم في لبنان طاغين في الحكم النمط الصهيوني. لم يتعلموا من الاحلام المحطّمة في تاريخ لبنان والاوهام في التذويب او الطغيان homogénéité et supériorité[٦]. واليوم يُخشى تحطيم «دولة لبنان الكبير»، كما جاء في اعلان ١٩٢٠.

٢٨. **الدولة تفاوض ولكن تحسم ولا تساوم.** يقتضي الإقرار بأن Sammy Smooha يسعى لمعالجة إشكالية جوهرية في الأنظمة البرلمانية التعددية دينيًا ولغويًا واتنيًا او الأنظمة حيث مواقع التقرير تعددية polyarchique حسب تصنيف François Bourricaud[٧]. الدولة جسر تفاوض ومركز حسم وتقرير. من وظائفها المسماة ملكية fonctions régaliennes الحسْم لا المساومة. فهل يمكن الانتقال من سياسة التوازن والتسوية التفاوضية (ولا نقول المساومة compromission) الى الدولة التي تحسم؟

٢٩. تطرّقتُ الى المعضلة من منظور آخر غير نظرية «الطغيان الفئوي» في اطروحتي سنة ١٩٨٢ حول أزمة السلطة crise de l'autorité في النظام الدستوري اللبناني استنادًا الى تجربة الرئيس فؤاد شهاب[٨]. نشرتُ ست مقالات في جريدة الاوريان-لوجور (١٨ تموز–٢ آب ١٩٧١)[٩]، ثم أعدتُ صياغتها في الاطروحة حول: «ازمة السلطة المزمنة وتجربة الرئيس فؤاد شهاب». اثارت هذه المقالات اهتمام جورج نقاش صاحب المحاضرة الشهيرة: «النهج الشهابي الجديد» (محاضرات الندوة اللبنانية

٦) أنطوان مسرّه وغيره، **مجتمع المشاركة: مقاربة مقارنة**، منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٨٦، ١٧٢ ص.

٧) François Bourricaud, *Esquisse d'une théorie de l'autorité*, Paris, Plon, 1961, 422 p., pp. 319–351.

Jean-Claude Douence, «Régime libanais et polyarchie», conférence à l'Association libanaise des sciences politiques, 16 juin 1971, 27 p. inédit.

٨) A. Messarra, *Le modèle politique libanais et sa survie* (Essai sur la classification et l'aménagement d'un système consociatif), Beyrouth, Publications de l'Université Libanaise, «Section des études juridiques, politiques et administratives», VII, 1983, 534 p.

٩) A. Messarra, «Au commencement était le chéhabisme: De la politique des équilibres à la politique de la décision», *L'Orient-Le Jour*, 6 articles, 18, 20, 22, 24, 30/7 et 2/8/1971, reproduits dans: *Le modèle politique libanais et sa survie, op.cit.*, pp. 133–200.

١٩٦١)[١٠]. دعاني الى مكتبه الجديد بعد دمج صحيفتي لوجور والاوريان للتعبير عن اهتمامه بالمقاربة.

٣٠. في كتابي سنة ١٩٩٤ طرحتُ إشكاليات دولة الحد الأدنى والدولة الذميّة والدولة الاقحوانية Etat minimal, Etat de la dhimmitude, Etat chrysanthème. يسعى كل فريق في الدولة الاقحوانية الى نزع ورقة من الوردة بدون الحرص على تناسقها، أي ما يُسمى المحاصصة، وهو توزيع زبائني للمراكز الوزارية والإدارية لتبادل منافع[١١]. ويتمظهر غياب فلسفة الدولة في لبنان في اقتراحات اصلاح سياسي. تنطلق بعض الاقتراحات من رفض شامل لأي مركزية، وبالتالي من مفهوم الدولة، في حين تنحرف اقتراحات أخرى الى الجانب الأقصى وهو الدولة المصفاة alembic التي تذوّب كل ما هو تعددي وتعمل على التذويب!

٣١. أيُّ مؤسسة عليا في لبنان تحسم ولا تساوم، لا من منطلق التسلط والنفوذ وتوازن القوى بل استنادًا الى المعايير الدستورية؟ إضافة الى المادة ٦٥ من الدستور المعدّل سنة ١٩٩٠ في اعتماد الأكثرية الموصوفة majorité qualifiée في الثلثين في ما يتعلق بـ١٤ قضية أساسية، فان المادة ٤٩ هي القاعدة الأساس لانتظام النظام الدستوري اللبناني. رئيس الجمهورية هو «رئيس الدولة» الذي «يسهر على احترام الدستور»! ممارسة الرئيس فؤاد شهاب هي النهج الاختباري المجسّد والمكرّس والفاعل والمؤسسي، بعيدًا عن مخيّلة مارونية سائدة، ولبنانية عامة، حول «الصلاحيات» في سياق علاقات نفوذ وأحجام وتوازن قوى!

٣٢. لا يمكن فهم عبقرية الآباء مؤسسي الدستور اللبناني، ولغاية اليوم، دون الرجوع الى جذور المادة ٤٩ الجديدة في الدستور اللبناني. عشت شخصيًا هذه الجذور في إطار وساطة دبلوماسية المانية-أوروبية-فاتيكانية بعد الاتفاق الثلاثي في دمشق (٩/٢٤ الى ١٩٨٦/١٠/٣). قبل اعتماد وثيقة الوفاق الوطني-الطائف كان مسعى لتحقيق مساواة مُستحيلة بين المواقع الثلاثة العليا في الدولة. انه مسعى في تربيع الدائرة quadrature du cercle لان هذه المواقع مُتمايزة في دورها ورمزيتها. المطروح، كما

(١٠) Georges Naccache, « Un nouveau style: Le chéhabisme », *Conférences du Cénacle*, 15e année, no 4, 1961.

(١١) A. Messarra « L'Etat minimal, l'Etat de dhimmitude généralisée et l'Etat chrysanthème », dans notre ouvrage: *Théorie générale du système politique libanais*, Paris, Cariscript avc le concours du Centre national des Lettres, 1994, 408 p., pp. 342–348.

رصدته في اقتراحات ومشاريع وحوارات، ١٤ اقتراحًا وأكثرها يخرق المبدأ العالمي في الفصل بين السلطات ويجعل من رئيس الجمهورية رجل بعبدا او رئيسًا فخريًّا[١٢]. ان «السهر على احترام الدستور»، حسب المادة ٤٩ من الدستور، هو عودة الى «الكتاب» (وفْق تعبير الرئيس فؤاد شهاب) حرصًا على سيادة الدولة وحائلاً تجاه طغيان فئوي minority control أو طغيان أكثري dominant majority هما بالضرورة تبعية لبابٍ عالٍ خارجي!

٣٣. جدلية السلطة autorité والدولة Etat في لبنان جوهرية في البحث العملاني منذ سبعينات القرن الماضي حول الأنظمة البرلمانية التعددية خارج سياق نظرية «الهيمنة الفئوية». صاحب النظرية Sammy Smooha لا يستند الى خبرات سويسرا وبلجيكا والبلاد المنخفضة والهند وجزيرة موريس وجزر فيدجي... حيث ثقافة دستورية راسخة وممارسة ثابتة تضمن مساواة ومشاركة بدون طغيان فئوي. ان حالة لبنان في ميزان متعدد من ١٨ طائفة يجب ان تحول دون مغامرات كارثية في الطغيان شرط التحرّر من اغتراب aliénation ثقافي يعقوبي jacobin وبفضل تأريخ علمي واصيل وواقعي للبنان وبفضل التربية **ودولنة الثقافة الدستورية**.

٣٤. في ميزان مُتعدد كما في لبنان، وشعب حريص غريزيًا على الحرية (احيانًا بدون ضوابط) يستحيل أي طغيان فئوي الا بارتباط مع بابٍ عالٍ خارجي او «استقواء» (وفْق تعبير الرئيس شفيق الوزان). في بلدانٍ أخرى، في اسرائيل وسوريا وغيرهما، الى أي مدى لنظرية «الهيمنة الفئوية» حظوظ الاستدامة بدون شرعية دستورية ديمقراطية؟ بين ١٩٧٥ و١٩٩٠ سعت طائفة سنيّة وقوى «تقدمية» الى تغيير او تعديل توازنات النظام الدستوري اللبناني من خلال الاستقواء بالنظام السوري والقوى الفلسطينية المسلحة ثم أصبحت خاضعة لسلطة القوى الفلسطينية المسلحة والنظام السوري فأعلنت توبتها القومية![١٣] وهي ذي اليوم مخيّلة طائفية تُعيد التجربة ذاتها في الاستقواء بفضل احتلال مباشر أو بالوكالة!

٣٥. يوم تصبح جميعُ الطوائف في لبنان سيادية حقًا، يتوفر الأمان النفسي لدى الجميع وتصبح التطورات مُمكنة بموجب نص الدستور اللبناني

١٢) A. Messarra, *Médiation constitutionnelle allemande-vaticane-européenne après l'Accord tripartite de Damas du 28/12/1985* (24/9 au 3/10/1986), Beyrouth, Fondation libanaise pour la paix civile permanente, série « Documents », no 107, 2019, 204 p.

١٣) محمد السماك، «مشروع الوثيقة الإسلامية»، ٢٠٠٧، ٣٦ ص، غير منشور، ص ١٩—٢٠.

بالذات وروحيته. المخرج الوحيد والاساسي لتطور النظام الدستوري اللبناني خارج شعارات وسجالات «الطائفية» والدولة «العلمانية» والدولة «المدنية» وطروحات لامركزية وفدرالية...، سوف يكون في نظام اشد عضلات musclé في الحسم بفضل «رئيس دولة يسهر على احترام الدستور» (المادة ٤٩)، وبفضل مزيد من المساواة égalitaire بفضل تطبيق معياري وليس زبائني لقاعدة التمييز الإيجابي او الكوتا (المادة ٩٥). الرئيس فؤاد شهاب جسَّد تطبيقيًا هذا المسار. وجسّده الرئيس بشير الجميل في خطاب القَسَم بعد انتخابه رئيسًا وإعلانه مباشرة: «نعمل منذ اليوم على تطبيق القانون!» في اليوم التالي بالذات لم يغِب أي موظف متقاعس عن ادارته! معضلة الرئيس فؤاد شهاب، حسب الدراسات المعمّقة، لم تكن مع النظام الدستوري اللبناني نصًّا وروحًا، بل مع «اكلة الجبنة» وعدم **دولنة** الثقافة السياسية من خلال مختلف وسائل التنشئة.

٣٦. هذا هو معنى اغتيال أبوابٍ عاليةٍ رجالَ دولة في لبنان: كمال جنبلاط، بشير الجميل، رشيد كرامي، رينه معوض، رفيق الحريري... واغتيال جيل جديد: سمير قصير، محمد شطح، جورج حاوي، بيار الجميل، أنطوان غانم، فرنسوا الحاج، وسام عيد، جبران تويني...، في حين يتمسرح آخرون شيطانيًا بحثًا عن «حقيبة وزارية» «وأحجام» «واستعادة حقوق»...!

٣٧. ما يضمن استمرارية ومناعة سويسرا: مبدأ سمو القانون ودولنة الثقافة السياسية[١٤]. ان الدولة المكتملة الصفات الملكية، أي صاحبة السيادة، هي الضمانة الاختبارية والواقعية والمستقبلية للجميع وايضًا بفضل توبة قومية عارمة وتنمية ذاكرة جماعية مشتركة.

٤. «رئيس الجمهورية هو رئيس الدولة» (المادة ٤٩)

٣٨. البحث الدستوري والسجالات منذ وثيقة الوفاق الوطني-الطائف (١٩٨٩/١١/٥) والتعديلات الدستورية (٢١ ايلول ١٩٩٠) حول رئاسة الجمهورية، بقيَت بعيدة عن قراءة النص وعن الاطار العام للتعديلات الدستورية وجذورها وفلسفتها. وحول المادة ٤٩ المعدّلة من الدستور

(١٤) A. Messarra (dir.), *Comprendre la Suisse* (La pratique de l'unité plurielle), Beyrouth, Ambassade de Suisse au Liban et Association libanaise des sciences politiques, 2008, 200 p. + 56 p. en arabe.
__, *La gestion du pluralisme* (Expériences comparées: Suisse et Liban), Beyrouth, Ambassade de Suisse au Liban, Carnegie Middle East Center et Association libanaise des sciences politiques, 2011, 208 p.

التي تتعلق برئيس الجمهورية ينطبق بشدة قول الرئيس حسين الحسيني عن وثيقة الوفاق الوطني: «انه الاتفاق الذي لم يُقرأ جيدًا ولم يُفْهَم»[١٥]. فالسجالات حول «موقع» رئيس الجمهورية، «وحماية» هذا الموقع، والصفة «التمثيلية» لرئيس الدولة بالنسبة الى المسيحيين أو الموارنة، «ومواصفات» الرئيس... تنطلق غالبًا من اطر مفهومية لا علاقة لها بالدستور اللبناني. الإدراك السائد بين قانونيين وفي أوساط سياسيين ان اتفاق الطائف «انتقص» من «صلاحيات» رئيس الجمهورية، في حين ان وثيقة الوفاق الوطني فتحت مجالاً يعلو على ايديولوجيا «الصلاحيات». النص الجديد للمادة ٤٩ من الدستور محوريٌّ في سبيل استعادة مسار دولة الحق في لبنان بعد العمليات الارهابية ومخلّفات أكثر من ربع قرن من القمع والتطورات منذ ٢٠٠٥.

٣٩. ورد في وثيقة الوفاق الوطني ومن ثم في المادة ٤٩ المعدلة من الدستور: «**رئيس الجمهورية هو رئيس الدولة ورمز وحدة الوطن. يسهر على احترام الدستور والمحافظة على استقلال لبنان ووحدته وسلامة اراضيه وفقًا لاحكام الدستور**». هل هذه الاضافة بلاغة كلامية؟ أبدًا. بل هي توفر لرئيس الجمهورية دورًا يعلو على «الصلاحيات» وتنازعها وتقاسمها، هو دور القيادة المعنوية للوطن magistrature morale وحراسة مبدأ القاعدة الحقوقية gardien du principe de légalité. ليس رئيس الجمهورية مُجرد حَكَم بل مراقب لسموّ الدستور في كل قضية ومشروع قانون او مرسوم او هو ombudsman مراقب دستوري وحقوقي قبل المجلس الدستوري المؤسسي. انه حَكَم بالمعنى الحقوقي للحَكم وللتحكيم arbitrer/arbitrage وليس بمعنى المفاوض والوسيط médiateur. الحَكَم كما في مباراة رياضية يتعب اكثر من كل اللاعبين وهو المؤتمن على تطبيق معايير وقواعد اللعبة. فهل كل هذا انتقاص من «صلاحيات» رئيس الجمهورية؟ القيادة المعنوية للدولة والسهر على سمو الدستور ورشة كبرى تتخطى «الصلاحيات» وتتخطى الطائفة المارونية. إنها عنصر جمع وتوحيد لانها دفاع عن سمو الدستور والقاعدة الحقوقية كوسيلة في تحقيق المساواة بين الجميع وحمايتهم بمعزل عن كل الانتماءات.

٤٠. هذا التوجُّهُ الجديد، مع تجنب تحوّل رئيس الجمهورية الى رئيس فخري او «رجل بعبدا»، يُؤكده دور رئيس الجمهورية في «السهر» على

١٥) خلال الندوة ١٤ لبرنامج «مرصد الديمقراطية في لبنان»، مؤسسة جوزف ولور مغيزل بالتعاون مع الاتحاد الأوروبي وتنسيق أنطوان مسرّه، حول موضوع: «ثبات المواثيق وتغيير الدساتير في لبنان»، ٢٠٠٢/١١/٢٩.

الدستور من خلال النصوص الدستورية الجديدة ومن خلال المداولات والاعمال الاعدادية التي سبقت وثيقة الطائف. تجاه مأزق عدم المس بمكانة رئاسة الجمهورية، ومأزق رفض المداورة في الرئاسات، ومأزق رفض المجلس الرئاسي[١٦]، تُشكل المادة ٤٩ مخرجًا يحافظ على مارونية رئاسة جمهوريةٍ دورُها السهر على احترام الدستور يعلو على علاقات النفوذ وايديولوجية الصلاحيات.

٤١. تأكد الدور الجديد او المتجدّد لرئيس الدولة أبعد من ايديولوجية الصلاحيات، في النصوص الدستورية المكملة التالية:

- **مراجعة المجلس الدستوري**: لرئيس الجمهورية حق مراجعة المجلس الدستوري في ما يتعلق بمراقبة دستورية القوانين (المادة ١٩ الجديدة).
- **القسَم الدستوري**: محصور برئيس الجمهورية (مادة ٥٠) ووردت مقترحات اصلاحية خلال مداولات الطائف وقبلها لشمولية القسم الدستوري رئيس مجلس الوزراء.
- **توجيه رسائل**: لرئيس الجمهورية عند الضرورة حق توجيه رسائل الى مجلس النواب (مادة ٥٣—١٠ الجديدة).
- **مبادرة في مجلس الوزراء**: لرئيس الجمهورية حق عرض اي أمر من الامور الطارئة على مجلس الوزراء من خارج جدول الاعمال (المادة ٥٣—١١ الجديدة).
- **اعادة النظر في القوانين والمراسيم**: لرئيس الجمهورية حق الطلب الى مجلس الوزراء اعادة النظر في اي قرار يتخذه المجلس خلال خمسة عشر يومًا من تاريخ ايداعه رئاسة الجمهورية (المادة ٥٦). و«لرئيس الجمهورية، بعد اطلاع مجلس الوزراء، حق طلب اعادة النظر في القانون مرة واحدة ضمن المهلة المحددة لاصداره ولا يجوز ان يرفض طلبه. وعندما يستعمل الرئيس حقه هذا يصبح في حل من اصدار القانون الى ان يوافق عليه المجلس بعد مناقشة اخرى في شأنه، واقراره بالغالبية المطلقة من مجموع الاعضاء الذين يؤلفون المجلس قانونًا» (المادة ٥٧ الجديدة).

٤٢. من هذه النصوص الجديدة والمكمّل بعضها البعض وتُشكل وسائل عملية لممارسة وظيفة «السهر» الدستورية، يتضح ان رئاسة الجمهورية

١٦) اميل خوري، «كرامي يطرح اعتماد مبدأ المداورة في الرئاسات بعدما علم ان صلاحيات الرئاسة الأولى لن تمس»، **النهار**، ١٩٨٦/١٢/٢٠.

ليست **موقعًا** بين السياسيين وليست جزءًا من منظومة **نفوذ** ولا يمكن مقاربتها من منطلق حصري في **صلاحيات تنفيذية**، بل هي قيادة ودور يعلو على المواقع والصلاحيات في سبيل توطيد سمو الدستور وسلطة المعايير وممارسة دور دستوري وحقوقي ناظم لسلطة المعايير في لبنان. وبعض «مقرَّرات» رئيس الجمهورية المرتبطة بدور «السهر على احترام الدستور» الواردة آنفًا لا تخضع لشرط توقيع رئيس الحكومة والوزير او الوزراء المختصّين... (المادة ٥٤ الجديدة) لانها لا تتمتع بصفة المراسيم التقريرية[١٧]. اذا اعتبر البعض ان التوقيع ضروريًّا ففي هذه الحالات لاخذ العلم وليس للموافقة.

٤٣. التعديل في المادة ٤٩ الجديدة ثمرة مداولات واعمال اعدادية سبقت وثيقة الطائف، تبيّن الاحتمالات والخيارات حفاظًا على دور رئاسة الجمهورية ومارونية الرئيس. تفترض تاليًا المادة ٤٩ المعدلة بحثًا أكثر تعمقًا وعملانية وتصويبًا في الثقافة الدستورية والممارسة. وما اضيف في مقدمة المادة ٤٩ هو ثمرة مخيّلة دستورية أصيلة وحكيمة حفاظًا على رئاسة الدولة ودورها.

٤٤. كيف خرج البحث الدستوري في لبنان من معضلة تربيع الدائرة تلبية لمطالبة بتوازن افضل لصالح الموقع السياسي السني والموقع الشيعي في النظام اللبناني؟ اكثر المراحل التاريخية تعبيرًا عن هذه المعضلة وتلخيصًا لها وسبل معالجتها هي الجولة الحادية عشرة للمفاوضات اللبنانية–السورية (١٨ كانون الثاني الى ٢٦ اذار و١٠ ايار ١٩٨٧)، تابعتْها ابريل غلاسبي April Glaspie حين طرحت اشكال مُتعددة بغية تحقيق توازن على مستوى المواقع العليا لمصلحة السنة والشيعة واستطرادًا الدروز. عُرِضَت اشكال متعددة في «**المحاصصة**» (توزيع حصص بدون الاهتمام بوحدة الدولة)، او **التشبيك** (تشابك في الصلاحيات على حساب المسؤولية)، او **التسقيف** (تحديد سقف لكل طائفة)، او **التوازن المُصْطنع** (الذي يُهدد مبدأ فصل السلطات). وهنا ١٤ إشكالاً طُرِحَت حسب رصدنا تفاصيلَ الاقتراحات سنة ١٩٨٧:

١٧) يراجع أيضًا: ا. مسرّه، **جذور وثيقة الوفاق الوطني-الطائف** (١٩٨٩/١٠/٢١ و١٩٨٩/١١/٥) **والتعديل الدستوري** (١٩٩٠/٩/٢١)، طبعة خامسة مضافة، المؤسسة اللبنانية للسلم الأهلي الدائم، سلسلة «وثائق» رقم ٤، ٢٠١٩، ٥٤٨ ص، ص ٤٤٤.
حول تفسير المادة ٥٤: بشاره منسى، **الدستور اللبناني** (أحكامه وتفسيرها والدراسات والوثائق المتعلقة به)، بيروت، ١٩٩٨، ٦٢٤ ص، ص ٣١١–٣١٣، وزهير شكر، **الوسيط في القانون الدستوري اللبناني**، الجزء الأول، بيروت، ٢٠٠٦.

أ) في ما يتعلق بمجلس الوزراء والتوازن الماروني-السني

١. حصْر التصويت في مجلس الوزراء بالوزراء باستثناء رئيس الجمهورية الذي ينتمي الى الطائفة المارونية (٨ اذار ١٩٨٧).

٢. اجتماع مجلس الوزراء برئاسة رئيس الحكومة السني مع فرض اكثرية موصوفة لاتخاذ القرارات (١٥ شباط).

٣. التمييز بين نوعين من اجتماعات مجلس الوزراء: مجلس يرأسه رئيس الجمهورية الماروني ويَتَّخذ قرارات في شؤون مصيرية يقتضي تحديدها، ومجلس يرأسه رئيس الحكومة السني. طُرحت عدّة اعتراضات على هذا التمييز الذي يُولِّد نزاعات بشأن وصف طبيعة المشاريع والهيئة الصالحة للنظر في النزاعات (١٥ اذار).

٤. اجتماع الحكومة بشكل مجلس وزاري وبرئاسة الوزير الاورثوذكسي الاكبر سنًا، مرة في الاسبوع. تحال المشاريع على رئيس الجمهورية وعلى رئيس الحكومة للموافقة (٧ نيسان).

٥. انتخاب رئيس الحكومة السني من المجلس النيابي مما يزيد من مكانة رئيس المجلس الشيعي ويقلل من نفوذ رئيس الجمهورية الماروني في اختيار رئيس الحكومة (١٠ اذار).

٦. انشاء ست حقائب وزراء دولة لسِتّ طوائف (الموارنة والسنة والشيعة والدروز والروم الكاثوليك والروم الارثوذكس). يُشكِّل وزراء الدولة الستة مجلسًا يتَّخذ قرارات في الشؤون المهمة. في حال الخلاف تُعرَض القضايا على مجلس الوزراء (٣ شباط).

٧. التوازن بالمباني: يجتمع مجلس الوزراء في السرايا، مقر رئاسة الحكومة، لا في قصر بعبدا مقر رئاسة الجمهورية، فيكون لمجلس الوزراء مقر مُستقل مع موظفين تابعين له (٢ نيسان).

ب) في ما يتعلق بالطائفة الشيعية

٨. انشاء نيابة رئاسة لرئاسة الجمهورية (١٨ كانون الثاني ١٩٨٧).

٩. انشاء نيابة رئاسة لرئيس الحكومة (١٨ كانون الثاني).

١٠. تمديد ولاية رئيس المجلس الى اربع سنوات لتحقيق التوازن زمنيًا.

١١. توقيع رئيس المجلس على المراسيم المتعلقة بتعيين رئيس الحكومة وتشكيلها. انتُقِد هذا الاقتراح لانه يمس بمبدأ فصل السلطات التنفيذية والتشريعية (٨ شباط).

١٢. تعيين رئيس مجلس النواب عضوًا في المجلس الاعلى للدفاع (٩ شباط).

١٣. تخصيص حقيبة وزارة المالية الى شيعي مع ضرورة توقيعه على مشاريع القوانين والقرارات التي يوقعها رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة. رفضَ الوزير نبيه بري هذا الاقتراح وطالب بمشاركة فعلية داخل مجلس الوزراء (٢٠ كانون الثاني و٩ شباط).

ج) في ما يتعلق بالطائفة الدرزية

١٤. انشاء مجلس شيوخ يرأسه درزي (١٧ شباط ١٩٨٧).

٤٥. ان رئيسًا مارونيًا للدولة، فوق الطوائف ومع قدرة على التفاوض والتحكيم والتوحيد وبخاصة الحسم، هو في منطق نظام برلماني تعددي حيث يجب ان يكون رئيس الجمهورية كملك بلجيكا لا من الفلامان ولا من الفالون، اي يكون رئيسًا للجميع رمزًا لوحدة واستمرارية الوطن[١٨]. وللدفاع عن وجودهم ومشاركتهم يعتمد المواطنون على الوزراء والنواب والاحزاب بدون امتزاج اي مجموعة برئاسة مُحددة وبدون حمل هذه الرئاسة على الانحياز او التحزُّب. يفترض نمط المشاركة ادراك رئيس الجمهورية، وان كان من طائفة مُحدّدة، خارج عملية توزيع السلطة. الحصيلةُ الدستورية لوثيقة الوفاق الوطني وما استتبعها من تعديلات لم تكن دستورية حيال رئاسة فخرية بل حيال نمط آخر هو موضوع جديد في العلم الدستوري المقارن سعيًا للتوفيق بين المشاركة في الحكم والفصل بين السلطات concilier partage du pouvoir et séparation des pouvoirs في النظرية الدستورية حول الأنظمة البرلمانية التعددية. هذا هو رئيس الجمهورية-الدولة «القوي» برمزية عمله في سبيل التضامن الوطني ومن خلال الدستور وسمو الدستور، وليس من منطق «رئيس الجمهورية الضعيف ورئيس الحكومة القوي»[١٩]. هذا الرئيس القوي يُدخل «فصلاً جديدًا وغير مسبوق»[٢٠]، على مثال الرئيس فؤاد شهاب الذي كان يَسأل دائمًا من يطرح عليه قضية مشبوهة: «ماذا يقول الكتاب» (أي الدستور)؟

١٨) José Alain Fralon, «Profession: Roi des Belges», *Le Monde*, 29 janv. 1987, pp.6–7.

توفيق هندي، «نظرية رئيس الجمهورية الضعيف ورئيس الحكومة القوي»، **النهار**، ٢٠٠٦/٣/٢٩.

Lara Karam Boustany, «Un président pour quoi faire?», *Travaux et jours*, no 89, 2015, pp. 5–19.

١٩) سمير عطاالله، «من اجل من بقي منهم» (الموارنة)، **النهار**، ٢٠٠٦/٤/٢٦.

٢٠) خلال ندوة اللقاء اللبناني للحوار، مركز التنمية والحوار، مجدليون-صيدا، ٢٠٠٦/٥/٢٧ ويراجع: ادمون رزق، **شهادة ومواقف**، بيروت، لقاء الوثيقة والدستور، ٢٠٠٤، ٣٠٤ ص.

٤٦. لم يكن أيُّ مجال لطرح صيغة اخرى اكثر فاعلية في وثيقة الطائف، حفاظًا على دور الرئاسة الاولى ومارونية الرئيس ولبنانيته الجامعة. وخلال مداولات تلت الاتفاق الثلاثي في ١٩٨٥/١٢/١٨، شاركتُ فيها بوساطة دبلوماسية المانية-فاتيكانية-اوروبية، تَمَّ البحث في «فتح» الرئاسات (رئيس جمهورية مسيحي، ورئيس وزراء ورئيس مجلس النواب من المسلمين) للخروج من مُعضلة تربيع الدائرة quadrature du cercle وتجنبًا لمخاطر «الترويكا» ورئاسة الجمهورية الفخرية او «رجل بعبدا»، فعلّق سياسي كبير بمرارة وحكمة: «يقتلونني اذا وافقت»! يعبّر هذا القول عن مدى الجمود في الذهنيات. يقول بشاره منسى الذي شارك في اجتماعات الطائف – واشاطره القول – ان الرئيس حسين الحسيني «أنقذ الموقف» في المادة ٤٩ الجديدة من الدستور. يقول ادمون رزق الذي شارك في اجتماعات الطائف ان هذا المضمون لم يُدرِك الباحثون أبعاده لتحرير رئاسة الجمهورية من مواقع النفوذ والحصص. ويقول انه لو تم شرح هذه الابعاد، كما في هذه الدراسة، لرفض البعضُ هذا الدور لرئيس الجمهورية[٢١]. ولإدمون رزق فضل ادخال التزام لبنان المواثيقَ الدولية لحقوق الانسان في مقدمة الدستور المعدّل، رغم استخفاف البعض وممانعة البعض الآخر، لان هذه المقدمة جزء اساسي في سياق السلطة الناظمة للمعايير إذ يتطلب «السهر على الدستور» تجردًا حقوقيًّا وتعاليًا على المنازعات والسجالات الشخصية والتبعية.

٤٧. أعيدَ الى الموارنة سياسيًّا ودستوريًّا دور الدفاع عن سمو الدستور والكيان ووحدة الوطن و«دولة لبنان الكبير» وقيم لبنان التأسيسية، فهل يُدركون، ونُدرك جميعًا، موجبات هذا التوجه؟ قبِلَ البطريرك صفير وثيقة الوفاق الوطني «شرط ان يصار الى تطبيقها بنزاهة وعدالة وفْق روحها ونصها»، وشرط اخراج الرئاسة الاولى عن «أذية المُسترئِسين» زمنَ الرئاسةُ الاولى «تبلغ هذا المبلغ من الضعف والوهن» واللبنانيون «بدأوا يعتادون العيش بدونها وبدون من يتولاها»[٢٢].

ما نطرحه لا يستنفد كل الاشكالية في النظرية والتطبيق واشكاليات اخرى في نظام مشاركة power sharing بشأن رئاسة الحكومة، وبخاصة رئاسة المجلس النيابي، حفاظًا على مبدأ حدود السلطات والفصل بينها. ويرى كثيرون، غالبًا من مُنطلق ذهنية النفوذ على حساب الثقافة

٢١) عباس الحلبي، «البطريرك صفير شيخ عقل اللبنانيين»، **النهار**، ٢٠٠٦/٥/٦.

٢٢) A. Messarra (dir.), *Observatoire de la démocratie au Liban (1997–1999)*, Fondation J. et L. Moghaizel en coopération avec l'Union européenne, Beyrouth, Librairie Orientale, 2000, 740 p.

الديمقراطية، ان هذا الدور لرئيس الجمهورية هو «لا شيء»، جاهلين ضخامة مضمون هذا الدور ومسؤولياته، اذ «السهرُ» على الدستور يتطلب جهدًا يوميًا لمجموعة كادرات تضبط المعايير الحقوقية للمشاريع والسياسات العامة، ومراقبة مدى انطباق مشاريع القوانين والمراسيم والسياسات العامة مع المبادئ الدستورية ومسار دولة الحق. وفي برامج حول «مراقبة الانتخابات» «ومرصد الديمقراطية في لبنان» «ومرصد التشريع في لبنان» تظهر ضخامة هذا العمل والخُلُقية المهنية والثقافة الديمقراطية التي يتطلبها[٢٣].

يقول سجعان قزي: «دور المسيحيين هو المميَّز. ولانه كذلك فلا يَضْمَنُه سواهم، ولو اعترف به الف ميثاق والف عُرف، وضمانتُه سلوك مسيحي خلَّاق وطنيًّا وحضاريًّا واخلاقيًّا (قاعدة الاستحقاق). اما صلاحياتهم فهي محصّلة دستورية لمجموعة عناصر تاريخية ومشرقية وغربية، ولمجموعة موازين سياسية وعسكرية وديموغرافية (...). لذلك حريٌّ بالمسيحيين ان يشكوا (...) من تساهل عددٍ من قادتهم لا من تقليص صلاحياتهم[٢٤].»

٤٨. لا مبرر مستقبلاً لرئاسة جمهورية للمسيحيين، والموارنة بالذات، الا في «السهر على احترام الدستور»، أي القيادة المعنوية الدستورية للبنان «العربي الهوية والانتماء» ووجه مسيحي جامع لصالح الإسلام العربي الحضاري وخلافًا لمسارات حالية في المنطقة. وهذا يتطلب تغييرًا جوهريًا في المخيلة الجماعية، والمارونية بالذات، لرئاسة الجمهورية وفي الإيديولوجيا السائدة للصلاحيات كعلاقات سلطة ونفوذ.

٥. علم النفس التاريخي والعيادي في علاج لبنان

٤٩. ما الذي يفسّر، منذ ٢٠١٦، تعبئة لبنانيين متعلمين بإيديولوجيات وتوجهات بعيدة تمامًا عن الفكر النقدي وكل صدمات الواقع؟ دراستنا في **علم النفس التاريخي** psychologie historique، أي كيفية تلقي القارئ وتأويله لأحداث الماضي، وفي **علم النفس العيادي**، تشمل الذهنيات لا من منطلق الصدمات والمكبوتات الفردية ولدى جماعات، أي ما تمت

٢٣) **مرصد التشريع في لبنان**، بالتعاون مع المؤسسة الوطنية للديمقراطية NED، بيروت، المؤسسة اللبنانية للسلم الأهلي الدائم، ٣ أجزاء، المكتبة الشرقية، ٢٠٠٥–٢٠٠٨.

٢٤) سجعان قزي، «الفكرة الزائفة حول حقوق المسيحيين»، **النهار**، ٢٠٠٨/٨/٧.

غالبًا دراسته في لبنان، بل ذهنيات الطوائف المتباينة والنابعة من خبرات الماضي ومخاطر عودة مكبوتات تستفزّها تيارات تعبئة نزاعية.

٥٠. تتغذى الذهنيات في لبنان وتنمو في ثلاث حالات فطام sevrage: الواقع الجغرافي لدولة **لبنان الكبير**، **والمخيلة الجماعية للدولة**، وعقدة **الباب العالي**.

نعني بعلم النفس التاريخي ما لا يهتم به التاريخ كعلم يسعى كما يتوجب في البحث عن الوقائع والتأكد من صدقيتها ومصادرها، مهملاً ادراك المتلقي وتفسيره وتفاعله واسقاطه، أو عدم اسقاطه الماضي على الحاضر، واستخراجه عبرًا أو عدم استخراجه من خلال خبرة المتلقى الذاتية وذاكرته وعيشه وادراكه للأحداث.

هل يقتضي التغيير في سرد الوقائع التاريخية؟ كلا، لان هذا المنحى تشويهٌ وتزوير. المطلوب في علم النفس التاريخي موضَعَة الأحداث contextualiser في زمنيتها ومكانيتها السياسية والاجتماعية الاقتصادية وتاريخ الذهنيات histoire des mentalités، وهو ما لا يفعله غالبًا مؤرخون، لبنانيون وعربًا عمومًا، مُتجاهلين المتلقي والأخطر: مُتعمدين اسقاط الماضي في الحاضر.

٥١. من المؤكد ان مجزرة Saint-Barthélémy في باريس (امتدت الى نحو ٢٠ مقاطعة في فرنسا في ٢٣–٢٤ آب ١٥٧٢) يُدركها الفرنسيون اليوم بأنها من الماضي. لكن أحداث ١٨٦٠ في لبنان، وفي كتب التاريخ المدرسية، يتم وصفها بدون موضعتها، مكانًا وزمانًا، ما يؤدي إلى تأويلات نزاعية في الحاضر واسقاطها في الحاضر في ما يتعلق بالعلاقات بين الطوائف.

٥٢. فكرة هذه المقاربة اختمرت مع الزمن في اطار أعمال «المؤسسة اللبنانية للسلم الأهلي الدائم»، منذ ثمانينات القرن الماضي، وبصفتي عضوًا في لجنتي «التربية المدنية» و«التاريخ» في خطة النهوض التربوي في «المركز التربوي للبحوث والانماء» في السنوات ١٩٩٦–٢٠٠٢ بإشراف البروفسور منير أبو عسلي.

٥٣. كتابان، في فترات مُتباعدة، يعبّران عن الذهنيات الطائفية المتمايزة في لبنان خلال سنوات الحروب في ١٩٧٥–١٩٩٠ وبعد وثيقة الوفاق الوطني – الطائف، وبروز استراتيجية شعبوية في التعبئة النزاعية. يتوجب عدم قراءة هذه المقاربة في علم النفس التاريخي وعلم النفس العيادي من منطلق تبرير أو اتهام سياسي لأي فريق. المقاربة مختلفة تمامًا وهدفيتها ثقافية وتربوية.

نجد في الكتاب/الوصية لكمال جنبلاط، الصادر أولاً بالفرنسية (Pour le Liban, Stock, 1977)، وشرط قراءته من منطلق ثقافي وعلم النفس: المثالية والاوهام والخيبة والمرارة، وفي الختام الحكمة المختبرة والاختبارية. الكتاب/الوصية هو كتاب حكمة ونقد ذاتي، وهو نادر جدًا في الذهنية العربية، وليس كتاب سجال. الكاتب Philippe Lapousterle أجرى مقابلات عدة مع كمال جنبلاط، ويدرك هذا الجوهر في خاتمة الكتاب: «ليست العقلانية ركيزة السياسة في الشرق الأوسط (...) والأمل في انتصار العقل والتسوية الحقيقية، كما يراها كمال جنبلاط». وفي الكتاب تفاصيل دقيقة عن الذهنيات المتباينة والمخيلات الجماعية ومخادعات الجوار. يتجنّب كمال جنبلاط التحقير والتعميم. يذكر، بخلقية فكرية قصوى، هذا القول لوزير الخارجية السوري عبد الحليم خدام: «الوطنيون الحقيقيون في لبنان هم جماعة الكفور» (ص ١٩٣). نفهم إذًا لماذا التفجيرات الإرهابية استهدفت هؤلاء الوطنيين وغيرهم من طوائف أخرى وكمال جنبلاط بالذات. تتصادم الذهنيات المتباينة والمكبوتة مع «حلم قديم لبعض رجال السياسية السوريين وهذا منبع العنف الذي هو وليد الكذب»[٢٥].

٥٤. لتفسير ظواهر شعبوية نرجسية مَرَضية sociopathie، نعتمد كتابًا آخر صادرًا في مرحلة سلمية ليست بالضرورة مسالمة بشكل كامل بعد وثيقة الوفاق الوطني/ الطائف في ١٩٨٩. انها مرحلة لم يعرفها كمال جنبلاط (اغتيل في ١٩٧٧/٣/١٦) لكنها تدعم ملاحظاته حول الذهنيات. انه كتاب محمد أبي سمرا ووضاح شراره (**أقنعة المخلص**...، دار النهار، ٢٠٠٩). جمع المؤلفان شهادات مناضلين ملتزمين ومخدوعين. في مقدمة الكتاب يذكران ظواهر غريبة، ومسرحية، وشرود ذهني، «وخبريّات»، وصعوبة الفهم، وحسابات نرجسية... لا يُشكل الكتاب وصفًا شاملاً اذ يقتصر على سبع شهادات[٢٦].

لا علاقة ولا ترابط بين **الوقائع وتفسيرها الذهني**، ولا نقول تفسيرها العقلاني. لا نصحّح ادراكًا ذهنيًا في علم النفس من خلال تعديلات في النصوص، أو من خلال براهين في المنطق. طبيعة المعالجة **نفسانية** وتربوية على المخيلات الجماعية.

انحرافات وتشوّهات الديمقراطية في عالم اليوم، وامتداد وسائل التواصل الجديدة والشعبوية والديماغوجية مع انتشار

٢٥) Kamal Joumblatt, *Pour le Liban*, entretiens avec Philippe Lapousterle, Stock, 1977.

٢٦) وضاح شراره ومحمد ابي سمرا، **اقنعة المخلص**...، دار النهار، ٢٠٠٩.

تيارات فلسفية تبريرية، تؤدي إلى القول: لا توجد وقائع بل تأويلات (Il n'y a pas de faits, mais des interprétations)! وهو قول يشوّه كل نظرية الشكل gestalt، وينبع عن الحاجة القصوى للتعمّق في مفهوم الواقعية réalisme وتنمية الفكر العلمي esprit scientifique في وسائل التنشئة.

٥٥. لا علاقة للعلاج النفسي بالنصوص الدستورية ولا بواقع أحداث الماضي وأشكال ممارسة الحكم. لا تزال مخيّلة مارونية تعيش في جزء من جبل لبنان الصغير، وتعيش مخيّلة درزية المكانة الدرزية/المارونية في الجبل! وتدرك مخيّلة نفسية أخرى ميثاق ١٩٤٣، خلافًا لمعطيات تاريخية، كأنه حصرًا توافق ماروني/سني! وتحمل مخيّلة نفسيّة شيعيّة هاجس الإقصاء عن البنيان اللبناني. ويتم التمييز تجاه هذه الذهنيات بين طوائف أساسية وطوائف غير أساسية! يعني أن اللبنانيين أعلنوا دولة لبنان الكبير مع استمرارية لبنانات الماضي من خلال تاريخ تقليدي، وبدون التنبّه إلى مخاطر تعبئة هذه الذهنيات وبدون ادخال دولة لبنان الكبير في سياق ثقافي وتربوي.

٥٦. ما سُبُل التوفيق بين الدولة الأحادية monolithique القوية بذاتها والتي ينتظرها اللبنانيون دفاعًا عن السيادة ونوعية الحياة ومستقبل الأجيال، وبين التمسّك الغريزي لدى اللبناني بالحريات؟ اللبناني الذي يتمتع بصفات رائدة معترف بها عالميًا، يشكو من الانفصام schizophrénie، فهو يُطالب بدولة قوية وبالحريات لدرجة الفوضى كما يلاحظه العديد من الأجانب.

٥٧. نجاح حملات شعبوية وتعبئة مسيحيين وطوائف أخرى إسلامية، تُفسّر ذهنية الدولة «القوية»، لا بالمعنى الدستوري بل المستقوية بتحالف خارجي ويعيش لبنانيون عودة الحمايات الأجنبية ولكن «من يحمينا من حماتنا» «Quis custodiet ipsos custodes?» (Juvenal, *Satire VI*, 347–348).

٥٨. يعيش لبنانيون آخرون حالة انكار déni وتحويل transfert بشأن ما يرد في هذه الدراسة. على المريض الاعتراف بحالته المرضية، والاقرار أنه يحتاج الى معالجة مختلفة عن النصوص الدستورية، وأن يتبع الوصفة في سبيل العلاج. ان لبنان، بدون معالجة من خلال تأريخ متميّز في علميّته عن دراسة الفيزياء، وبدون تربية ومثاقفة في انسجام مع دولة لبنان الكبير، هو معرّض لحروب ألف سنة بالرغم من جميع الجهود!

٥٩. المؤلفون الذين ينكبّون اليوم في العالم على دراسة الظواهر الشعبوية واستغلال الغرائز في التعبئة النزاعية يعتبرون أن الظاهرة

الشعبوية غير مدروسة بشكل مُعمّق. تنطلق الدراسة الجدّية من علم النفس التاريخي وعلم النفس العيادي.

٦. تأريخ لبنان... بدون دولة!
اين الدولة في لبنان من التاريخ والتربية؟

٦٠. هل يمكن التأريخ بدون فلسفة التاريخ؟ يُطرح الموضوع غالبًا من منطلق العبر من التاريخ، لكنّ الإشكالية تتخطى هذه المقاربة. ما يهمنا جوهر التاريخ في جدلية العلاقة بين المجتمع والسلطة. حتى عندما ادرس تاريخ عائلة نووية، وحتى إذا كان أعضاؤها لا يتعاطون السياسة، فهي عائلة تتأثر حكمًا بالحروب والسلم والسياسات المتبعة في المجتمع.

كان الكيان في الأمم التعاقدية في بنائها القومي منقسمًا الى مقاطعات تتعرض لتدخلات اجنبية واحتلالات، كما الحال في سويسرا والبلاد المنخفضة ولبنان...، يطرح بناء الدولة في هذه المجتمعات إشكالية تخطي الامارات والاقطاعيات وتدرّج العلاقة بين المركز والأطراف centre et périphérie. هذا المسار التاريخي للدولة يستحق اهتمامًا خاصًا في كل تأريخ علمي وواقعي انطلاقًا من فلسفة التاريخ كجدلية علاقة بين المجتمع والسلطة.

٦١. منذ كنتُ تلميذًا أدركت جدلية هذه العلاقة في دراسة التاريخ الفرنسي، لا في دراسة تاريخ لبنان! قبل الملك لويس الرابع عشر، كان ملك فرنسا ملكًا على باريس. امتدت سلطة الملك على الاقطاعيات وامارات محلية كانت تتولى حماية الناس في مقابل ولائهم. في كتاب: **ديناميكية الغرب** يشرح Norbert Elias تطور مسار بناء الدولة في الغرب طيلة أربعة قرون[٢٧].

٦٢. أدركَت أبحاث في لبنان والخارج الإشكالية المحورية للدولة في المجتمع اللبناني، إنما بدون مواجهة مباشرة لمسار امتداد المركز الى الأطراف centre et périphérie في بناء الدولة. في مجموعة مقالات في الاوريان-لوجور سنة ١٩٧١ طرحتُ إشكالية الدولة كجسر تفاوض، ولكن ايضًا كسلطة حسم وليس مساومة[٢٨]. أذكر ايضًا الكتاب المحدود الانتشار

(٢٧) Norbert Elias, *La dynamique de l'Occident*, Calmann-Lévy, Poche, 2003, 320 p.

(٢٨) A. Messarra, « Au commencement était le chéhabisme : De la politique des équilibres à la politique de la décision », *L'Orient-Le Jour*, 18, 20, 22, 24, 30/7 et 2/8/1971, reproduits dans notre livre : *Le modèle politique libanais*

لـ Enver M. Khoury نُشر قبل اندلاع الحروب المتعددة الجنسيات سنة ١٩٧٥ حول مدى مناعة النظام الدستوري اللبناني[٢٩]. ويكتب Dominique Chevallier، من خلال خبرته في الاشراف على اطروحات دكتوراه لطلاب لبنانيين، ان مفهوم الدولة مغيّب «gommée» في البحوث:

« J'ai été choqué en constatant à quel point, chez eux (des enseignants), il y a une dissolution du sens de l'Etat, une absence de référence à l'Etat (...) Or, remarquons-le, lorsque la réalité de l'Etat est gommée, lorsque la date historique de la création de l'Etat – le 1er septembre 1920 – est par conséquent ignorée, il est facile d'affirmer l'éternité du Liban (...). Si l'Etat est nié au Liban, alors que le pays est cependant cité pour discourir sur des conflits sociaux et politiques qui s'y déroulent, ceux-ci sont replacés et compris dans un ensemble qualifié soit d'arabe, soit d'islamique, mais dont la consistance n'est pas pour autant définie par une analyse des conditions culturelles, économiques et institutionnelles (...). Les polémiques qui se développent, depuis plusieurs années entre partis ou entre communautés, entre factions libanaises, tirent ainsi leur violence de la mise entre parenthèses de l'Etat (...). Les Libanais ont-ils su assumer un Etat de droit? Comment ont-ils vécu et compris les institutions d'un Etat de droit? *Quelles traditions étatiques trouvent-ils dans leur histoire*? »[٣٠]

وأذكر هنا عمل ميشال حاجي جورجيو بطرح إشكالية الشرعية

et sa survie, Publications de l'Université Libanaise, 1983, 536 p., pp. 133–200. et « Problématique de l'Etat... », dans notre ouvrage, *Théorie générale du système politique libanais*, Cariscript-Paris, avec le concours du Centre national des Lettres, 1994, 406 p., pp. 311–367.

(٢٩ Enver M. Khoury, *The operational capability of the Lebanese political system*, Institute of Middle Eastern and North African Affairs Inc., Beirut, Catholic Press, 1972, 456 p.

(٣٠ Dominique Chevallier, « Comment l'Etat a été compris au Liban », *ap.* Nadim Shehadi and Dana Haffar Mills (ed.), *Lebanon: A history of conflict and consensus*, Center for Lebanese Studies, I. B. Tauris, 1988, pp. 210–223.

جوزف أبو نهار، «مظاهر التزوير والتشويه في الذاكرة التاريخية»، في كتاب: أ. مسرّه (اشراف)، **الحق في الذاكرة**، المؤسسة اللبنانية للسلم الأهلي الدائم، المكتبة الشرقية، ١٩٨٨، ص ١٣٦–١٤٤، وا. مسرّه (اشراف)، **العبور الى الدولة** (من المعاناة الى المواطنية)، المؤسسة اللبنانية للسلم الأهلي الدائم، المكتبة الشرقية، ١٩٩٢، ٢٦٠ ص، بخاصة:

A. Messarra, « L'Etat libanais: Des idéologies aliénantes à la réalité historique », pp. 249–260.

légitimité في النظام الدستوري اللبناني[٣١]. وتطرح ديانا خير إشكالية وحدة الدولة، ولكن دون التطرق الى الدولة بالذات كمركز حسم وتقرير والبناء التاريخي للعلاقة بين المركز والاطراف[٣٢].

٦٣. موضوع التغيير السياسي وتطور النظام الدستوري-اللبناني يُطرح غالبًا مع التهرب نحو مسائل رديفة: «الطائفية» الغاء «الطائفية السياسية»، العلمنة، الفدرالية، اللامركزية...، كما لو ان هذه التنظيمات لا تحتاج الى دولة مركزية تتمتع بكامل الصفات الملكية للدولة (*rex,* roi *regis*) وأبرزها احتكار القوة المنظمة واحتكار العلاقات الدبلوماسية.

٦٤. الاعمال في عهد الرئيس فؤاد شهاب غالبًا غارقة في النوستالجيا، او تعتمد مقاربة تاريخية حصرية، او تدرس عهدًا رئاسيًا مقارنة بعهود أخرى. لكنها تفتقر الى نظرة شمولية حول إمكانية الحوكمة الديمقراطية gouvernabilité لمجتمع تعددي. وهنا كتاب Stephane Malsagne حول Louis-Joseph Lebret بالغ الأهمية منذ عنوان متواضع يحمل على الغوص الى أبعد[٣٣]. يُكمل هذا العمل كتابه حول فؤاد شهاب، لكن مقدمة الكتاب دفاع عن عهد رئاسي لاحق يُسيء الى التوجهات العلمية والتطبيقية في الكتاب[٣٤]. كتاب نقولا ناصيف بالغ الفائدة في سبيل بناء نظرية عامة نحو «الجمهورية» كما هو مذكور في العنوان[٣٥].

٦٥. يتمظهر الغياب النظري حول الدولة في دراسات عن عهد الرئيس فؤاد شهاب، لكُتّاب لا يدركون خصائص الأنظمة البرلمانية التعددية من منظور عالمي ومقارن. يسألون: هل يمكن احياء الشهابية؟ يدرسون عهد

وليد مبارك، **مكانة الدولة الضعيفة في منطقة غير مستقرة. حالة لبنان**، أبو ظبي، مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، «سلسلة محاضرات الامارات»، رقم ٨٦، ٢٠٠٤، ٦٦ ص.

(٣١) Michel Hajji Georgiou, *Légalité et légitimité dans le système politique libanais en temps de crise*, maîtrise en sciences politiques, USJ, dir. Jean Salem, 2003, 144.

(٣٢) Diane Khair, *Unité de l'Etat et droits des minorités* (Etude constitutionnelle comparée du Proche-Orient), Paris, Fondation Varenne, coll. Thèses, no 56, LGDJ, 2011, 602 p.

(٣٣) Louis-Joseph Lebret, *Chronique de la construction d'un Etat* (Journal au Liban et au Moyen-Orient, 1959–1964), édition établie par Stéphane Malsagne, Paris, Geuthner, 2014, 392 p.

(٣٤) Stéphane Malsagne, *Fouad Chéhab, une figure oubliée de l'Histoire libanaise*, Karthala-IFPO, 2011.

(٣٥) نقولا ناصيف، **جمهورية فؤاد شهاب**، تقديم فؤاد بطرس، دار النهار ومؤسسة فؤاد شهاب، ٢٠٠٨، ٦١٢ ص.

الرئيس فؤاد شهاب مقاربةً نوستالجية، او دفاعًا عن عهد، او خبرةً تاريخية مرحلية في حين انها تُشكل منهجية في حوكمة gouvernabilité الأنظمة البرلمانية التعددية التي هي تعاقدية في بنائها القومي التأسيسي.

لا بديل آخر للبنان خارج سلطة عليا ناظمة «تسهر على احترام الدستور» (المادة ٤٩)، ان كان النظام الدستوري موحدًا او فدراليًا، جغرافيًا او شخصيًا او لامركزيًا. البديل الآخر هو «طغيان فئوي» minority control او «طغيان أكثرية» dominant majority او «طغيان اقلية» dominant minority مع مرجعية بابٍ عالٍ خارجي وقبائلية واقطاعية وفوضى وحرب أهلية مُسلحة او باردة.

٦٦. انها الخبرة التاريخية! وانه مسعى لبناء نظرية فلسفية ودستورية للدولة اللبنانية كي لا تكون دولة اقحوانية chrysanthème ينتزع كل واحد ورقة منها بدون الاهتمام بالانسجام العام. تثبت حالة لبنان ذلك، وبالأخص حالة سويسرا. **يتطلب ذلك مُثاقفة acculturation الدولة في لبنان ودولنة الثقافة السياسية والمواطنية بلوغًا إلى حوكمة gouvernabilité مجتمع تعددي.** في مقطوعة موسيقية مع آلة واحدة يكون العزف ممكنًا وسهلاً نسبيًا، اما الأوركسترا فتتطلب قائد أوركسترا ناظمًا. أهمل التأْريخ اللبناني وبرامج في الثقافة المواطنية هذا الجانب في العلاقة بالدولة. عندما تكون الدولة اللبنانية دولة تتمتع بصفاتها الملكية تصبح التطورات الذاتية endogènes ممكنة. ولا تغيير في أي مجتمع الا ضمن سياقه الذاتي في التغيير.

كيف تُمْكن الحوكمة gouvernabilité في مجتمع تعددي؟ نتجنب مقاربات عامة تتعلق بمجتمعات متجانسة نسبيًا. حاجتنا الى إعادة التفكير وتيويم actualiser دراسات فلسفة الدولة بمراجعة التأريخ اللبناني ودولنة الثقافة السياسية.

٦٧. ما مضمون مراجعة التأريخ للدولة اللبنانية، وبشكل عام كل تأريخ علمي؟ هذا المضمون غائب كليًا (نعم: كليًا) في التأريخ للبنان وهو يشمل ثلاثة مضامين للدولة، هي:

١. **السيادة:** الاوضاعُ السابقةُ الاستقلال (٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٣) كانت احتلالات ووصايات، أي بدون سيادة وقرار وطني. نظام جبل لبنان إدارة ذاتية autonomie administrative وليس استقلالاً. امراء الجبل مناضلون ومقاومون ذوو دور هام، لكنهم وكلاء الباب العالي العثماني! الكلام عن «استقلال لبنان مدى العصور» وعهد règne فخر الدين وبشير الثاني هو خداع او جهلُ مفهومَي الاستقلال والسيادة! والأكثر خطورة

تعبير «استقلال تام» و«استقلال ناجز»، ما يُلوّث الاذهان، كما نعيشه في مخيلة جماعية لبنانية، وهو تشويهٌ جوهرَ السيادة.

٢. **سلطة الدولة:** جدلية العلاقة بين المجتمع والدولة بارزة في تاريخ لبنان الحدثي والواقعي والمعاش (وفي تاريخ أي مجتمع) ما يوجب التوسع والتعمق بشأنه في كتابة تاريخ العلاقات بين ولاة المقاطعات والامارات والاقطاعيات وسلطات الامر الواقع. ومقاربة التاريخ أنتروبولوجيًّا تفسّر بروز الدولة المولجة بتطبيق القانون mise en oeuvre du droit في سبيل حماية الجميع، وكذلك القابضين على السلطة لأنهم مُعرضون لمواجهة قوة مَن هُم اشد بطشًا. كان اللبنانيون يتذمرون من الهيمنة المحلية حين كانت السلطة المركزية العثمانية بعيدة نسبيًا عنهم ولا تتدخّل الا غالبًا لاثارة النعرات وفي الحالات القصوى.

٣. **التطور الذاتي للبنية الدستورية اللبنانية:** التطور التاريخي للبنية الدستورية اللبنانية منذ القدم مُغيَّبٌ في التأريخ العام للبنان، برغم اعمال ريادية لمؤرخين بحثوا في أرشيف لبنان وتركيا وفرنسا والعالم. عند توصيف هذا التطور الذاتي للنظام الدستوري اللبناني في التاريخ العام للبنان، وبخاصة في كتب التاريخ المدرسية وتعليم القانون الدستوري اللبناني، ينتفي الاجترار المستمر حول التقسيم والفدرالية واللامركزية وإلغاء «الطائفية» والعلمنة ومجلس الشيوخ، بدون مقاربة عملانية واختبار لبناني ذاتي.

٦٨. يستلهم مؤرخون ومؤلفون مدرسيون نماذج في البناء القومي، ويعيدون إنتاج الأنماط الذهنية ذاتها في التأريخ مُتجاهلين الفروقات الجوهرية. يُلاحظ لدى قراءة الحالة السويسرية ان تاريخ لبنان أكثر غنى في سبيل مزيد من تصويب نظرية البناء القومي واغنائها ومسار الدولة. الحاجة إذًا هي إلى استلهام التاريخ اللبناني بالذات بدون عقدة نقص لدى مُثقّفين. المثال الأبرز لمثاقفة الدولة acculturation de l'Etat هو سويسرا في الادراك الجماعي من خلال تأريخ علمي واقعي ومن خلال مختلف وسائل التنشئة.

٦٩. بين علماء النفس والجامعيين ان عمل منير شمعون ريادِيٌّ في ادراكه الشأن العام res publica للدولة Etat، بخاصة عندما طلب مني دراسة، مقترحًا هو عنوانًا لها: «الصلة المعلّقة بين المواطن والدولة»[٣٦].

(٣٦) A. Messarra, « Le citoyen et l'Etat en suspens : Du citoyen individualiste, rouspéteur et dupé au constructeur d'Etat », *Travaux et jours*, no 88, 2014, pp. 59–78. Et le travail fondamental : Mounir Chamoun, « Psychologie de l'ethnotype libanais », *Travaux et Jours*, no 30, janvier-mars 1969, pp. 71–

٧٠. ما الذي يُثبت ان الدولة في لبنان غير مفهومة، وغائبة في الادراك اللبناني؟ كل حديث او حوار، حتى في اوساط جامعية وبحثية، حول الدولة ينحرف نحو نقاش حزبي تبريرًا او دفاعًا عن هذه الفئة او تلك! استفادت دولة/حزب من هذا الفراغ الى اقصى الحدود في حين ان الموضوع لا يعني حزبًا كحزب، بل وظيفته الاستراتيجية المسلحة وذات دبلوماسية خاصة.

٧١. تعتمد جمعيات أهلية سياقًا ثقافيًا حصريًا culturaliste في مقاربة العيش معًا vivre-ensemble بدون ادراك الحاجة البنيوية الى الدولة. يستحيل العيش معًا بسلام من دون دولة! وينظر اليك البعض بريبة حين تطرح إشكالية احتكار الدولة وحدها القوةَ المنظِّمة والعلاقات الدبلوماسية! تآلَف لبنان في كل تاريخه مع أحزاب عدة، فيما كان يجب حظر بعض الأحزاب. ولكن... حين يكون الحزب دولةً مع جيش ودبلوماسية، يصبح الموضوع مختلفًا.

٧٢. مثاقفة الدولة في لبنان تتطلب مراجعة تأريخ لبنان وقراءة أخرى للنظام الدستوري اللبناني من منظور مقارن على نمط الخبرة الثقافية في سويسرا[٣٧]، وتنشئة سياسية وتربوية حول معنى «دولة». إنها حاجتنا الى إعداد كراسات بالعناوين التالية كنماذج تجريبية ومعيارية:

١. ما معنى دولة؟

٢. اعلان دولة لبنان الكبير سنة ١٩٢٠.

٣. ماذا حصل في لبنان بعد اعلان الاستقلال (١٩٤٣/١١/٢٢): سيادة، حكم وطني، جيش، بوليس، جمارك، عملة...؟

٤. حبيبتي الدولة في ١٩٧٥–١٩٩٠.

٥. مصائب وانجازات الدولة اللبنانية منذ ١٩٤٣.

80, et Paul Griéger, « La caractérologie du peuple libanais », *Action-Proche-Orient*, juin 1955, pp. 298-308 et *Revue de psychologie des peuples*, no 1–4, 1955, 10e année, 19 p.

Antoine Courban, « Le Liban: simulacre d'Etat? », *L'Orient-Le Jour*, 24/11/2020.

(٣٧) Charles Gilliard, *Histoire de la Suisse*, PUF, « Que sais-je? », 7e éd., 1978, 128 p.

Maurice Braure, *Histoire des Pays-Bas*, PUF, « Que sais-je? », 3e éd., 1974, 126 p.

Henri Grandjean et Henri Jeanrenaud, *Histoire de la Suisse* (classes du cycle moyen), 2 vol., Payot, Lausanne, 7e éd., vol. II, 1981, 120 p. et 263 p. Nous nous limitons au vol. II du fait que le vol. I porte sur une initiation générale à l'histoire. Les sept éditions successives de ce volume depuis 1969 justifient le choix en tant que modèle normatif.

G.- A. Chevallaz, *Histoire générale de 1789 à nos jours* (celle surtout de la Suisse), Payot, Lausanne, Ed. Pedagogia Inc., Québec P.Q., 4e éd., 1974, 476 p.

٦. تاريخ الدولة في لبنان كما نرويه لأولادنا.

٧. تاريخ النظام الدستوري اللبناني كما نرويه لأولادنا[٣٨].

٧. فؤاد شهاب او نظرية حوكمة الدولة اللبنانية

٧٣. الرئيس فؤاد شهاب من أكثر رجال الدولة في لبنان تَعرُّضًا لسوء الفهم. لذا، في ٢١ نيسان ١٩٧٣، أحرق كل أوراقه تجنبًا للاستغلال وسوء الفهم. ادار الحوكمة في الدولة اللبنانية بمنهجية دستورية وعملانية وسباقة بالنسبة الى الأبحاث العالمية المقارنة حول الإدارة الديمقراطية للتعددية الدينية والثقافية. واسوأ استغلال او استيعاب لنهج وذاكرة الرئيس فؤاد شهاب تشبيهه بعهد آخر في انفصام تام مع الدستور وكل قيم لبنان التأسيسية[٣٩]. بعد الرئيس فؤاد شهاب تبوأ ثلاثة قادة الجيش رئاسة الجمهورية مُستفيدين او غير مُستفيدين من وهج رئاسة شهاب، لكنهم، لأسباب تعود الى واقع الاحتلال، لم يتابعوا النهج ذاته او استمراريته، وبدون اعتماد المرجعية الوحيدة أي **الكتاب** (الدستور).

المثال الأبرز لمفهوم الدولة صاحبة السيادة يتمظهر في لقاء ١٩٥٩/٣/٢٥ بين الرئيسين شهاب وجمال عبد الناصر، لا في سوريا ولا في مصر ولا في لبنان (في ظروف ذلك الزمن) بل رمزيًا في خيمة على الحدود اللبنانية-السورية نُصبت لهذا الغرض تجنبًا لأي التباس[٤٠]. الرئيس عبد الناصر اقتنع بمسلك رجل الدولة الرئيس فؤاد شهاب فقال لاحقًا: «لن أتعامل إلا معه شخصيًا (الرئيس شهاب) من رئيس دولة الى رئيس دولة»[٤١].

من منظور ثقافي: عقدة الباب العالي كما ينقلها علم النفس التاريخي من خلال تاريخ أيديولوجي في لبنان، هي منبع الضبابية في مفهوم الدولة. يُنقَل عن فؤاد شهاب قوله: «النزاعات بين الزعماء والأحزاب والسياسيين على الحكم والسلطة امر طبيعي بل ضروري في النظام الديمقراطي. لكن الاستعانة بالخارج على الخصوم عمل خطير، وأحيانًا تدعى عمالة او خيانة. أَلَم يدرك هؤلاء المستعينون بالخارج على خصومهم ان الدول

٣٨) يراجع تفاصيل أخرى تطبيقية في الخاتمة، ص ٣٦–٣٧.

٣٩) مقال لأحد الجامعيين في *L'Orient-Le Jour*، ٢٠١٨/١٠/٦.

٤٠) نقولا ناصيف، ص ٣٢٣–٣٣٥.

٤١) مقابلة مع محمد عبدالله مشنوق، في كتاب نقولا ناصيف، ص ٣٣٣.

والقوى الخارجية تستخدمهم لخدمة مصالحها، وأنها تعصرهم وترميهم كما تُرمى الليمونة؟[٤٢]»

وعن الرئيس شهاب أيضًا قوله: «ما من مرة حاولَت احدى الجهات الخارجية استغلال فئة في لبنان الا استثارت حساسيات فئات أخرى معاكسة، بل استثارت ما هو اكثر من الحساسيات: الخصام والصدام وفتن الاقتتال والتذابح. والتاريخ يشهد بذلك وعليه. ليس من مصلحة لبنان ان يسمح لأي فريق من افرقاء المذاهب والنزاعات الطائفية بالالتجاء الى التدخلات الخارجية»[٤٣].

٧٤. فؤاد شهاب الذي كان يشكو من أكلة «الجبنة» الذين يشملون سياسيين واتباعهم، كان دومًا يُبرز **الكتاب** (الدستور) جوابًا على أي شخص يأتي اليه للمطالبة بخدمة غير مشروعة.

من قال في العهد الروماني إن «بيروت أُم الشرائع» *Berytus nutrix legum*[٤٤]؟ نتجاهل ان تراثًا متراكمًا في العيش معًا في لبنان ينهار اذا كانت حقوقٌ أساسية غير مضمونة. المقاربة محض الثقافية culturaliste للعيش معًا وللحوار المسيحي والإسلامي في لبنان، برغم خبرات وانجازات وتأثيرات في العلاقات الاجتماعية، تُخفي الجانب الحقوقي في الموضوع. تطفو المقاربة التنظيمية والقضائية للقانون لدى قانونيين في حين **ان القانون في جوهره هو تعبير عن العقد الاجتماعي. ثقافة القاعدة الحقوقية في المجتمع هي التي تُبدّد المخاوف والمكبوتات ومخاطر الهيمنة والعزل.**

لم يشْكُ فؤاد شهاب، لا في الممارسة ولا في خطبه ولا في أقواله المنقولة عن عارفيه، مما يوصف شعاراتيًا بـ«الطائفية»، وهو تعبير يستعمله ميشال شيحا بين مزدوجين[٤٥]. استغلَّ «أَكَلَة الجبنة» تعبير «الطائفية» لاستتباع زبائن بمعزل عن أي انتماء للطوائف. ليس الدستور اللبناني، في نصه وروحيته، «طائفيًا». ولكنه طُيّف بلا حدود لإرساء هيمنة حزبية وزبائنية وتَبادُل منافع. تتطلب الحوكمة الرشيدة للدولة في لبنان في الدستور والقانون عدة توجهات.

---

٤٢) باسم الجسر، **النهار**، ٢٠٠١/٤/٢٥ ونقلاً عن ناصيف، ص ٢٩٦.

٤٣) ناصيف، ص ٣٢١.

٤٤) Antoine Courban, *L'Orient-Le Jour*, 23/4/2013 et Centenaire de la Faculté de droit et des sciences politiques de l'Université Saint-Joseph (1913–2013), 18/4/2013.

٤٥) Michel Chiha, *Politique intérieure*, Beyrouth, Trident, 1964, 320 p., p. 79–82.

روبير فاضل، «رؤية للخروج من أزمات لبنان الوجودية»، **النهار**، ٢٠٢٠/٣/٣١.

٧٥. تُجسّد **الإدارة** الخدمة العامة استنادًا الى القانون. انها مجال تطبيق قاعدة التمييز الإيجابي بانفتاح ومرونة مع التقيد بشروط الكفاءة والمصلحة العامة. هدف قاعدة التمييز الإيجابي تجنُّب العزل الدائم وتوفير الأمان النفسي والحد من تسييس التباينات. ماذا يهم المواطن اذا كان مدير عام او أي موظف في وزارة ومن أي طائفة، يُطبق القانون بدون تمييز استنادًا الى اعتبارات زبائنية؟

٧٦. عندما عمل فؤاد شهاب في سبيل **التنمية الاجتماعية الاقتصادية** في المناطق اسماه البعض محمد شهاب. يقول فؤاد شهاب في هذا السياق: «مهما فعلت للمسيحيين والموارنة، فاسْم جدي هو حَسَن»[٤٦]. ويقول ايضًا: «لن يقتنع الناس ولاسيما منهم المسيحيون. لم يقتنعوا بالكثير الذي قمت به»[٤٧].

٧٧. لا يضمن أي دستور الحوكمةَ الرشيدة بدون دولنة الثقافة المواطنية من خلال مختلف وسائل التنشئة، وبخاصة التربية، من جيل الى جيل. في مجتمع متعدد الطوائف لم يخضع واقع علم النفس التاريخي في لبنان psychologie historique وعلم النفس العيادي psychanalyse للعلاج والتنقية بواسطة تأْريخ علمي وانساني وواقعي في آن، وبرامج ثقافة مدنية على المستوى الوطني. تكمن الأولوية في المثاقفة acculturation على الشأن العام الذي هو في طبيعته عابر للطوائف. يؤكد ذلك Louis-Joseph Lebret في ختام تقريره الاقتصادي الاجتماعي: «ما ينقص لبنان أكيدًا – قبل الماء والكهرباء والمواصلات – فقدانُ فرق عمل تتكرّس للمصلحة العامة، وتعمل بروح تعاونية على جميع المستويات، لحل مشاكل في الحقلين الاقتصادي والإنساني. اذا لم يحصل تحوّل في ذهنية النخبة الشابة، واذا لم تحدث في لبنان ثورة فكرية وخلقية، يكون الانماء واهيًا ولن يستطيع لبنان أداء دوره في الداخل كعامل تماسك، ولا في الخارج كمركز حضاري عالمي. مبرر وجود لبنان وديمومته: انسانيٌّ في الدرجة الأولى. النزعة الفردية تُفْقد كل نجاح معناه وقيمته، ولا ينقذ لبنان واللبنانيين سوى العمل التضامني في الداخل ومع العالم. ان تغيير الذهنية وتغيير السلوك والتضامن الوطني اليوم يسهّل تنفيذ خطة الانماء. قد يبدو اليوم غيرَ مألوفٍ الإصرار على العوامل الخارجة عن الاقتصاد، ومنها العنصر الإنساني. لكنه سلوك مرضي ان نترك لغيرنا انجاز ما يمكننا نحن أن نفعله»[٤٨].

---

٤٦) ناصيف، ص ٢٩٩.

٤٧) مقابلة مع الجنرال ميشال ناصيف، في كتاب نقولا ناصيف، ص ٢٧.

٤٨) Ministère du Plan, *Besoins et possibilités de développement du Liban. Etude préliminaire*, 2 vol., Beyrouth, Mission Irfed-Liban, 1960–1961, vol. 2, pp. 476–477.

٧٨. يتوصل الاب Louis-Joseph Lebret في مذكراته الى الخلاصة ذاتها[٤٩]. يُدرك اللبنانيون الدولة كـ«مؤسسة خارجة عنهم». يقول Dominique Chevallier بشأن لبنانيين وضعوا أطروحات دكتوراه جامعية: «أستغرب لديهم انفصامًا حول معنى الدولة وغياب مرجعيتها (...). تتركز أطروحة على الصراع الطبقي بين اشرار مُستغلين وبين طيّبين يتم استغلالهم (...). واقع الدولة مطموس (...). تستمد السجالات التي تنمو منذ سنوات بين أحزاب وطوائف وبين فئات لبنانية، من تهميش الدولة (...). ولكن، أردنا ام لا، يوجد واقعيًا دولة لبنانية، حتى في الانفصامات الحالية لقوى الامر الواقع (...). عمليًا الدولة هنا. لكن طبيعة الحكم وتطبيق القوانين وممارسة السلطة المركزية هي عرضة للنقض (...). ماذا يبقى من الدولة في ادراك اللبنانيين؟ أي تقاليد دولة يستخرج اللبنانيون من تاريخهم؟»[٥٠]

٧٩. إشكالية ادراك الدولة والوحدة الوطنية العابرة الطوائف تظهر في حديث فؤاد بطرس مع فؤاد شهاب: «في سياق استعراض الظروف والتطورات والتوقعات سألني الرئيس شهاب: «هل تعرف سابقة كان على سياسي لبناني ان يختار بين مصلحته الخاصة ومصلحة البلد، فآثر مصلحة البلد على مصلحته الخاصة»؟ ترددتُ قليلاً وأجبته بأني لا اذكر سابقة من هذا القبيل. صمت وهزَّ رأسه. وحيال دقة الظروف والتوقعات السوداء نصحني عندما ودعني بأن «إحمِل السلم بالطول لا بالعرض» قاصدًا الحياة وإشكالاتها. ولا أزال اتأرجح بين الطول والعرض حتى اليوم».[٥١]

٨٠. القى شارل ديغول، حين كان ضابطًا شابًا، في احتفال توزيع الجوائز في جامعة القديس يوسف في ١٩٣١/٧/٣، خطابًا قال فيه: «التضحية للشأن العام ضرورية لأن الزمن هو لإعادة البناء»[٥٢]. و«الارشاد الرسولي» (أعلنه البابا يوحنا بولس الثاني بعد السينودس من اجل لبنان سنة ١٩٩٥) يؤكد بحرف مائل في النص (لم يركّز عليه القراء) ضرورة «ذهنية جديدة»: «ما يجب تعزيزه، أكثر من أي تنظيم جديد، هو **ذهنية جديدة**. العمل في الخدمة العامة هو أولاً خدمة مسؤولة عن الاخوة،

٤٩) Louis-Joseph Lebret, *Chronique de la construction d'un Etat op. cit.*

٥٠) Dominique Chevallier, « Comment l'Etat a-t-il été compris au Liban », *op. cit* pp. 210–223.

٥١) فؤاد بطرس، تقديم لكتاب ناصيف، ص ١٤.

٥٢) Cité par Jean Lacouture, *De Gaulle*, vol. 1: *Le rebelle*, Paris, Seuil 1984, pp. 165-166 et Alexandre Najjar, *De Gaulle et le Liban* (Vers l'Orient compliqué, 1929–1931), Terre du Liban, 2002, 4 vol., vol. 1, 114 p., p. 38.

كل الاخوة (...) لتأتي أعمالهم لمصلحة الخير العام. والصالح العام هو أساس ما للشرعية السياسية والأدبية من سلطة، ولشرائع يجب ان يخضع لها الأشخاص (...). العزم الثابت والمثابر على العمل من اجل الصالح العام، أي من اجل صالح الكل...»[٥٣].

٨١. كان الرئيس رشيد كرامي خلال عهد فؤاد شهاب يُكرر في كل خطبه عبارة «المصلحة العامة» لدرجة ان البعض وصفه بـ«الاسطوانة». الحاجة اليوم الى تحليل مضمون الخطاب السياسي خلال السنوات ١٩٥٨–١٩٦٤ لان تعبير «المصلحة العامة» لم يعد مستعملاً الا في بعض قرارات المجلس الدستوري خلال السنوات ١٩٩٤–٢٠١٩، ما حمل الوزير والنائب سابقًا بطرس حرب على اعلان «موت العام»[٥٤]. وتعبير جمهورية république مشتق من res publica أي الشأن العام.

٨٢. الحاجة اليوم أيضًا هي الى بناء نظرية **الحوكمة الشهابية** السباقة والريادية خلال ١٩٥٨–١٩٦٤. فالبحوث المقارنة العالمية حول الأنظمة البرلمانية التعددية (سويسرا، بلجيكا، البلاد المنخفضة، النمسا، جزر فيدجي، جزيرة موريس، ايرلندا الشمالية، زمبابوي، افريقيا الجنوبية، الهند، وبخاصة لبنان...) عرفت تطورًا منذ سبعينات القرن الماضي. لم يتابع الدستوريون هذه الأبحاث وظلوا في اطر فكرية غالبًا كسولة ومغتربة ويعقوبية.

٨٣. من خبرتي طيلة في نصف قرن في التعليم: لم يهتم أي طالب بقراءة مذكرات رؤساء الجمهورية ورؤساء الحكومات في سياق الحوكمة الدستورية العملانية ، وبدون وعود اصلاحية وهمية وشعبوية ومخادعة كما يحصل منذ ٢٠١٦. كتب إيليا حريق سنة ١٩٧٢ كتاب: **من يحكم لبنان؟**[٥٥]. ننتقل الى اشكالية: **كيف** نحكم لبنان اليوم وغدًا؟ درس مُحتلون وعملاء كيفية **التحكّم** بلبنان! كيف تكون الحوكمة الدستورية الرشيدة للبنان في بنياننا الدستوري وتكويننا؟ هو هذا ما نسعى اليه.

٥٣) Exhortation apostolique post-synodale: *Une espérance nouvelle pour le Liban*, Libreria Editrice Vaticana, Vatican, 10/5/1997.

٥٤) بطرس حرب، «موت العام وانتصار الخاص»، **النهار**، ٢٠١٩/٨/٥ و«شعارات براقة يفضحها الواقع الأليم»، **النهار**، ٢٠٢٠/٤/٢٨، و«عودوا الى الولاء للبنان والى ضميركم واستقيلوا»، **النهار**، ٢٠٢١/٨/١٤.
داوود الصايغ، «زمن خلع الأبواب المقفلة»، **النهار**، ٢٠٢١/٨/١٧.

٥٥) إيليا حريق، **من يحكم لبنان**، دار النهار، ١٩٧٢، ١٥٣ ص.

٨. أوهام السلم الأهلي والعيش المشترك... بدون دولة!

٨٤. تنحو مؤسسات وجمعيات عاملة في سبيل السلم الأهلي والعيش المشترك والذاكرة، بخاصة في لبنان، الى اعتماد مقاربات ان السلم الأهلي ثمرة المعرفة المتبادلة وصورة الآخر والمصالح الحياتية المشتركة. هذا طبعًا المرتكز الانساني لكل أمة تجمعها قيم ومصالح مُشتركة. لكن هل يُمكن تجاهل بُعد الدولة في الصلة الاجتماعية؟ لا حاجة الى مزيد تحليل لاثبات استحالة حرب أهلية في كل عناصرها في لبنان، على الأقل بالنسبة للجيل الذي عاش الحروب. إنما يعيش اللبنانيون حالة «وقف نار» دائمة لا حالة «سلْم»! البُعد السياسي هو الذي يحمي ويضمن العيش معًا تجاه الاحتلالات والاختراقات الخارجية وتجاه المخادعة في الصراع على السلطة داخليًا.

قال الأخضر الابراهيمي للعراقيين في ٢٠٠٤/٢/١٤: «ان كان في العالم بلد لا يمكن تخيّل وقوع حرب أهلية فيه، فهو لبنان...». أراد بذلك دعوة العراقيين الى تجنّب «اللبننة» بالمعنى السلبي، أي الوقوع في صراعات داخلية تطول وتتداخل فيها أوضاع اقليمية ودولية. عندما تنهار الدولة في قوتها الشرعية (الجيش) تنشأ في المجتمع دفاعات ذاتية تحتاج الى مال وأسلحة من الخارج، إنما برغم وطنيّتها وبالرغم منها تصبح تابعة ورهينة لأسياد خارجيين.

ان تقاليد التسوية compromis، وحتى المساومة compromission هي راسخة لدى اللبنانيين، غالبًا على حساب الدولة والسيادة والمصلحة العامة والمال العام! يعيش اللبنانيون حالة «وقف نار» في «وطن الخطر الدائم» حسب تعبير غسان تويني في محاضرة له (١٩٩٩/٦/١). كتب Jonathan Randal بشأن لبنان: «**حرب الألف سنة: لغاية آخر مسيحي وآخر تاجر في لبنان**» (Grasset, 1983). وكتب Jean Quéméner بالفرنسية: «لبنان الحرب بلا نهاية» (Plon, 2017). والايديولوجيا الصهيونية تصف لبنان بـ«خطأ تاريخي وجغرافي»!

٨٥. خلال تبادل مع حقوقي بارز ومناضل في سبيل الديمقراطية والعيش معًا قلتُ له: «لا يجوز تجنّب تسمية الأمور باسمائها وتجنب القول ان لبنان وطن محتل بالوكالة أو مباشرة». أجابني: «هل تريد عودتنا الى السلاح؟» أجبت: «نعم، سلاح الموقف»!

٨٦. تمارس الابتزازَ جهاتٌ حزبية متمرّسة على المخادعة imposture: الاستقرار الهش في لبنان او الحرب الاهلية! سيادة الدولة تحقق الاستقرار وانتظام العيش معًا. لا تموضع ولا مساومة وراء ستار «الخوف من الحرب

الاهلية»! وعندما تفقد الدولة صفتها كدولة تحتكر وحدها الصفات الملكية وأبرزها احتكار القوة المنظمة واحتكار العلاقات الدبلوماسية، لا يعود الوطن في حالة «سلم أهلي» بل «وقف نار»! السيادة بطبيعتها ثنائية dichotomique والجواب: نعم أو لا! لا حوار ولا سجالات ولا تسوية ولا مساومة ولا على مسافة واحدة من الجميع équidistance، ولا حوار وطني كرياضة موسمية لبنانية، ولا تموضع وتلوّن في السيادة! تتراكم في لبنان المساومات compromission في السيادة مع الوقت ثم تنفجر بعدئذ مُحمّلة بكل رواسب الماضي المتراكمة.

الدولة هي التي تُجسّد القانون mise en oeuvre du droit وهو ضمانة السلام الاجتماعي تجاه الاقطاعيات والقبائليات والمافيات والتحزبات. نشأت الدولة من منظور انتروبولوجيا التاريخ في مقاومتها السلطات النابذة centrifuges التي تتصارع للهيمنة أو للدفاع الذاتي تجاه اعتداءات داخلية أو خارجية.

٨٧. بدون مُثاقفة الدولة acculturation في كتابة تاريخ لبنان العلمية والواقعية، وبدون التربية على ادراك الدولة، يبقى كل تنظيم هشًا ومهددًا ومخترقًا، حتى اذا الشعب شديد الحرص على السلم الأهلي والتضامن والعيش معًا. الشعب المتضامن ينتظم في دولة! فالدولة في مجتمع تعددي هي المشترك التعاقدي، وليس فقط هيكل الدولة المؤسسة كما حصل سابقًا! الحاجة اليوم هي الى مثاقفة الدولة acculturation et inculturation في عمق ادراك اللبنانيين انطلاقًا من الخبرة والمعاناة المشتركة ومن خلال كتابة تاريخ اللبنانيين وتاريخية الدولة في لبنان، بمنهجية علمية وواقعية في آن، ومن خلال مختلف وسائل التنشئة وأبرزها التربية.

٨٨. الحوار الإسلامي-المسيحي، والبرامج الميدانية المستمرة منذ اكثر من قرن، والمؤسسات الجامعية والأهلية البحثية العاملة في مجال الحوار والعيش المشترك، وصلابة العلاقات الحياتية اليومية في المجتمع اللبناني، والمقاومة المدنية، واختراق المتاريس والمعابر خلال سنوات الحروب المتعددة الجنسيات في لبنان في السنوات ١٩٧٥–١٩٩٠...، جميعها وقائع تصب في وحدة لبنان التعددية واستحالة اعتماد بديل آخر او حتى الحُلم ببديل آخر. لكن لبنان، برغم تراثه المتراكم طيلة قرون، يعيش باستمرار حربًا أهلية او وقف اطلاق نار سلمي! وضمانة العيش المشترك، بدون انحرافها في اختزال ثقافوي culturaliste، تتطلب الثبات في ثقافة الحوار والتفاعل والمعرفة المتبادلة، كما تتطلب دولنة الثقافة السياسية اللبنانية وسياقًا تربويًا.

في الإعلان الرسمي للجنرال غورو في ١٩٢٠/٩/١ ورد حرفيًا: «اعلان **دولة** لبنان الكبير» مع نشْر قرارات تنظيمية للدولة. انه لمؤشر ثقافي مُعبِّر ان نذكر غالبًا «اعلان لبنان الكبير» مع اهمال الدولة. مفهوم الدولة غائب تمامًا، نعم: تمامًا، في كتب التاريخ المدرسية وحتى في كتب تاريخ متخصصة! ما الذي تغيّر بعد استقلال ١٩٤٣؟ لا ذكر لأي شيء في الكتب وحتى في مؤلفات مُتخصصة! الدولة غائبة، او بالأحرى مغيبّة، في بحوث جامعية! ويجري السجال حول الدولة «المدنية» والدولة «العلمانية»... ولكن اساسًا: أين الدولة؟

٨٩. رئيس تحرير «الاوريان-لوجور» إدوار صعب كتب افتتاحية استشرافية في ١٩٧٥/٣/١٢ قبل أيام من اندلاع الحروب المتعددة الجنسيات في لبنان سنة ١٩٧٥: «المطروح او عرضة للتساؤل: ليس لبنان ذا الهوية الثابتة بل الدولة كمؤسسة (...). هل ندرك ما سيحصل في لبنان في حال انعدام الدولة؟ (...) سنشاهد عناصر بلا انضباط او فلسطينيين بلا مسؤولية يترأسون، حسب اهوائهم، على مصير صيدا او ينشئون جمهورية شعبية (...). هذا هو جوهر القضية».

٩٠. ليس القانون مجرد وسيلة تنظيم وإدارة للنزاعات، بل هو التعبير عن عقد اجتماعي ضامنٍ العيشَ معًا بثباتٍ رغم تباينات ثقافية وحتى تباينات عميقة. وحالة سويسرا الأكثر تعبيرًا معياريًا وتربويًا ضامنًا لصلابة سويسرا وفي عمق ثقافة السويسريين.

الدولة عندنا مغيَّبة في البنية النفسية الجماعية اللبنانية لاسباب مُتعلقة بعلم النفس التاريخي psychologie historique. يتجاهل مؤرخون في لبنان وفي الدول العربية ان التاريخ اساسًا جدليةُ علاقة بين المجتمع والسلطة، تنبع عنها دولة مولجة بإصدار القانون وتطبيقه. كل تاريخ القانون هو عمقيًّا تاريخ الدولة.

٩١. تاريخ لبنان بالغ الغنى لاستخلاص مسار الدولة منذ المماليك حتى استقلال ١٩٤٣ فاليوم. لا يميّز مؤرخون بين استقلال indépendance وإدارة ذاتية autonomie في جبل لبنان! يصف بعضهم عهود فخر الدين وبشير الثاني... بـ«بالمملكة» règne فيما المجال الجغرافي خاضع للسلطة العثمانية! وفي دول عربية أخرى لا تمييز بين **الشريعة** ذات المصدر الديني **والتشريع** الذي هو بشريٌّ صرف ولو استمد مصادره من قيم دينية وفلسفية واخلاقية. لا مقاربة انتروبولوجية لمفهوم القانون والدولة الراعية للقانون وتطبيقه. وفي برامج التاريخ الجديدة للتعليم قبل الجامعي (أُعِدَّت ضمن خطة النهوض التربوي وكنت عضوًا في لجنتها

بين ١٩٩٦ و٢٠٠٢) ورَدَ بوضوح ان التاريخ في جوهره جدليةُ علاقة بين مجتمع وسلطة.

٩. الشمولية والاندماج في التأريخ لدولة لبنان الكبير

٩٢. في الإدراك اللبناني دولة لبنان الكبير ١٩٢٠ تكمن معضلات الكيان والانتماء والولاء والعيش معًا والمواطنية والشأن العام والتنمية المتوازنة ولبنان الدور والرسالة. والجواب ليس في علم التاريخ التقليدي بل في علم النفس التاريخي، أي الادراكات والمشاعر ومكبوتات تطفو على السطح خلال الأزمات في لبنان ولدى استغلال الغرائز في التعبئة السياسية النزاعية.

لم يُكتب حتى اليوم تاريخ كل لبنان في جغرافيا الـ١٠٤٥٢ كم٢، بخاصة من منطلقين:

أ. العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والإنسانية عامة عبر العصور بين المقاطعات اللبنانية.

ب. مطالبة مختلف المقاطعات بحدود لبنان «الطبيعية».

لم يُكتب تاريخ كل لبنان بشمولية واندماج histoire intégrale et intégrée في سبيل الادراك الجماعي لكل تاريخ لبنان في كل جغرافياه الحالية. من هنا أن لدى اللبنانيين ثلاث صور نمطية حول دولة لبنان الكبير وصورة واحدة واقعية تاريخية في انسجام مع الدراسات التاريخية والدستورية المقارنة ومع الميثاق اللبناني والدستور.

أ. الصورة النمطية الأولى تكرّرها كتب مدرسية رائجة ويكّررها المعلّم مع إسقاطها غير المعلن في الحاضر: «هنيئًا لمن له مرقد عنزة في جبل لبنان»! كانت مقاطعة جبل لبنان خاضعة للحكم العثماني وتتمتع بإدارة ذاتية حصرية autonomie administrative في بعض الشؤون، وتدفع الضرائب الى السلطة العثمانية ويهجُر أبناؤها بسبب الفقر. تكتسب هذه الصورة النمطية أقصى أبعادها حول مقاطعة جبل لبنان في التكرار: «استقلال لبنان مدى العصور»!

ب. الصورة النمطية الثانية تتجلى في تأْريخ إيديولوجي يفتقر الى التجدُّد والأصالة ويتلّخص في إدراك ان «المسيحيين كانوا يريدون لبنان الكبير وكان المسلمون رافضين لبنان الكبير»! فهل لبنان الكبير انجاز طائفة أم انجاز جامع؟ يبيّن البحث الوثائقي المعمّق والمجدّد كثافة العرائض من كل المقاطعات اللبنانية، من بيروت

والبقاع والشمال والجنوب مع مئات التواقيع للمطالبة بدولة لبنان الكبير لأسباب تفصيلية واردة بواقعية وقناعة في كل العرائض. ومن سلبيات هذه الصورة النمطية ان لبنان الكبير كان ثمرة مطالبة طائفة، وتاليًا يستمر الحُلم في ذاكرة لبنانية مُشوهة بـ«لبنان صغير»، كما ظهر مع أوائل ١٩٧٥ في سلسلة كراسات حول «القضية لبنانية»، بينها كراس صادر عن مؤسسة عريقة وبدون توقيع أعدَّه أحد كبار العلماء والمثقفين «اللبنانيين» (لن أذكر اسمه). والكراس بعنوان: «لبنان الكبير مأساة نصف قرن»![٥٦]. إن هذه المقاربة المتناقضة الإسلامية-المسيحية تتجاهل علم النفس الذهنيات. من الطبيعي في علم النفس، بعد أربعة قرون من الحكم العثماني، تردُّدُ لبنانيين حول أيِّ خيار وطني تأسيسي. هل يتهم أحدهم زوجه بعد زواج أكثر من نصف قرن ببعض التردد قبل القرار؟ وهل اللبنانيون في ذهنياتهم سنة ١٩٢٠ هم اللبنانيون سنة ٢٠٢١؟

ج. الصورة النمطية الثالثة الراسخة في علم النفس التاريخي: مناطق «أُلصِقت بلبنان» سنة ١٩٢٠، و«لبنان الكبير» والتقسيمات الحاصلة هي ثمرة مؤامرات استعمارية وترسيم خرائط في اطار معاهدة سايكس-بيكو. لا يلصق شيء بشيء في استنسابية مطلقة، بل وفْق معطيات دبلوماسية وجغرافية واقتصادية واجتماعية وثقافية.

٩٣. منذ سبعينات القرن الماضي في لبنان، ومع مؤرخين رياديين، صدرت بحوث حول تاريخ المقاطعات اللبنانية وتاريخ القرى والطوائف، كانت غالبًا ردة فعل ضد اقتصار «تاريخ لبنان» على تاريخ جزء من مقاطعة جبل لبنان. لم نستخلص لغاية اليوم، من التواريخ المناطقية، الوقائع والأحداث والمعطيات حول العلاقات الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية بين المقاطعات اللبنانية كي تظهر وحدة لبنان لا مجرد شعار بل وحدة مصالح حياتية مشتركة عبر كل التاريخ ومنذ الفينيقيين.

٩٤. لإثبات ان وحدة لبنان غالبًا «شعار» لا حالة راسخة في الادراك الجماعي، نتذكر ما كان يقوله خلال ١٩٧٥–١٩٩٠ لبنانيون في احدى مناطق بيروت حول الحالة العامة في لبنان. يقولون: «رايقة» في حين

---

٥٦) **لبنان الكبير مأساة نصف قرن**، سلسلة «القضية اللبنانية»، بيروت، ٢١ كتيب، رقم ١، طبعة ثانية، ١٩٧٦، ٣٠ ص.
حول علم النفس التاريخي وعلم النفس العيادي وتأثيرهما على السلوك اللبناني.

يحدث في منطقة أخرى من بيروت قصف أو ان الجنوب في حالة حرب. «الحالة رايقة»! وهذا يبيّن ان الادراك النفسي لكل مساحة لبنان إدراك مُجَزَّأ perception géographique segmentée، فلا ينظر اللبناني الى كل لبنان بل إلى جزء منه. الحمدلله ان لبنان صغير المساحة وان علاقات القرابة والتواصل بين اللبنانيين والسياحة الداخلية بين مختلف المناطق تصحّح الادراك الجغرافي المجَزَّأ. فاللبنانيون، بالخبرة والمعاناة، اكتسبوا الادراك الواقعي ان لبنان لن يكون معافًى اذا كان الجنوب مُحتلاً، أو اذا كانت تعاني طرابلس من بقع إرهابية، واذا كانت احدى المناطق في قبضة قوى مسلحة غير شرعية. لذلك: لن يترسخ في الجيل الجديد ادراكُه النفسي لكل مساحة لبنان الاَّ بكتابة تاريخ كل لبنان في كل جغرافياه، وبخاصة تاريخ اللبنانيين في علاقاتهم المتبادلة عبر التاريخ وعبر شرح تأثير كل حدث، مهما كان بسيطًا، على المناطق الأخرى. فأحداث فتنة ١٨٤٠–١٨٦٠، مثلاً، لم تقتصر على بعض مناطق جبل لبنان بل امتدت تأثيراتها على مقاطعات أخرى.

٩٥. يتم التركيز في التاريخ اللبناني على قسم من جبل لبنان، انطلاقًا من إيديولوجيا البناء القومي بالقوة وجهل سياق البناء القومي بالمواثيق في علم التاريخ المقارن والعلم الدستوري المقارن منذ سبعينات القرن الماضي[٥٧]. فما معنى «اعلان» دولة لبنان الكبير؟ انه «إعلان» وليس «انشاء» لبنان الـ ١٠،٤٥٢ كم٢ الممتد عبر العصور بعلاقات وتواصل وروابط وتكامل ومصالح اقتصادية واجتماعية وثقافية. حتى اليوم لم يتعمق في هذه العلاقات مؤرخون وباحثون مدخلاً لترسيخ الولاء والانتماء والأصالة والتضامن العابر للانتماءات الأولية دفاعًا عن الكيان والسيادة والاستقلال والمواطنية لبنانيًا في لبنان، كما هو جغرافيًا وسكانيًا. يقول الرئيس حسين الحسيني، ادراكًا منه تأصيل الثقافة اللبنانية: «ليس الوطن مجرد أرض بل علاقات بين اللبنانيين وبين اللبنانيين وهذه الأرض»[٥٨].

---

٥٧) Hans Daalder, «La formation des nations par consociatio: Le cas des pays-Bas et de la Suisse», in *L'édification nationale dans diverses régions, op.cit.*

وتعريب في كتاب: افلين أبو متري مسرّه، **البناء القومي بالمواثيق والأنظمة البرلمانية التعددية** (مجموعة نصوص)، المؤسسة اللبنانية للسلم الأهلي الدائم، سلسلة «وثائق»، رقم ٦٢، ٢٠١٦.

٥٨) في كتاب أنطوان مسرّه (اشراف)، **مواطن الغد: نماذج في الثقافة المدنية**، المؤسسة اللبنانية للسلم الأهلي الدائم، المكتبة الشرقية، ثلاثة أجزاء، جزء ١، ١٩٩٥، ص ١٩٩.

٩٦. الصورة الوحيدة الواقعية للبنان الكبير: يُدركها عمقيًّ ويُعمّمها باحثون ومفكّرون لبنانيون وجامعيون ميثاقيون libanologues في كتاباتهم وتعليمهم وعدم خجلهم من البنية الدستورية اللبنانية في ادارة الوحدة في التنوّع. قد يكون «بك» الهرمل و«شيخ الضيعة» أكثر حكمة في إدراك جوهر لبنان من حامل شهادات تُبعده عن المعرفة الواقعية والخبرة. إذا كان البعض غير مؤمن بهذا اللبنان الـ١٠،٤٥٢ كم٢ و«الوطن النهائي لجميع أبنائه» (حسب مقدمة الدستور وفي كل مكوّناته الجغرافية والديمغرافية والدينية) أو اذا كان غير موافق على قواعد دستورية تُحقق ضمان الحريات الدينية والثقافية والمشاركة الديمقراطية، فهذا يندرج في سياق حرية التعبير، ولكن لا يجوز رمي ذلك على ما يُسمى معضلة التأريخ في لبنان والخلاف حول هذا التأريخ.

٩٧. لا مُعضلة لبنانية في التأريخ وكتابته، علميًا وواقعيًا، بل المعضلة النفسية العميقة هي في الانتماء اللبناني والولاء واغتراب ثقافي aliénation وخجل لدى مُثقفين ومُؤرخين مُتأثرين بالنمط القسري في البناء القومي. الواقعية العلمية تُحتّم دولة لبنان الكبير في كل مكوّناته الجغرافية والبشرية والدينية والمذهبية، والخبرة التاريخية تُثبت عدم توفر بديل آخر، إذا توفر ففي مغامرات وحروب قد لا تنتهي، ونتائج غير مضمونة، وبكلفة عالية وغير متناسبة مع ضخامة الكلفة. إن «لبنان الكبير» بناء قومي تعاقدي nation contractuelle على نمط الديمقراطيات الأوروبية الصغرى (سويسرا وبلجيكا والنمسا والبلاد المنخفضة وبلدان أخرى كجزر فيدجي وجزيرة موريس والهند وايرلندا الشمالية). معالجة

يراجع أيضًا: **خطة النهوض التربويّ: مناهج التعليم العامّ وأهدافها**، المرسوم رقم ١٠٢٢٧ تاريخ ١٩٩٧/٥/٨، بيروت، مطبعة صادر، ١٩٩٧، ٨٣٢ ص.

تحديد أهداف ومناهج مادّة التاريخ في مراحل التعليم العامّ ما قبل الجامعيّ، مرسوم رقم ٣١٧٥ تاريخ ٢٠٠٠/٦/٨، **الجريدة الرسمية**، عدد ٢٧ تاريخ ٢٠٠٠/٦/٢٢، ص ٢١١٤–٢١٩٥.

أنطوان مسرّه، **الثقافة المواطنية في المجتمع التعدديّ** (لبنان من منظور مقارن)، بيروت، منشورات جمعية «تصالح»، المكتبة الشرقية، ٢٠١٩، ٧٦٨ ص.

Antoine Messarra (dir.), *La gestion démocratique du pluralisme religieux et culturel* (Le Liban en perspective arabe et comparée), Préface par Prof. Salim Daccache, s.j., recteur de l'USJ, Chaire Unesco d'étude comparée des religions, de la médiation et du dialogue à l'Université Saint-Joseph, Beyrouth, Presse de l'Université Saint-Joseph, 2019, 504 p. en français et en anglais, et 288 p. en arabe.

Hyam Mallat, *Emergence de la liberté et de la démocratie au Proche-Orient*, Paris, Geuthner, 2014.

__, *L'Académie française et le Liban*, Beyrouth, éd. an-Nahar, 2002.

المعضلة قد تكون بفضل قوة مركزية أكثر فعالية. كلمة «الحل» امتزجت بمفهوم «الحل النهائي» على الطريقة النازية. وهذا «الحل» الموصوف بـ«النهائي» لم يكن نهائيًا لأنه أورثنا القومية الصهيونية.

٩٨. درج حتى اليوم إخفاء مواقف مشروعة تجاه البنية الميثاقية والدستورية اللبنانية في سياق ممارسة حرية التعبير، خلف ستار خلاف على التاريخ اللبناني! التاريخ اللبناني في كل واقعيته وشمولية وواقعيته ومعاناته وانجازاته عبر التاريخ هو واقع لبنان الكبير وكلفة ومعاناة ومغامرات وأحلام لبنان آخر ولبنان أصغر ولبنان أكبر. والواقعية الامبريقية هي المنهج العلمي في شموليتها لا في جزئياتها. ولا تقتصر العلمية على مرحلة. ليس التاريخ علم الماضي بل علم الانسان في الزمن الطويل. نطرح السؤال على مدّعي تأريخ علمي وعلى معلمي التاريخ في المدارس: ما المرجعية العلمية والتاريخية لطرح شؤون تأسيسية في بناء الأوطان؟ من البديهي أن تكون المرجعية منهجية التأريخ العلمي لكن المرجعية أيضًا هي الدستور، وفي المادة الأولى منه حدود لبنان الكبير بالتفصيل. ان التأريخ تحت ستار العلمية التاريخية الذي يُغرق بديهيات في مواقف وسجالات ونقلها في مؤلفات وفي التعليم هو خرق للدستور، بخاصة ان المبادئ الدستورية في لبنان منذ ١٩٢٠ ليست ثمرة سلطة قمعية بل ثمرة مجالس نيابية وانتخابات تشريعية ووفاق لبناني.

٩٩. ماذا نحترم في لبنان؟ يرد في مبدإٍ روماني: Pacta sunt servanda لا بأس بمخالفة هذه المبادئ استنادًا الى حرية التعبير وحرية البحث، ولكن بدون تستّر، مع الإقرار بأن «مواقفَ» من هذا النوع تخالف الدستور وتوجب ضرورة القيام بثورة عنفية أو سلمية لتعديل مواد تأسيسية! فهل لدى اللبنانيين الجرأة العلمية الكافية وعدم الخوف من مواجهة مَن يتستر خلف علمية تاريخية للتعبير عن مواقف أو مكبوتات نفسية؟

١٠٠. لا غرابة في ممارسات سائدة ومعمّمة لبنانيًا في خرق الدستور منبعُها في اللاوعي والغرائز والمكبوتات وعدم الايمان بلبنان الكيان والوطن والبنية تحت ستار علماوية تاريخية. لكل باحثٍ الحق المطلق في عدم الايمان بـ«هذا اللبنان» الذي بناه رواد منذ دولة لبنان الكبير ١٩٢٠: البطريرك الحويك، كاظم الصلح، ميشال شيحا، توفيق أرسلان، رياض الصلح، بشاره الخوري، عبد الحميد كرامي، مجيد أرسلان، صائب سلام، كمال جنبلاط... المطلوب مستقبلاً التمييز بين البحث القانوني والدستوري المشروع في إدارة التنوّع وعدم إدراج هذا النوع من البحث وإسقاطه على التأريخ اللبناني، بخاصة في مراحل التعليم ما قبل

الجامعية، في شمولية كل واقعيته الحياتية المعاشة وجغرافيته الشاملة. انه السياق العلمي في التأريخ الزمني والجغرافي الواقعي.

١٠١. معضلات لبنان حول الكيان والولاء والعيش معًا والمواطنية، نابعة من عدم الجديّة على مستوى الذهنيات والذاكرة الجماعية والادراكات وفي علم النفس تاريخي، في تعامل اللبنانيين مع دولة لبنان الكبير. ثلاثة سلوكيات تُظهر عدم الجديّة في الإدراك النفسي كاملَ جغرافيا لبنان.

أ. أطلق الرئيس بشير الجميل شعار **لبنان الـ ١٠،٤٥٢ كم**٢ ثمرة اختبار ومعاناة وحكمة وانهيار احلام مستحيلة فكان ذلك مفاجأة لدى اللبنانيين في حين يقتضي اعتبار ذلك من البديهيات.

ب. تظهر من حين الى آخر أحلام **الفدرالية الجغرافية** احتمالات مُمكنًا، بينما تخمة المتاريس والمعابر خلال ١٩٧٥–١٩٩٠ وتقسيمات الأمر الواقع لم تحقّق الحد الأدنى من الأمان للمواطنين ولم تحسم معضلة علاقات لبنان مع جواره.

ج. كلما طُرح موضوع **اللامركزية** في لبنان انسجامًا مع وثيقة الوفاق الوطني/الطائف (طبيعتُها لامركزية إدارية) يرى باحثون جدّيون ضرورة التحديد أنها «لامركزية إدارية غير سياسية» خوفًا من تحوّلها الى فدرالية جغرافية مقنّعة أو الى تقسيم.

١٠٢. نستمر في كتابة مرحلة اعلان دولة لبنان الكبير بدون موضعتها في مكانها وزمانها وتاريخ الذهنيات histoire des mentalités خلال هذه الأزمنة، فنتلقاها كأنها تكرارُ مشاكل الحاضر! إن التاريخ الذي يكتبه لبنانيون خصوصًا وعرب عمومًا، ليس تاريخًا يُحرّر من آلية التكرار histoire libératrice. وهذا من أسباب التخلف العربي أن التاريخ يعيد نفسه فيما التاريخ لا يعيد نفسه إلا لدى شعوب متخلّفة لا تتعلم «من» التاريخ بل دائمًا «في» التاريخ. ولا يتكرر في الحاضر والمستقبل أي حدث من الماضي، لا في نفس الزمان والمكان والأشخاص والأوضاع والذهنيات. الماضي هو من الماضي وتستحيل علميًا قراءة حدثٍ من الماضي في الحاضر إلا في حال تجاهل مؤرخون علم النفس التاريخي باعتبارهم التاريخ آلية تكرارية فيتحوّل علم التاريخ استعبادًا لا وسيلة تحرّر.

١٠٣. من مشاكل لبنان في مؤسساته وفي الذهنية السائدة اننا لم نأخذ دولة لبنان الكبير بجدّية! Prendre le Grand Liban au sérieux!، ما كان له تأثير على سلوك الطوائف والعلاقة بين اللبنانيين. بعد لبنان الكبير ليس من «طائفة أساسية» وطائفة غير أساسية في دولة لبنان

الكبير بل «وطن نهائي لجميع أبنائه» (مقدمة الدستور). ورد في المادة ١ من الدستور اللبناني تفصيلٌ لا مثيل له في دساتير أخرى حول حدود دولة لبنان «الكبير»: القرار رقم ٣١٨ تاريخ ٣٠ حزيران ١٩٢١ ومع بعض التعديل في التسميات:

المادة الأولى المعدَّلة بالقانون الدستوري في ١٩٤٣/١١/٩: لبنان دولة مستقلة ذات وحدة لا تتجزأ وسيادة تامة. اما حدوده فهي التي تحدّه حاليًا: **شمالاً:** من مصب النهر الكبير على خط يرافق مجرى النهر الى نقطة اجتماعه «بوادي خالد» الصاب فيه على علو «جسر القمر»، **شرقًا:** خط القمة الفاصل بين وادي خالد ووادي نهر العاصي (أورونت) مارًّا بقرى معيصرة، حربعاة، هيت-ابش-فيصان على علو قريتي بريفا ومطربا وهذا الخط تابع حدود قضاء بعلبك الشمالية من الجهة الشمالية الشرقية والجهة الجنوبية الشرقية ثم حدود اقضية بعلبك والبقاع وحاصبيا وراشيا الشرقية. **جنوبًا:** حدود قضائي صور ومرجعيون الجنوبية الحالية. **وغربًا:** البحر المتوسط.

المادة ١ القديمة: لبنان الكبير دولة مستقلة ذات وحدة لا تتجزأ اما حدوده فهي المعترف له بها رسميًا من حكومة الجمهورية الفرنسوية المنتدبة ومن لدن جمعية الأمم وهي التي تحده حاليًا.

١٠٤. هذه المادة أثارت نقاشًا في المجلس النيابي عند بحثها في جلسة ٨ تشرين الثاني ١٩٤٣. الغاية من التفصيل هو «درس جغرافي» حسب تعبير سعدي المنلا:

سعدي المنلا: في رأيي ان يذكر لبنان بحدوده الحاضرة. لسنا أمام درس جغرافي ولم يرد مثل هذا التحديد المفصل في دساتير الأمم.

حميد فرنجية: تحديد لبنان على هذا الشكل معناه، تجاه الخارج وتجاه من اتفقنا معهم ومن يمكن أن نتفق معهم، أننا نريد ضبط هذه الحدود[٥٩].

١٠٥. خلافًا لهذه المادة تعلّم كتب التاريخ المدرسية اللبنانية تاريخ جزء من مقاطعة واحدة من المقاطعات: مقاطعة جبل لبنان كانت محورًا ومركزًا في فترات طويلة. البلدان تنطلق من الجغرافيا الحالية لتعليم المواطنين تاريخ هذه الجغرافيا وإلاَّ تعلَّم المواطنون في أي بلد تواريخَ مجزَّأةً لجغرافيات مجزأة. وطالما أبناء الجنوب والشمال والبقاع وبيروت وسائر بلدات لبنان يجهلون تاريخ هذه المناطق وتطوّر ارتباطها المعيشي

٥٩) أحمد زين (اعداد)، **محاضر مناقشات الدستور اللبناني وتعديلاته، ١٩٢٦–١٩٩٠**، بيروت، مجلس النواب، المديرية العامة للدراسات والأبحاث، ١٩٩٣، ص ٥٢٦ و٢٤٢.

والسياسي والاقتصادي بجبل لبنان وبمختلف المقاطعات اللبنانية، فهذا يخلق شعورًا بالغربة عن تاريخ لبنان. إنّ حصر تاريخ لبنان في جزء منه لا يُولّد إدراكًا بالانتماء الى لبنان الكل وبالتضامن بين المناطق، أي ادراكًا نفسيًا لكل مساحة لبنان. من هنا كاريكاتور بيار صادق: «شو هالبلد اللي عمرو آلاف السنين وبيضل كل عمرو بالمرحلة التأسيسية»[٦٠].

١٠٦. كيف نكون جدّيين في التعامل مع دولة لبنان الكبير؟ في دولة لبنان الكبير جميعُنا مُتساوون وليس من طائفة أساسية وطوائف غير أساسية، ولا «انصهار» (أي بالحديد والنار)، بل مواطنية في مجتمع متعدد، مواطنية عابرةٌ الانتماءات الأولية، وليس من موقع سياسي أفضلي ولو رمزيًا لأي طائفة كما كانت أوهام سائدة في مقاطعة من لبنان. ورد في اعلان الجنرال غورو في ١٩٢٠/٩/١ يتم تجاهله: «لبنان الكبير هو لصالح الجميع» «Le Grand-Liban est fait au profit de tous».

١٠٧. المواقع العليا في الحكْم، في دستوريتها ورمزيتها، تُمثّل جميع اللبنانيين لا طائفة «أساسية». يوجب لبنان الكبير العدول عن حلمين مستحيلين: الحلم المستحيل في «الانصهار»، وحلم الوحدة الأحادية. وتبقى الوحدة في التنوّع حسب المعايير الدستورية المقارنة والدراسات الدستورية والإنسانية منذ سبعينات القرن الماضي.

١٠٨. كيف نحتفل بمئوية دولة لبنان الكبير ١٩٢٠؟ إن كان بالمجاملة والتمجيد وسجال تاريخي تقليدي نزاعي وعقيم، يعني أننا لم نتعلم، وأننا نكتب التاريخ وندرّسه كأنه علم فيزياء وأنه علم الماضي. ليس التاريخ علم الماضي بل علم الانسان في الزمن الطويل. وأول منطلق في سبيل تأريخ شمولي واندماجي للبنان histoire intégrale et intégrée هو في كتاب جماعي أشرف عليه بطرس ديب، نُشِرَت منه بعد وفاته نصوص التي تولى هو كتابتها، إنما بدون التركيز على منطلقين:

أ. مطالبة جميع المقاطعات بلبنان الكبير.

ب. العلاقات بين المقاطعات عبر العصور وحكَّام هذه المقاطعات على نمط كتابة تاريخ سويسرا التي كانت أساسًا مؤلفة من ثلاثة كُنتونات. يكتب بطرس ديب في تقديم للكتاب:

« Une histoire du Liban, pourquoi? Les ouvrages qui traitent de la question ne manquent pas, à commencer par les manuels scolaires (...). Mais, pour des raisons diverses, elles ne l'ont pas envisagé dans son intégralité (...). A cet effet, nous avons

٦٠) بيار صادق، **النهار**، ٢٠١٠/٤/٧.

remonté les siècles, écoutant les millénaires le long desquels s'est déroulée l'épopée de l'existence libanaise (...). Quelles qu'aient été, au cours des longs siècles, les vicissitudes de la politique et les armes, jamais elles n'ont entraîné une rupture totale entre le Mont-Liban et les régions environnante. La symbiose du refuge et de l'ouverture a été permanente.»

يذكر بطرس ديب «لبنان القانوني» «Liban légal» ما يعني ضرورة انسجام التأريخ (بخاصة في التعليم قبل الجامعي) مع المبادئ الدستورية. تاليًا: كتابة تاريخ كل لبنان، أي لبنان الكبير بشمولية واندماج، تتطلب العودة إلى المؤلفات التاريخية المناطقية وتاريخ الطوائف، وهي كثيرة نمت بشكل بارز منذ ستينات القرن الماضي، واستخراج ما فيها من تفاصيل ولو بدت بسيطة، أبرزها العلاقات بين كل مقاطعات لبنان عبر العصور وتأثير ما يحصل في مقاطعة على مقاطعات أخرى وحكام مختلف المقاطعات والعلاقات بينهم، ثم المطالبات بعرائض ووفود حول استعادة «حدود لبنان الطبيعية».

هل من العلمية كتابة أي تاريخ مع تجاهل جغرافيا هذا التاريخ؟ إنه هذا المسار السائد لغاية اليوم في كتابة تاريخ لبنان في بحوث تاريخية وفي كتب التاريخ المدرسية![٦١]

١٠٩. تتوفر رؤية علمية متكاملة وتطبيقية لبناء ذاكرة لبنانية جماعية مُشتركة في خطة النهوض التربوي (١٩٩٤–١٩٩٩) بإدارة البروفسور منير أبو عسلي، خصوصًا في برامج «التاريخ قبل الجامعي»، وهي صدرت بإجماع مجلس الوزراء ودعم جميع المؤسسات التعليمية بموجب المرسوم رقم ٣١٧٥ تاريخ ٢٠٠٢/٦/٨ (الجريدة الرسمية، العدد ٢٧ تاريخ ٢٠٠٠/٦/٢٢، ص ٢١١٤–٢١٩٥) وكنت عضوًا في اللجنة التأسيسية. ورغم المساعي تعطَّل المسار بقرار وزير التربية في عهد الاحتلال لان هذا المسار يؤسس لجيل جديد يتمتع بروح استقلالية ومناعة تجاه آليات التكرار.

وتعاوُنًا بين «كرسي اليونسكو لدراسة الأديان المقارنة والوساطة والحوار» (جامعة القديس يوسف) ومؤسسة «أديان» وجمعية «تَصالُح»، تم إعداد كتاب وثائقي لأهداف تربوية عنوانه «تاريخ اللبنانيين بالوثائق والصور» تركيزًا على المحطات الرئيسية التأسيسية: الميثاق، دولة لبنان الكبير ١٩٢٠، الاستقلال، الذاكرة المدنية للحروب في لبنان في ١٩٧٥–

٦١) Boutros Dib (dir.), *Histoire du Liban des origines au XX^e siècle*, Philippe Rey, 2006, 1008 p., pp. 11–20.

١٩٩٠، تاريخ الحريات، النشيد الوطني...، وفي الكتاب ملفات تربوية تطبيقية اختبارية لعمل ثقافي وتربوي وبناء الذاكرة الجماعية المشتركة للجيل الجديد[٦٢].

---

٦٢) وثيقتان في إطار برنامج جمعية «تصالح»، نسخ محدودة: أنطوان مسرّه ومؤسسة أديان (اشراف)، **تاريخ اللبنانيين للمستقبل بالوثائق والصور** (محطات رئيسة تأسيسية: الميثاق الوطني، الذاكرة المدنيّة للحروب في لبنان ١٩٧٥-١٩٩٠، دولة لبنان الكبير، الاستقلال، النشيد الوطنيّ، الحريّات)، إعداد كرسيّ اليونسكو لدراسة الأديان المقارنة والوساطة والحوار في جامعة القديس يوسف ومؤسسة أديان، ٢٠١٧، رقم ١١٠، ٧٢٤ ص، و٦ ملفّات مقتطفات لأعمال تربويّة.

أنطوان مسرّه (تنسيق)، **طريق الشام في بيروت مساحة تواصل** (مصالحتنا للمستقبل مع التاريخ... والجغرافيا. من بيت الى بيت: من المتحف الوطنيّ إلى بيت بيروت)، مجموعة وثائق مساعدة حول الذاكرة المدنيّة للحروب في لبنان ١٩٧٥-١٩٩٠ لبرنامج «تصالح» Gladic، رقم ١١٢، ٢٠١٩، ١٦٥ ص.

كنموذج في تأريخ شمولي واندماجي في سويسرا:

G. A. Chevallaz, *Histoire générale de 1789 à nos jours, op. cit.* et Henri Grandjean et Henri Jeanrenaud, *op. cit.*

سناء وزني، **تعليم تاريخ لبنان الكبير**، رسالة ماستر في العلاقات المسيحية والإسلامية، اشراف أنطوان مسرّه، جامعة القديس يوسف، ٢٠٢٠، ٩٠ ص.

يراجع أيضًا: وثيقة عصام خليفة بمناسبة المهرجان الـ٣٩ للحركة الثقافية انطلياس في ٥–٢٠٢٠/٣/١٥، ٤ ص.

ميشال مراد (إدارة)، **لبنان الكبير في مئويته الأولى**، جامعة سيدة اللويزه، ٢٠٢٠، ٢٦٢ ص، ومقالنا، ص ٩١–١١٦.

Le Patriarche Elias Hoyek, L'Université Saint-Joseph et la Compagnie de Jésus (Une page inédite de l'Histoire du Liban), Préface de Salim Daccache, s.j., 2020, 36 p.

Dominique Chevallier, «Comment l'Etat a-t-il été compris au Liban?», *op. cit.*, pp. 210–223.

Fadia Kiwan, «La perception du Grand-Liban chez les maronites dans la période du mandat», *ap.,* Nadim Shehadi and Dana Haffar Mills (ed.), *Lebanon: a history of Conflict and Consensus, op. cit* 124–148.

Gérard Khoury, *Mémoire de l'aube*, Paris, 1987.

حول النصوص التي رافقت اعلان دولة لبنان الكبير:

Antoine Hokayem, Marie-Claude Bitar, *L'Empire ottoman, les Arabes et les grandes puissances, 1914–1920*, Beyrouth, 1981, pp. 354–367.

Un siècle du Grand Liban, no spécial de *Travaux et jours*, Printemps 2020, no 96, 136 p.

حول المقاطعات اللبنانية:

رياض غنام، **المقاطعات اللبنانية في ظل الحكم المصري**، ١٨٣٢–١٨٤٠، بيروت، الدار التقدمية، ١٩٨٨، ٣١٢ ص.

___، **المقاطعات اللبنانية في ظل حكم الأمير بشير الشهابي الثاني ونظام القائمقاميتين** ١٧٨٨–١٨٦١، بيروت، بيسان، ١٩٩٨، ٥٧٦ ص.

١. من العائلة الى... العلاقة بالدولة – الدولة تبدأ... في العائلة

١١٠. في السنة الجامعية ٢٠١٢-٢٠١٣، قام بإشرافي طلاَّبُ قسم «الماستر في السلام والتنمية» (جامعة الروح القدس – الكسليك) تعاوُنًا مع الجامعة اللبنانية وجامعة لاسابينزا La Sapienza (روما) وضمن مادة «انتروبولوجيا مجتمعات الشرق الاوسط» فرصدوا مشاهدات ميدانية حول ممارسة السلطة في العائلة اللبنانية. كيف اللبنانيون – في الحياة اليومية وفي العلاقات العائلية وهي المصدر الاولي للتنشئة – يتعاملون مع سلطة autorité تتطلب خضوعًا لمنظومة قواعد وليس الانسياق في علاقات نفوذ.

١١١. من رصد تلك المشاهدات وتأثيراتها المدرسية وفي الحياة العامة، تُستخلص أربعة انماط:

أ. **التحايل والابتزاز:** الأم في العائلات البطريركية تحرّض الاولاد على الوالد تحت ستار الحنان والتفهّم. فيتخذ الاب (تجنبًا للمواجهة) مسافة من الخلاف في حين يسعى الاولاد للاستفادة من التباينات. والأم التي تحمل في اللاوعي ممارسات في تربيتها العائلية، تدافع دائمًا عن ابنتها تجاه أيّ ملاحظة بديهية من الاب. والابنة التي تحظى دومًا بتأييد الوالدة تحمل الوالد على الصمت او الاستقالة **(كريستال برباري)**.

في حالات أُخرى يُخضِع الطفل والديه بممارسته الفجور. تتدخل كل العائلة لتهدئة الطفل وتجنب انهياره المصطنع او غشيانه المفتعل. ولا يمر وقت حتى يكتسب الطفل تجاه والديه سلطة شاملة ويصبح الحاكمَ الفعلي **(سلمى شلبي)**.

بنشر علم نفسي سطحي تنتشر ليبرالية موحشة بين عامة الناس. تخشى العائلة أحداث عقَد نفسية لدى الطفل الذي يتم التصرف معه وهو

___، **مقاطعات جبل لبنان في القرن التاسع عشر** (دراسة وثائقية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي)، بيروت، بيسان، ٢٠٠٠، ٤٦٨ ص.

___، **سعيد بك جنبلاط**، ١٨١٣–١٨٦١، بيروت، دار معن، ٢٠١٥، ٣٥٢ ص.

___، (مع محمد خليل باشا)، **السجل الارسلاني**، بيروت، نوفل، ١٩٩٩، ٢٩٢ ص.

مسعود ضاهر، «أضواء على جغرافية التطور التاريخي للمقاطعات اللبنانية»، مجلة كلية التربية، الجامعة اللبنانية، **دراسات**، العدد الأول، ١٩٧٥.

زين نور الدين، **الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان**، الطبعة الثانية، دار النهار، ١٩٧٧.

اللايدي سبيرز، **قصة الاستقلال في سوريا ولبنان**، نقله الى العربية منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٤٧.

في الخامسة من العمر كأنه أصبح راشدًا. يُفيد الطفل من ذلك صراخًا وبكاءً وإهانةً زوار المنزل (**ماري كلير مبارك**). تقول ابنة عمرها ١٤ سنة بغطرسة لوالدها قبل خروجها ليلاً من المنزل: «لا أطلب منك إذنًا، أنا أعْلِمُك فقط!» (**نسرين فغالي**).

ب. **العنف:** في حالة معينة لا حاجة الى التحايل على السلطة، اذ تُمارَس السلطة مباشَرة. يضرب شاب خطيبته امام والديها الطاعنين في السن (**كريستينا تولاني**). وفي حالة ثانية تضطرب صورة الوالدة في العائلة عندما يضرب الوالد زوجته امام الاطفال المذعورين. وفي حالة ثالثة تطغى السلطة المطلقة والتمييز. يصرخ الاب العائد الى المنزل: «اين ابنتي؟» تجيبه الوالدة: «ذهبت للدراسة عند صديقتها». يصرخ الوالد: «لتحضر الآن!»، في حين يخرج الابن بعمر ١٥ سنة من المنزل ولا يعود الا صباح اليوم التالي (**تاتيانا كريدي**)

ج. **تناقض وسجالات:** تظهر ممارسات في العلاقات العائلية اليومية مأساة وحدة السلطة او ازدواجيتها. ومفهوم المساواة بين الزوجين ومفهوم الحوار، في حال عدم فهم روحيتهما ومضامينهما، يؤدي الى الغاء مفهوم السلطة العائلية. تصرخ أمٌّ امام الوالد: «ابنك، ابنك...!» (**سلمى شلبي**). وهنا يظهر تناقض في الاوامر: تطلب الام من ابنها ان يذهب الى النوم فيما يبدي الاب تحفظات لأن الغد يوم عطلة (**نجاة الراعي، اليان لحود**). والطفلة المدللة أصبحت خبيرةَ لعبة السلطة في العائلة تجاه والدة تعيش عقْدة ذنب وتجاه اوامر غير متناسقة في العائلة الممتدة. وفي حالة ثانية يستقيل الاب من ابوته بعد معاناة تاركًا للوالدة المبادرة (**سينتيا الحاج**). وفي عائلة مُفككة يكلف الوالد ابنته بكل الشؤون: «اسألوا ابنتي البكر» (**بيتر بعينو**). وفي العائلة الممتدة (عندما يعيش الجد او الجدة او العمة في المنزل) تصبح ممارسة السلطة خاضعة يوميًا الى سجالات بدون حدود (**لارا تشيكاريان**) ويحصل خرق مُستمر لضرورة التمايز في الوظائف والمسؤوليات (**محمد منيمنه**). وفي حالة اخرى، حين راتب الوالدة الشهري أرفع من راتب الزوج، تصبح الوالدة هي الآمرة (**راني نخله**). ولكن تظل صورة الأب ايجابية لدى عائلة من بعاصير الشوف فقدت فيها الوالدة زوجها وبقيت تردد لاولادها: «هذه ارادة والدكم» (**نوال الكعكور**).

د. **الاب في المدرسة!** لممارسة السلطة في العائلة تداعياتُها في المدرسة. يحصل تطاول في العلاقات المدرسية (**ليال بيطار**). في مدرسة رسمية في الجنوب خالف تلميذ نظام المدرسة فأتى الاب (موظف في ادارة عامة) الى المدرسة وتصرف كمحامٍ عن ابنه وصرخ: «ولدي معه

حق!» (**ليندا ناصر**). ينوب تاليًا الاب عن سلطة المدرسة. فمن يحكم من؟ وفي حالة ثانية أنَّبت الجدة حفيدًا عمره عشر سنوات وضربته لأنه أساء التصرف. جاء الطفل الى والده يشكو جدته. أنَّبَه الاب وضربه. عاد الطفل الى جدته مستاءً وبصق امامها! احتضنته الجدّة لتحميه واخذت تلاطفه. توجهت الوالدة الى طفلها: هكذا تتصرف مع جدتك التي قدَّمت لك حذاءً جديدًا! اجاب الطفل بشراسة: «لا، ليست جدتي التي اهدتني الحذاء». يظهر من هذه الحادثة (نشاهد مثيلها مرارًا) ان العلاقة فيها تقوم على الشطارة، وتحزيب الناس على بعضها بعضًا، والحوار السائب في كل الأمور، واستجداء عطف فريق ضد فريق، وتتدخل الوالدة لتقول لابنها ان الجدّة أهدته حذاء جديدًا ولهذا السبب، لا لأي سبب مبدئي، عليه مسايرة جدته!

١١٢. من مشاهدات الطلاب الميدانية والمعاشة بدا ان العائلة ليست غالبًا اطارًا للتنشئة على مفهوم السلطة الناظمة والقانون ولادماج مفهوم المعايير، إنما يتم التحايل على السلطة والقانون بالابتزاز والتلاعب على المفاهيم والاوضاع، وبسجالات دون معايير. ان ازمة المعايير والمرجعية والبوصلة ممتدة حتى ان أبسط الامور المتعلقة بالقانون وانتظام الحياة العامة تخضع للتسخيف. وأفاد الطلاب كثيرًا من مشاهداتهم الانتروبولوجية: من العائلة الى الدولة. الحاجة اليوم هي الى عمل عمقيّ في علم النفس العيادي والتربية، للولوج الى دولة الحق. اذا لم تبدأ التربية في العائلة على مفهوم الدولة (وفق نظام ومعايير) فلا نستغرب ضعف ادراك الدولة في الحياة العامة.

خاتمة: ما العمل؟

برنامج ثقافي تربوي وعلى مستوى البلديات لنقل تراث الدولة لبنانيًا، ٢٠٢٢-٢٠٢٥

١١٣. ان احياء خطة النهوض التربوي الواردة سنة ١٩٨٩ في وثيقة الوفاق الوطني/الطائف (أطلقها المركز التربوي للبحوث والانماء بإدارة البروفسور منير أبو عسلي بين ١٩٩٤ و١٩٩٩ بمشاركة نحو ٤٠٠ خبير من كل لبنان في التربية والاختصاصات، وأُجهضت بسبب الاحتلالات والتنافس على المصالح أو تحوّلت الى مسار بيروقراطي) هذا الإحياء هو مدخل الخلاص والنهوض بعد استعادة لبنان سيادته، خصوصًا في

مادتي «التربية المدنية» و«التاريخ»[٦٣]. ولهذه الخطة جذور في المجتمع اللبناني، منها برنامج: **جيل النهوض: تربية متجددة لشباب لبنان اليوم** (١٩٨٩–١٩٩٥) في أربعة أجزاء، انطلاقًا من المكتب التربوي لراهبات القلبين الأقدسين[٦٤].

وهذا أنطوان سعد (الأمين العام سابقًا لجامعة الحكمة، خلال المؤتمر الثاني للمؤسسة اللبنانية للسلم الأهلي الدائم وهو عضو في المؤسسة) يقول «طالما اتفقنا أنْ «راجع لبنان» فكيف نجعل منه أحسن مما كان، على ما تقول الأغنية؟»[٦٥].

---

٦٣) منير أبو عسلي، **مسيرة ورهان**، بيروت، نوفل، ٢٠٢١، ٨٠٠ ص وتعليق: أنطوان مسرّه، «كتاب منير أبو عسلي... عظمة ومعاناة الشأن العام في لبنان!»، **النهار**، ٢٠٢١/٧/١٥

A. Messarra, « L'ouvrage de Mounir Abou Assaly : Grandeurs et misères de la chose publique », *L'Orient-Le Jour*, 11/8/2021.

برامج خطة النهوض التربوي: **مناهج التعليم العام وأهدافها**، مطبعة صادر، ١٩٩٧، ٨٣٢ ص ومناهج «التربية الوطنية والتنشئة المدنية»، ص ٧١٣–٧٣٤.

تفاصيل محتوى منهج مادة التربية الوطنية والتنشئة المدنية، **الجريدة الرسمية**، عدد ٣٧، ١٩٩٨/٨/١٨، ٣٢ ص (تعميم رقم ٣٦/م / ٩٨ تاريخ ١٩٩٨/٧/١.

التربية الوطنية والتنشئة المدنية، السنة السابعة الأساسية، تدريب المعلمين على المناهج الجديدة، المركز التربوي للبحوث والانماء، ١٩٩٨، ١٤٦ ص. والسنة الرابعة أساسية، المركز التربوي للبحوث والانماء، ١٩٩٨، ١٥٦ ص.

برامج التاريخ في المرحلة ما قبل الجامعية، مرسوم رقم ٣١٧٥ تاريخ ٢٠٠٠/٦/٨، **الجريدة الرسمية**، عدد ٢٧، تاريخ ٢٠٠٠/٦/٢٢، ص ٢١١٤–٢١٩٥.

قيادة الجيش، مديرية التوجيه، **تاريخ الجيش اللبناني**، الجزء الأول ١٩٢٠–١٩٤٥، ٢٠٠٩، ٣٥٠ ص ويليه أجزاء تالية.

قوى الأمن الداخلي، **صفحات من تاريخ قوى الأمن الداخلي**، طبعة ثانية، ٢٠١٧، ٣٨٤ ص.

عدنان محسن ضاهر ورياض غنام، **مجلس النواب في ذاكرة الاستقلال اللبناني**، بيروت، مجلس النواب، طبعة ثانية، ٢٠٠٩، ٣٥٠ ص.

غسان تويني مع فارس ساسين ونواف سلام، **كتاب الاستقلال بالصور والوثائق**، دار النهار، طبعة ثالثة، ٢٠٠١، ٣٢٦ ص.

وبعض المراجع حول القضاء:

محكمة التمييز، **مئة عام بأقلام رواد القصر**، محكمة التمييز، بيروت، ٢٠١٩، ٢٤٠ ص + ٢٤٠ ص بالفرنسية.

Hyam Mallat, *La genèse de la Cour de Cassation*, Beyrouth, 2019, 150 p.

هيام جورج ملاط، **الحقوق والمحاماة والقضاء في لبنان قبل تأسيس نقابة المحامين عام ١٩١٩**، بيروت، صادر، ٢٠١٩، ٢٥٠ ص.

محكمة التمييز، **القضاء العدلي في لبنان من التراث الى الحداثة**، بيروت، ٢٠١٩، ١٦٠ ص.

٦٤) Louise-Marie Chidiac, Abdo Kahi, Antoine Messarra (dir.), *La génération de la relève* (Une pédagogie nouvelle pour la jeunesse libanaise de notre temps), Beyrouth, Bureau pédagogique des Saints-Cœurs, Librairie Orientale, 4 vol., 1989–1995.

٦٥) أنطوان سعد، في كتاب ا. مسرّه (اشراف)، **العبور الى الدولة**، المرجع المذكور، ص ٢٤٥–٢٤٨.

هي ذي خطة التطبيق بعد استعادة لبنان سيادته.

١١٤. أولاً: برامج تربوية عن سلوكيات لبنانية تناقض الدولة صاحبة السيادة

١. متابعة ورصد الانسجام اليومي في الحياة المدرسية بين القول والفعل تطبيقًا النشيد الوطني اللبناني: «**قولنا والعمل في سبيل الكمال**».

٢. متابعة ورصد الجديّة في الحياة المدرسية، في جميع الشؤون بدون استثناء، نقيضًا الأمثلة الشعبية: **معليش، شو فيها، بسيطة، بيناتنا، مشّيها، ما تحمِل السلم بالعرض...**[٦٦]

٣. تخصيص نحو عشر حصص سنويًا في كل مدرسة ضمن مختلف المواد الدراسية والأنشطة الصفية واللاصفية، لاستكشاف التلامذة التراث اللبناني المادي والثقافي، لا بشوفينية أو تفاخر أو حنين الى الماضي أو مجرد المعرفة بل لتنقية الذاكرة وبناء مناعة الجيل الجديد تجاه منازعات الداخل والخارج. فالتراث اللبناني يفتقر الى آليات نقل transmission عبر برامج ومباريات على نمط مباراة جمعية «تصالح» في حث التلامذة على الاستكشاف الذاتي لقيم لبنان التأسيسية من خلال وجوه ريادية بين السنوات ١٩٢٠ والميثاق الوطني ١٩٤٣. من أبرز المواضيع:

- تاريخ اللبنانيين من خلال أسماء الشوارع
- وجوه ريادية في تاريخ اللبنانيين ١٩٢٠–١٩٤٣
- الذاكرة المدنية للحروب في لبنان: ١٩٧٥–١٩٩٠
- اعلان دولة لبنان الكبير ١٩٢٠
- قيم لبنان التأسيسية من خلال الأغاني...
- استقلال لبنان ١٩٤٣ في ذاكرة لبنان وكما روته الصحف.

---

(٦٦) Antoine Messarra, «Le manque de sérieux, un syndrome libanais», *L'Orient-Le Jour*, 17/2/2018.
و ا. مسرّه، «كيف أكون جديًا وأقاوم ذهنية المعليش؟» في كتاب ا. مسرّه، **الثقافة المواطنية في المجتمع التعددي** (لبنان من منظور مقارن)، بيروت، منشورات «تصالح»، المكتبة الشرقية، ٢٠١٩، ٧٨٠ ص، ص ٥٠٨.
هيام جورج ملاط، **لبنان: نشأة الحرية والديمقراطية في الشرق الأدنى**، (جذور لبنان الكبير)، بيروت، نوفل، ٢٠٢٠، ٣٦٠ ص.

ما يبرر هذه الضرورة صدورُ أبحاث ريادية حول التراث اللبناني في كل المجالات ومنذ سبعينات القرن الماضي، بخاصة أبحاث تاريخية بالغة الأهمية حول الاستقلال، وتاريخ الجيش اللبناني، وتاريخ قوى الأمن الداخلي، وتاريخ القضاء اللبناني،... لكن آليات النقل mécanismes de transmission معطلة بشكل عام لبنانيًا وعربيًا في التعليم المدرسي والجامعي وفي الحياة الوطنية والمحلية.

٤. مراجعة بالعمق في تعليم الحقوق والعلوم السياسية في كل الجامعات في لبنان انطلاقًا من فلسفة القانون وانتروبولوجيا الدولة مع تنظيم حلقات بحثية تطبيقية حول موضوع: كيف تعلّم القانون والعلوم السياسية في مجتمع لا دولة!

٥. تخصيص عشر حصص على الأقل في معهد الدروس القضائية حول تراث لبنان القضائي من خلال وجوه ريادية ومذكرات قضاة وحالات نموذجية.

٦. التركيز في الاعمال التدريبية في كليات الحقوق وفي معهد الدروس القضائية لا على مجرد التقنيات بل على فعالية الممارسات في إرساء العدالة والخير العام.

٧. تشجيع الدراسات المقارنة وسد الفراغ حول انتروبولوجيا بناء الدولة في المجتمعات التعددية: لبنان، سويسرا، البلاد المنخفضة، بلجيكا، ايرلندا الشمالية، جزر فيدجي، جزيرة موريس، افريقيا الجنوبية...

١١٥. ثانيًا: تاريخ الدولة لبنانيًا

انطلاقًا من طبيعة التاريخ الذي هو جدلية علاقة بين المجتمع والسلطة، وانطلاقًا أيضًا من انتروبولوجيا الدولة التي تتأسس في امتداد المركز الى الأطراف centre et périphérie بقوة المركز أولاً، ثم من خلال المراحل الدستورية والمؤسساتية، تبرز الحاجة الى العدول عن نمطية البناء القومي السائدة nation building واعتماد مرجعية الدول ذات البناء القومي التعاقدية nations contractuelles والتي تطوّرت البحوث المقارنة بشأنها منذ سبعينات القرن الماضي. وهذا يتطلب سد فراغ شامل في التأريخ اللبناني حول بناء الدولة، لأسباب ثقافية وعلم النفس التاريخي لا لافتقار لبنان الى مؤرخين عظماء رياديين عربيًا وعالميًا. يوفر انتاج هؤلاء بالذات مادة بالغة الغزارة والعمق والتعمّق شرط قراءتها من منطلق الدولة

لا كالسائد من منطلق علاقات نفوذ بين زعماء واقطاعيين وأمراء ومشايخ وقبضايات. وهذا يتطلب اصدار كراسات نموذجية اختبارية معيارية ذات أهداف تربوية تثير التماثل والاقتداء وللاستعمال التربوي حول أبرز المواضيع التالية:

١. ما معنى دولة؟
٢. اعلان دولة لبنان الكبير سنة ١٩٢٠ والقرارات التنظيمية للدولة.
٣. ماذا حصل في لبنان بعد اعلان استقلال لبنان في ١٩٤٣/١١/٢٢: سيادة، حكم وطني، جيش، بوليس، جمارك، عملة...؟
٤. حبيبتي الدولة في ١٩٧٥–١٩٩٠.
٥. بناء مؤسسات الدولة خلال الانتداب، ١٩٢٠–١٩٤٣ (مجموعة قرارات سلطة الانتداب الإداري والقضائي).
٦. مصائب وانجازات الدولة اللبنانية منذ ١٩٤٣.
٧. تاريخ الدولة في لبنان كما نرويه لأولادنا.
٨. تاريخ النظام الدستوري اللبناني كما نرويه لأولادنا.
٩. المقاطعات اللبنانية والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية والإنسانية عامة بين مختلف المقاطعات.
١٠. امتداد سلطة الدولة اللبنانية منذ ١٩٤٣: نماذج في العلاقة بين المركز والأطراف.
١١. تنظيم الدولة اللبنانية في عهد الرئيس فؤاد شهاب: المراسيم الاشتراعية والتنمية الاجتماعية الاقتصادية
١٢. تاريخ الجيش اللبناني كما نرويه لأولادنا
١٣. تاريخ القضاء اللبناني كما نرويه لأولادنا
١٤. تراث لبنان القضائي من خلال شهادات ونماذج
١٥. تاريخ الأمن العام كما نرويه لأولادنا
١٦. نماذج وشهادات حيّة حول رواد الشأن العام في لبنان ١٩٢٠–١٩٦٤
١٧. لبنان من خلال محاضرات الندوة اللبنانية كما نرويه لأولادنا ١٩٤٦–١٩٧٤
١٨. كوارث لبنان في اللاحياد، ١٩٧٥–٢٠٢١ (د. طوني عطاالله، ٣ مقالات في النهار)

١١٦. ثالثًا: على مستوى البلديات

مثاقفة الدولة لدى اللبنانيين على المستوى المحلي تنتقل عبر متاحف بلدية حول تاريخ اللبنانيين في حياتهم اليومية ومعاناتهم خلال الحروب والاستقرار والازدهار في مراحل السيادة والحياد وعلاقتهم مع السلطة المحلية والشأن العام المحلي وانجازاتهم المشتركة. وتتوفر تفاصيل ومراجع تطبيقية، باشراف «كرسي اليونسكو لدراسة الأديان المقارنة والوساطة والحوار» في جامعة القديس يوسف، وجمعية «تصالح» وتعاونًا مع جمعيات ومؤسسات تربوية[٦٧].

لمزيد من التفاصيل حول فلسفة الدولة وانتروبولوجيا الدولة

- G.W.F. Hegel, *Leçons sur la philosophie de l'histoire*, trad. J. Gibelin, 3e éd. remaniée, Paris, Vrin, 1970.
- Thomas Fleiner-Gerster, *Algemeine Staatslehre*, Springer-Verlag Berlin, Heidelberg, 1980. Trad. française: *Théorie générale de l'Etat*, Paris, Publications de l'Institut universitaire des hautes études internationales, Genève, P.U.F., Paris, 1986, 528 p., p. 29.
- Hens Kelsen, *Algemeine Staatslehre*, 1925. Et: « Aperçu d'une théorie générale de l'Etat », in *Revue du droit public*, 1926, p. 561.
- R. Lorenz, *Der Staat wider willen*, Vienna 1938, cité par H.P. Secher, « Coalition governement: The case of the Second Austrian Republic », in *American Political Science Review*, vol. 52, sept. 1958, p. 791.
- Gunnar Myrdal, *Beyond the Welfare State*, Yale University Press, New Haven, Conn., 1960, Xiii + 288 p.
- J. Donnedieu de Vabres, L'*Etat*, Paris, P.U.F., « Que sais-Je? », no 616, 1954, 126 p.
- Berengère Marques-Pereira, « Une approche dialectique de la non-décision politique: Le cas de l'avortement en Belgique », in *Revue internationale de science politique*, 8 (4), oct. 1987, pp. 355-365.
- G. Héraud, « Problématique de la minorité dans la minorité », in *System eines internationalen volksgruppenrechts*, vol. 2, Wien, Braumüllet, 1972, pp. 265–276.

٦٧) Antoine Messarra (dir.), *La gestion démocratique du pluralisme religieux et culturel* op. cit.

- Montesquieu, *De l'esprit des Lois*, Livre X, ch. II.
- Hamid Mourani, « La limite comme concept d'Etat », in *Le Réveil*, 18 fév. 1979.
- François Bourricaud, « Le modèle polyarchique et les conditions de sa survie », in *Revue française de science politique*, XX, oct. 1970, no 5, pp. 893-923.
- Jean-Claude Douence, « Régime libanais et polyarchie », conférence à l'Association libanaise des sciences politiques, 16 juin 1971, 27 p. dact., inédit.
- Jean Salem, « La fonction présidentielle à la croisée des chemins », in *L'Orient-Le Jour*, 30 sept., 1 et 2 oct. 1982 ; « Les pouvoirs spéciaux et le droit », in *L'Orient-Le Jour*, 3 et 4 janv. 1983 ; *Le problème libanais* (Essai d'interprétation. Approche d'une solution), Paris, Cariscript, « Acta », 1989, 59 p.

* * *

- Salim Daccache, *Pluralisme, vivre-ensemble et citoyenneté au Liban* (Le salut vient-il de l'école ?), Edition de l'USJ et l'Harmattan, 2013, 578 p.
- Louise-Marie Chidiac, Abdo Kahi, Antoine Messarra (dir.), *La génération de la relève*, Beyrouth, Bureau pédagogique des Saints-Cœurs, Librairie Orientale, 4 vol., 1990–1995.
- Boutros Dib (dir.), *Histoire du Liban* (Des origines au XX^e^ siècle), Philippe Ray, 2006, 1008 p., surtout les chapitres écrits par Boutros Dib.
- Antoine Douaihi (dir. éditoriale), Saad Kiwan (dir. artistique), Ghassan Tuéni (Préface), *Quatre siècles de culture de liberté au Liban*, Beyrouth, Chemaly and Chemaly, Beyrouth, Librairie al-Burj, 2 vol., 2006, 950 p.
- A. Messarra, « Psychologie historique et psychanalyse au chevet du Liban », 2020, 24 p.
- Lamia Hitti, *La pédagogie de la mémoire au Liban* (Guerres des années 1975–1990. Problématique mémorielle et expérience éducative), Beyrouth, Fondation libanaise pour la paix civile permanente, vol. 41, Librairie Orientale, 2017, 224 p.

وثائق

وثيقة ١: الاقطاعات والاسر المقاطعجية في مطلع العهد العثماني

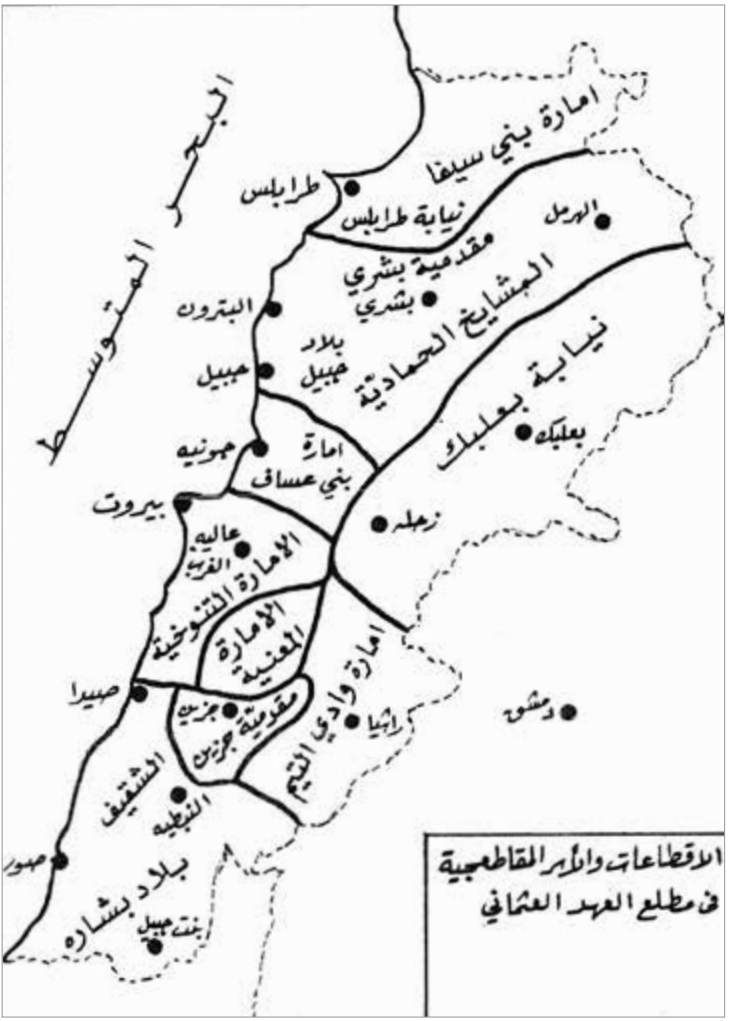

نقلاً عن: عدنان محسن ضاهر ورياض غنام، **مجلس النواب في ذاكرة الاستقلال اللبناني**، مجلس النواب، طبعة ثانية، ٢٠٠٩، ٣٥٠ ص، ص ٣٢

وثيقة ٢: المقاطعات اللبنانية في القرن السابع عشر

نقلاً عن: ضاهر وغنام، المرجع المذكور، ص ٣٠

وثيقة ٣: المقاطعات اللبنانية منذ ١٦٦٠

في سنة ١٦٦٠ وبسبب الحركات التوسعية والانفصالية التي كان يقوم بها بعض حكام الجبل، استحدثت الدولة العثمانية ولاية صيدا، وضمت إليها بعض المقاطعات التي كانت سابقاً ضمن ولاية دمشق كإمارة بلاد الأشواف وذلك لمراقبة الحكام المحليين والحؤول دون تحقيق نزعاتهم الإنفصالية[٢].

ظلت المقاطعات اللبنانية تخضع للتنظيم الإداري العثماني المذكور، وقد توزعت ابتداءً من سنة ١٦٦٠ على ولايات دمشق وطرابلس وصيدا، فكانت مناطق طرابلس وجوارها مع جبل لبنان القديم ومنطقة كسروان تتبع ولاية طرابلس، وانبعث بيروت وجبل عامل وبلاد الأشواف بولاية صيدا، وكان الحد الفاصل بين ولايتي صيدا وطرابلس، الجسر المعروف اليوم بجسر المعاملتين. أما سهل البقاع ومنطقة وادي التيم فقد أتبعا بولاية دمشق.

لقد بلغ عدد المقاطعات اللبنانية التي ألحقت بولاية طرابلس ثماني مقاطعات هي: الزاوية والكورة والضنية، وجبة بشري وبلاد البترون وبلاد جبيل وجبة المنيطرة والفتوح. في حين بلغ عدد المقاطعات اللبنانية التي ألحقت بولاية صيدا ست عشرة مقاطعة هي: كسروان، والقاطع والمتن، وساحل بيروت، والغرب الأسفل والغرب الأعلى والجرد والشحار والمناصف والعرقوب، والشوف وإقليم الخروب، وإقليم جزين، وإقليم التفاح وجبل الريحان ومقاطعة الشوف الجانبي أو شوف الغابر.

نقلاً عن: ضاهر وغنام، المرجع المذكور، ص ٢٩–٣٠

وثيقة ٤: كبار ضباط الجيش يضعون أنفسهم بتصرف السلطة اللبنانية، ١٩٤٤

نقلاً عن: ضاهر وغنام، ص ٢٩١

وثيقة ٥: قرار أعضاء مجلس إدارة جبل لبنان المطالب باستقلال لبنان وحياده، ١٩٢٠/٧/١٠

نقلاً عن: ضاهر وغنام، ص ٣٣٠

وثيقة ٦: الدولة في لبنان (أدوار صعب، فيليب تقلا، صائب سلام، موريس جميل)

Quel Liban sans État ?

Qu'on accepte le Liban ou qu'on le refuse, qu'on y croit ou qu'on le dénigre, qu'on soit pro ou anti-palestinien, qu'on se réclame de la gauche, de la droite ou du centre, qu'on soit chrétien ou musulman, toutes ces positions s'inscrivent en porte-à-faux par rapport au vrai problème qui se pose aujourd'hui au pays et qui le remue profondément. En fait, ce qui est en cause ou ce qui est remis en question, ce n'est plus le Liban dont l'entité paraît désormais évidente, mais l'État en tant qu'institution, l'État envers qui, tous les citoyens sont rigoureusement tenus de respecter les lois, l'État comme instrument au service de la société.

Que cet État soit déficient, sectaire, inculte ou archaïque, que ses citoyens aient le devoir d'en réformer les structures, ou de les transformer, qu'une opposition au régime démocratique s'impose comme un impératif national, voilà qui n'a plus besoin d'être démontré. Encore faut-il que cet État existe et qu'on en accepte la notion et les données fondamentales.

Edouard Saab, *L'Orient-Le Jour*, 12/3/1975 et *L'Orient d'Edouard Saab* (articles choisis par Matthieu Saab), Paris, Riveneuve, 2013, 286 p., pp. 35–36

وثيقة ٧: دولنة الكتابة التاريخية: نموذج لكتابة تاريخ الدولة في لبنان: قوى الأمن الداخلي بعد استقلال ١٩٤٣

وفي عام ١٩٤٣، قبيل إجراء الأعمال الانتخابات النيابية العامة، صدر المرسوم رقم ٨٧/ TB تاريخ ١٩٤٣/٨/٢١ القاضي بتولّي الزعيم سليمان نوفل قيادة قوى الأمن الداخلي (الدرك والشرطة اللبنانية)، وتكليفه تأمين الأمن والسلامة العامة على أراضي الجمهورية اللبنانية كافة، والسهر على سلامة الانتخابات ونزاهتها. أنجز المهمة بنجاح مما استحق تهنئة رئيس الدولة اللبنانية، بترو طراد آنذاك، الذي وجّه إليه الرسالة الآتية رقم ١٩٣، رئاسة الدولة اللبنانية، بيروت في ١٩٤٣/٩/١٠:

من رئيس الدولة اللبنانية

لحضرة الكولونيل نوفل قائد قوى الامن الداخلي

يسرني ان اعرب عن ارتياحي التام وارتياح أعضاء الحكومة اللبنانية لما أبداه رجال الأمن الموضوعين تحت قيادتكم من النشاط والحزم والتمسك بالواجب إبان الأعمال الانتخابية الأخيرة.

فالمسلك الذي سلكوه في الظروف الدقيقة الحرجة التي اجتازتها البلاد يدل دلالة واضحة على روح الانضباط والتفاني في خدمة الوطن وعلى رفعة معنوية جديرة بالتقدير والاعجاب.

لقد استحق رجال قوى الأمن الداخلي وأنتم على رأسهم شكر لبنان من أجل الجهود التي بذلوها في سبيل إقرار الأمن رغم الصعوبات الجمّة التي اعترضتهم وآمل أن يستمروا على هذا النحو من الإخلاص في العمل ليظلوا موضوع ثقة الحكومة والبلاد.

نقلاً عن: قوى الأمن الداخلي، **صفحات من تاريخ قوى الأمن الداخلي**، بيروت، طبعة ثانية، ٢٠١٧، ٣٨٤ ص، ص ١٧٢–١٧٣

وثيقة ٨: دولنة الكتابة التاريخية: نموذج لكتابة تاريخ الدولة في لبنان: التظاهرة الطلابية في ١٩٤٥/١/٢٩ للمطالبة بتسلم الجيش وجعله لبنانيًا والجلسة الطارئة لمجلس النواب

تسلم الحكومة وحدات من القناصة اللبنانية

اقتضت توازنات اللعبة السياسية الداخلية في لبنان، إجراء تعديل وزاري، بدا وكأنه جاء ترضية معنوية للفرنسيين، ما شجع فرنسا، في المباحثات المقترحة مع الحكومة اللبنانية، على توقيع بروتوكول في ١٥ حزيران/يونيو ١٩٤٤، ينص على أن تضع السلطات الفرنسية، وحدات من القناصة اللبنانية، معززة بمفرزة من المصفحات، تحت تصرف الحكومة اللبنانية المباشر، على أن يجري استبدال هذه المجموعة، مرة كل أربعة أشهر، وقد جرى التسليم فعلاً، في ١٧ حزيران / يونيو ١٩٤٤، بحفلة عرض عسكري، أقيمت في الملعب البلدي في بيروت، وحضرها من الجانب اللبناني، رئيس الجمهورية والوزراء ومن الجانب الفرنسي، المندوب العام القائد الأعلى لجيوش الشرق، الجنرال «بينيه» وأركان حربه. سلم في أثنائها رئيس الجمهورية، العلم اللبناني، الى الزعيم فؤاد شهاب قائد اللواء الخامس الجبلي. فرفرف هذا العلم، لأول مرة بصورة رسمية، فوق رؤوس الجنود اللبنانيين، الذين كانوا يشكلون هذه المجموعة. وأصبح بمقدورهم أن يتفيأوا ظله طوال قيامهم بخدمة الحكومة اللبنانية. **وقد شكلت هذه الوحدات اللبنة الأولى في بناء صرح الجيش اللبناني.**

المطالبة الشعبية والبرلمانية بالجيش

الظاهرة الجديدة، اللافتة في الحركة الشعبية والسياسية الدائرة آنذاك، كانت في ٢٩ كانون الثاني/ يناير ١٩٤٥، مع نزول طلاب لبنان الى الشوارع، حاملين الاعلام، ومطالبين بتسلم الجيش، وجعله لبنانيًا. وقد لاقت هذه الدعوة استجابة عامة، بخاصة، وان اضرابًا عامًا قد أعلن عنه في بيروت. فتجمّع المواطنون في شوارع المدينة وساحاتها، تحت شعار تسلم الجيش، والذي تداولوا أمره عبر عشرات الالاف من المناشير. هذا نص أحدها:

نريد الجيش

يا طلبة لبنان، يا عماد لبنان

بالأمس في تشرين الثاني/ نوفمبر ثارت الأمة لحقها المغتصب وكنتم في ثورتها صوت الحق ففازت الأمة وفزتم، واليوم يعود الصوت الحق فيدعوكم، يدعوكم الى المطالبة بالجيش رمز كل استقلال وسياجه الوحيد. أضربوا. أظهروا للعالم نهار الاثنين أن الدماء التي غلت في تشرين لا تزال تجري حارة في العروق. سجلوا في التاريخ شهر كانون كما سجلتم قبل شهر تشرين، لا حرية ولا استقلال إلا بالجيش.

وبالفعل، استيقظت بيروت في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي على اضراب عام، وعلى الطلبة من جميع المعاهد العلمية، يجتمعون في شارع بلس (قرب الجامعة الأميركية)، ويسيرون الى القصر الجمهوري (في محلة القنطاري) حيث وقفوا هناك وانشدوا النشيد الوطني هاتفين للجيش. فأطل عليهم وزير الخارجية هنري فرعون[١]، وقال مخاطبًا: «ان الحكومة ستطالب بالجيش ولن يهدأ لها بال حتى يعود ضباطنا وجنودنا إلينا. إن الحكومة التي لي شرف تمثيلها، وضعت نصب أعينها تحقيق جميع مطالب البلاد الاستقلالية وعلى رأسها جيشنا الباسل[٢].

تجاوبت المدن اللبنانية كافة، مع أجواء بيروت ومع تطلعاتها. وقد واكب البرلمان اللبناني هذه التحركات الشعبية. فعقد في اليوم التالي جلسات طارئة، كان محورها الجيش اللبناني وضرورة تسلّمه. وتنقل **البشير** عن مداخلات لعادل عسيران وحبيب أبو شهلا والدكتور صراف[٣]. واميل لحود والأمير مجيد أرسلان وجورج عقل والنائب محمد مصطفى وأديب الفرزلي وكمال جنبلاط، الذي تقدم باقتراح يطلب فيه من نواب المجلس المطالبة بالجيش. وكانت ختام المداخلات، كلمة لرئيس الحكومة، دولة الرئيس عبد الحميد كرامي، الذي قال: «ان كل دولة ليس لها جيش لا يكتب لها عيش...» وقد ذكر أنه أرصد للجيش في الميزانية خمسة ملايين ليرة، على أن يزاد المبلغ إذا دعت الحاجة. وختم البحث بشأن الجيش، بالاقتراح الآتي: «إن المجلس النيابي يرغب الى الحكومة في أن تطالب الجانب الفرنسي بما بقي من المصالح وفي مقدمتها الجيش».

١) كان رئيس الجمهورية بشاره الخوري غائبًا للإستشفاء في طبريا. هنري فرعون (١٩٠٠–١٩٩٣) مواليد الإسكندرية، مجاز في الحقوق من جامعة ليون. رئيس شركة استثمار مرفأ بيروت لمدة ٣٥ سنة. نائب عن بيروت لدورات ١٩٢٩، ١٩٤٣، ١٩٥١، وعن البقاع (١٩٤٧). وزير الخارجية، ١٩٤٦، ١٩٤٥. وزير دولة ١٩٦٨. راجع عدنان، ضاهر، ورياض، غنام: مصدر مذكور، ص ٤٠٥–٤٠٦.

٢) راجع منير، تقي الدين، مصدر مذكور ص ٨٧–٨٨.

٣) الدكتور يعقوب الصراف ١٩٠٦–١٩٨٨، مواليد منياره في الشمال، حائز شهادة في الطب من المعهد الفرنسي، نائب عن الشمال لدورة ١٩٤٣. وزير صحة ١٩٦٤، راجع: عدنان، ضاهر، ورياض، غنام: مصدر مذكور، ص ٣٠٥.

نقلاً عن قيادة الجيش – مديرية التوجيه: **تاريخ الجيش اللبناني**، الجزء الأول ١٩٢٠–١٩٤٥، ٢٠٠٩، ٣٦٠ ص، ص ٩٢–٩٣.

وثيقة ٩: دولنة الكتابة التاريخية: نموذج لكتابة تاريخ السلطة في لبنان قبل الاستقلال: لم يكن لبنان مستقلاً قبل ١٩٤٣ والمقاطعات اللبنانية مناضلة في سبيل الاستقلال ويتمتع بعضها بإدارة ذاتية حصرية*.

السلاطين العثمانيين الذين تعاقبوا على الحكم

١. عثمان ١ بن أرطغرل	١٢٨١–١٣٢٤
٢. أورخان بن عثمان	١٣٢٤–١٣٦٠
٣. مراد ١ بن أورخان	١٣٦٠–١٣٨٩
٤. بايزيد (يلدرم) الصاعقة بن مراد	١٣٨٩–١٤٠٢
٥. محمد ١ بن يزيد (٣ فترات)	١٤٠٣–١٤١٣–١٤٢١
٦. مراد ٢ بن محمد (٤ فترات)	١٤٢١–١٤٤٤–١٤٤٦–١٤٥١
٧. محمد ٢ الفاتح بن مراد (٣ فترات)	١٤٤٦–١٤٥١–١٤٨١
٨. بايزيد ٢ بن محمد	١٤٨١–١٥١٢
٩. سليم ١ بن بايزيد	١٥١٢–١٥٢٠
١٠. سليمان ١ بن سليم	١٥٢٠–١٥٦٦
١١. سليم ٢ بم سليمان	١٥٦٦–١٥٧٤
١٢. مراد ٣ بن سليم	١٥٧٤–١٥٩٥
١٣. محمد ٣ بن مراد	١٥٩٥–١٦٠٣
١٤. احمد ١ بن محمد	١٦٠٣–١٦١٧
١٥. مصطفى ١ بن محمد (مرتين)	١٦١٧–١٦١٨
١٦. عثمان ٢ بن أحمد ٢	١٦١٨–١٦٢٢
١٧. مراد ٤ بن احمد ١	١٦٢٣–١٦٤٠
١٨. إبراهيم بن احمد ١	١٦٤٠–١٦٤٨
١٩. محمد ٤ بن إبراهيم	١٦٤٨–١٦٨٧
٢٠. سليمان ٢ بن إبراهيم	١٦٨٧–١٦٩١
٢١. احمد ٢ بن إبراهيم	١٦٩١–١٦٩٥
٢٢. مصطفى ٢ بن محمد ٤	١٦٩٥–١٧٠٣
٢٣. احمد ٣ بن محمد ٤	١٧٠٣–١٧٣٠
٢٤. محمود ١ بن مصطفى	١٧٣٠–١٧٥٤
٢٥.عثمان ٤ بن مصطفى	١٧٥٤–١٧٥٧
٢٦. مصطفى ٣ بن أحمد	١٧٠٧–١٧٧٤
٢٧. عبد الحميد ابن احمد ٣	١٧٧٤–١٧٨٩
٢٨. سليم ٣ بن مصطفى ٣	١٧٨٩–١٨٠٧
٢٩. مصطفى ٤ بن عبد الحميد ١	١٨٠٧–١٨٠٨
٣٠. محمود ٢ بن عبد الحميد ١	١٨٠٨–١٨٣٩
٣١. عبد المجيد ١ بن محمود ٢	١٨٣٩–١٨٦١
٣٢. عبد العزيز بن محمود ٢	١٨٦١–١٨٧٦
٣٣. مراد ٥ بن عبد المجيد ١	١٨٧٦– عزل

مذكرات احمد جمال باشا تبدأ من حقبة السلطان عبد الحميد الثاني

٣٤. عبد الحميد ٢ بن عبد المجيد ١	١٨٧٦–١٩٠٩
٣٥. محمد ٥ رشاد بن عبد المجيد ١	١٩٠٩–١٩١٨
٣٦. محمد ٦ وحيد الدين بن عبد المجيد ١	١٩١٨–١٩٢٢
٣٧. عبد المجيد ٢ بن عبد العزيز	١٩٢٢–١٩٢٤ الأخير

* ليس المطلوب تعليم التاريخ العثماني بل عدم طمس الاحتلال ونضال اللبنانيين خلف مقولة «استقلال لبنان مدى العصور»!

وثيقة ١٠: الصدور العظام في عهد السلطان عبد الحميد الثاني

١. محمود نديم باشا (ثاني مرة)	١٨٧٥–١٨٧٦
٢. مترجم محمد رشدي باشا (رابع مرة)	١٨٧٦
٣. مدحت باشا (ثاني مرة)	١٨٧٦–١٨٧٧
٤. ادهم باشا	١٨٧٧–١٨٧٨
٥. احمد حمدي باشا	١٨٧٨
٦. احمد وفيق باشا	١٨٧٨
٧. صادق باشا	١٨٧٨
٨. مترجم محمد رشدي باشا (خامس مرة)	١٨٧٨
٩. صفوت باشا	١٨٧٨
١٠. خير الدين التونسي	١٨٧٨–١٧٧٩
١١. عارف باشا	١٨٧٩
١٢. سعيد باشا (أول مرة)	١٨٧٩–١٨٨٠
١٣. قدري باشا	١٨٨٠
١٤. سعيد باشا (ثاني مرة)	١٨٨٠–١٨٨٢
١٥. عبد الرحمن باشا	١٨٨٢
١٦. سعيد باشا (ثالث مرة)	١٨٨٢
١٧. احمد وفيق باشا (ثاني مرة)	١٨٨٢
١٨. سعيد باشا (رابع مرة)	١٨٨٢–١٨٨٥
١٩. كامل باشا (أول مرة)	١٨٨٢–١٨٨٥
٢٠. جواد باشا	١٨٩١–١٨٩٥
٢١. سعيد باشا (خامس مرة)	١٨٩٥
٢٢. كامل باشا (ثاني مرة)	١٨٩٥
٢٣. خليل رفعت باشا	١٨٩٥–١٩٠١
٢٤. سعيد باشا (سادس مرة)	١٩٠١–١٩٠٣
٢٥. فريد باشا	١٩٠٣–١٩٠٨
٢٦. سعيد باشا	١٩٠٨
٢٧. كامل باشا (ثالث مرة)	١٩٠٨–١٩٠٩
٢٨. حسين حلمي باشا (أول مرة)	١٩٠٩
٢٩. توفيق باشا (أول مرة)	١٩٠٩
٣٠. حسين حلمي باشا (ثاني مرة)	١٩٠٩–١٩١٠
٣١. إبراهيم حقي باشا	١٩١٠–١٩١١
٣٢. سعيد باشا (ثامن مرة)	١٩١١–١٩١٢
٣٣. احمد مختار باشا	١٩١٢
٣٤. كامل باشا (رابع مرة)	١٩١٢–١٩١٣
عهد حزب الاتحاد والترقي	
٣٥. محمد شوكت باشا	١٩١٣
٣٦. الأمير سعيد حليم باشا	١٩١٣–١٩١٧
٣٧. طلعت باشا	١٩١٧–١٩١٨
مرحلة انتقالية ما بعد الاتحاد والترقي	
٣٨. أحمد عزت باشا	١٩١٨
٣٩. احمد توفيق باشا (ثاني مرة)	١٩١٩
٤٠. فريد باشا (داماد) (أول مرة)	١٩١٩
٤١. علي رضا باشا	١٩١٩–١٩٢٠

٤٢. خلوصي صالح باشا	١٩٢٠
٤٣. فريد باشا (داماد (ثاني مرة)	١٩٢٠
٤٤. توفيق باشا (ثالث مرة)	١٩٢٠–١٩٢٢

بداية الجمهورية التركية

ولاة دمشق العثمانيين في عهد السلطان عبد الحميد الثاني

١. أحمد حمدي باشا	١٨٧٥–١٨٧٦
٢. احمد باشا	١٨٧٦–١٨٧٨
٣. كجك عمر فوزي باشا	١٨٧٨
٤. علي حيدر مدحت باشا	١٨٧٨–١٨٧٩
٥. حمدي باشا	١٨٨٠–١٨٨٥
٦. شريف محمد رؤوف باشا	١٨٩٣–١٨٩٤
٧. حاجي عثمان نوري باشا	١٨٩٤–١٨٩٥
٨. حسن باشا	١٨٩٦–١٨٩٧
٩. ناظم باشا	١٨٩٧–١٩٠٦
١٠. شكري باشا	١٩٠٦–١٩٠٩
١١. إسماعيل فاضل بك	١٩٠٩–١٩١١
١٢. إسماعيل غالب بك	١٩١١–١٩١٢

عهد الاتحاد والترقي

١٣. ناظم باشا	١٩١٢–١٩١٣
١٤. عارف بك	١٩١٣–١٩١٥
١٥. عزمي بك	١٩١٥–١٩١٦
١٦. تحسين بك	١٩١٦–١٩١٨

متصرفو جبل لبنان في عهد السلطان عبد الحميد الثاني

١. داود باشا	١٨٦١–١٨٦٨
٢. فرنكو باشا	١٨٦٨–١٨٧٣
٣. رستم باشا	١٨٧٣–١٨٨٣
٤. واصا باشا	١٨٨٣–١٨٩٢
٥. نعوم باشا	١٨٩٢–١٩٠٢
٦. مظفر باشا	١٩٠٢–١٩٠٧
٧. يوسف باشا	١٩٠٧–١٩١٢

عهد الاتحاد والترقي

٦. أوهانس باشا	١٩١٢–١٩١٥
٧. علي منيف بك	١٩١٥–١٩١٦
٨. إسماعيل حقي بك	١٩١٦-١٩١٨
٩. ممتاز بك	١٩١٨

متصرفو سنجق بيروت في عهد السلطان عبد الحميد الثاني

المتصرف:

١. قبرصلي كامل باشا	١٨٧٦
٢. رئيف أفندي	١٨٧٧
٣. نسيب احمد باشا	١٨٧٨

٤. إبراهيم حقي باشا	١٨٨١
٥. عبد الرحمن باشا	١٨٨٥
الوالي:	
١. حسين رضا أفندي	١٨٨٧
٢. علي باشا	١٨٨٨
٣. حسين فوزي باشا	١٨٨٨
٤. احمد عزيز باشا	١٨٨٩
٥. احمد نوري باشا	١٨٩٠
٦. إسماعيل كمال باشا	١٨٩١
٧. خالد بك	١٨٩٢
٨. نصوحي بك	١٨٩٤
٩. ناظم حسين باشا	١٨٩٦
١٠. رشيد بك	١٨٩٧
١١. رضا بك	١٨٩٨
١٢. خليل بك	١٨٩٩
١٣. ادهم أفندي	١٩٠١
١٤. خليل باشا	١٩٠١
١٥. ناظم باشا	١٩٠٨
١٦. نور الدين بك	١٩٠٩
١٧. أدهم بك	١٩١١
١٨. أبو بكر حازم بك	١٩١٢
عهد الاتحاد والترقي	
١٩. بكر سامي بك	١٩١٣
٢٠. عزمي بك	١٩١٥
٢١. إسماعيل حقي بك	١٩١٧

التقسيمات الإدارية حتى سنة ١٨٨٥

لواء الشام	لواء عكا
قضاء بعلبك	قضاء عكا
قضاء البقاع	قضاء حيفا
قضاء وادي العجم قضاء صفد	
قضاء حاصبيا	قضاء ناصرة
قضاء راشيا	قضاء طبريا
قضاء دوما	
قضاء نبك	
لواء بيروت	لواء حماه
قضاء بيروت	قضاء حماه
قضاء صيدا	قضاء حمص
قضاء صور	قضاء حميدية
قضاء مرجعيون	قضاء سلمية
لواء طرابلس	لواء البلقاء
قضاء طرابلس	قضاء البلقاء
قضاء عكار	قضاء جنين
قضاء صافيتا	قضاء بني صعب

قضاء حصن
قضاء السلط
لواء اللاذقية
قضاء اللاذقية
قضاء جبلة
قضاء صهيون
قضاء مرقب

قضاء جماعين
لواء حوران
قضاء حوران
قضاء عجلون
قضاء جبل الدروز
قضاء قنيطرة
قضاء درعا
قضاء بصرى الحرير

ولاية صيدا حتى سنة ١٩١٥

والي صيدا بعد ١٨٨٥ صار يسمى قائمقام:

حسن فهمي باشا	١٨٨٥
عبد الغني أفندي	١٨٨٦
مصطفى حكمت أفندي القنواتي	١٨٨٦
إبراهيم جوهري بك (بالوكالة)	١٨٨٨
إحسان بك (مرة ثالثة)	١٨٨٨
محمود بك	١٨٩٢
احمد بك شكري (مرة ثانية)	١٨٩٣
بكر سامي أفندي (بالوكالة)	١٨٩٥
يحيى أفندي (بالوكالة)	١٨٩٥
إبراهيم جوهري بك (بالوكالة)	١٨٩٦
رضا صلح بك	١٨٩٦
عبد القادر الدنا أفندي (بالوكالة)	١٨٩٧
أحمد جميل أفندي (بالوكالة)	١٨٩٨
عبد اللطيف أفندي	١٨٩٨
إبراهيم بك (بالوكالة)	١٩٠١
محمود ماهر بك	١٩٠١
كامل بك	
عبد الحليم أفندي	
سعد الدين أفندي رمضان (بالوكالة)	
محمد جمال بك	
سعيد بك	
محمد جمال بك	

ولاة طرابلس حتى سنة ١٩١٥

شاكر بك	١٨٧٧
شفيق بك	١٨٧٨
ادهم باشا	١٨٧٨
إبراهيم باشا	١٨٧٩
ضيا باشا	١٨٧٩
محمد باشا	١٨٧٩
عارف بك	١٨٨٣
إبراهيم حقي باشا	١٨٨٧
محمد افندي	١٨٨٨

خالص باشا	١٨٨٩
حسن بك	١٨٩١
ذهني بك	١٨٩٣
نسيب بك	١٨٩٤
ضيا باشا	١٨٩٤
بدري باشا	١٨٩٥
عزت باشا	١٨٩٨
جلال باشا	١٨٩٨
عبد الغني باشا	١٨٩٨
حسني باشا	١٨٩٩
عبد القادر باشا	١٩٠٠
عزيز بك	١٩٠٧
عزمي بك	١٩٠٩–١٩١٥

نقلاً عن: جمال باشا، **مذكرات جمال باشا**، اعداد محمد السعيدي، الكتاب الأول، دار الفارابي، ٢٠١٣، ٦٠٦ ص، ص ٤٩٧–٥٠٥، www.arabiabook.com في اطار سلسلة: **المجموعة التاريخية العثمانية العربية**، ١٩٠٨–١٩١٨

وثيقة ١١: مطالبة وشرط رسمي من الرئيس جمال عبد الناصر بحياد لبنان، النهار، ١٩٥٨/٤/٢

اشترط عبد الناصر اذاعة بلاغ رسمي بالمحادثات يؤكد حياد لبنان الرسمي وعدم ارتباطه بجبهة قبل زيارة الصلح لمصر او زيارة عبد الناصر لبيروت

وثيقة ١٢: مجموعة كاريكاتور لبيار صادق وأرمان حمصي معبّرة عن ضبابية مفهوم الاستقلال وذهنية تبعية ما قبل الدولة mentalité tribale pré-étatique

النهار، ٢٠٠٦/٨/١٢

يؤدي عدم رسوخ واصالة وتعميم التراث القيمي للبنان الى استعادة مغامرات واختبارات من الماضي.
كاريكاتور لبيار صادق، **النهار**، ٢٠١٠/٤/٧

النهار، ٢٠٢٠/٩/٢٥

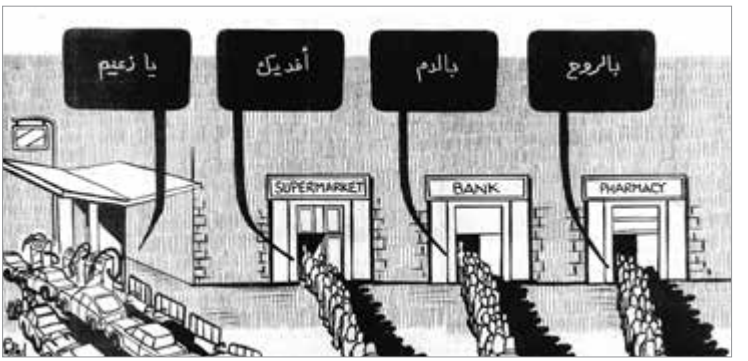

النهار، ٢٠٢١/٣/١٦

النهار، ٢٠٢١/٣/١١

النهار، ٢٠٢١/٣/٨

تراثنا الأدبيّ

بَسكال لحُّود
الراوي وشيطانُه الأعرَج:
جدليَّةُ المُضاء والمعتم في شخصيّات جبُّور الدويهي

تراثُنا التاريخيّ

هيام جورج ملاَّط
السفَّاح جمال باشا في لبنان:
١٩١٥: أول دُفعة لبنانيين منفيين إلى القدس

نبيل شحادة
«صاحبةُ السعادة» السلطانةُ بيروت
الجالسةُ سعيدةً على الشاطئ الأزرق

تراثنا البلديّ

شربل النجار
المتَين لؤْلؤَةُ المَتْنَين

الراوي وشيطانُه الأعرَج:
جدليَّةُ المُضاء والمعتم في شخصيّات جبُّور الدويهي (١٩٤٩-٢٠٢١)

بَسكال لحُود

١. قارئة، راوٍ، وشيطانان

بين مئات لوحاتٍ نذَرها للقارئات الفنُّ التشكيليُّ الأوروبِّيُّ، ولا سيَّما اعتبارًا من القرن الثامن عشر[١]، كثيرة تفترض – أو توحي – بأن الكتابَ في يد المرأة روايةٌ: كتاب دنيويٌّ في قطيعة مزدوجة مع الكتاب المقدَّس ومع الكتاب العلميِّ الجادّ. في معظم الأحيان «نحزر» أنَّها تقرأ رواية، من وضعيَّة جسمها، من احتضانها الكتابَ بدل الجلوس برهبة وخشوع إزاءه، من شرود وانفعال بادِيَين على قسماتها يوحيان باستسلامها إلى تخيُّلاتٍ تأتيها من الكتاب فتُلهيها عن الحياكة والطبخ ومهامَّ كانت كلَّ عالمها قبل أن تصبح «قارئة»... هذا، مثَلاً، ما «حزره» معاصرو الرسام شاردان عن قارئةٍ لوحته «تسالي الحياة الخاصَّة»[٢].

---

١) Robert Bared, *Le livre dans la peinture*, Paris, Citadelle & Maznod, 2015. Pauline Domont, *De l'ombre à la lumière: L'iconographie de la lectrice dans la peinture française (1700-1789)*, Mémoire de master 2 sous la direction de Philippe Martin, Université Lumière Lyon, 2015: https://www.enssib.fr/bibliotheque-numerique/documents/67088-de-l-ombre-a-la-lumiere-l-iconographie-de-la-lectrice-dans-la-peinture-francaise-1700-1789.pdf

٢) زيتيَّة جان باتيست سيميون شاردان (١٦٩٩–١٧٧٩) عام ١٧٤٦، عنوانها الأصليِّ «Les amusements de la vie privé»، حاليًّا لدى المتحف الوطنيِّ في ستوكهولم (H. 0,425 ; L. 0,355)، شارل دو سانت إيف «حزر» أن قارئة لوحة شاردان إنَّما تقرأ رواية:

«A-t-on vu rien de plus agréable qu'un petit tableau exposé au Salon de 1746 qui comme les autres ouvrages de M. Chardin a reçu l'honneur de la gravure et auquel on a donné le titre des amusements de la vie paisible? Il représente une femme assise nonchalamment dans un fauteuil, et tenant dans une main qui pose sur ses genoux, une brochure. À une sorte de langueur qui règne dans ses yeux, qu'elle fixe sur un coin du tableau, on devine qu'elle lisait un roman, et que les impressions tendres qu'elle en a reçues, la font rêver à quelqu'un qu'elle voudrait bien voir arriver!» (Charles Geoffroy De Saint-Yves, *Observations sur les Arts et sur quelques morceaux*

... وفي آخر ظُهور له مُشاركًا في الندوة الإلكترونية التي نظّمها **مركز التراث اللبناني** (LAU) عن بُعد في ١٩ تشرين الثاني ٢٠٢٠

قليلةٌ لوحاتٌ أفصَحَ عنوانها أنَّها «قارئة روايات». لا أعرف منها بهذا العنوان سوى اثنتَين: الأُولى لڤان غوخ يصفها في رسالة إلى شقيقته (١٦ تشرين الثاني ١٨٨٨): «رسَمتُ أيضًا «قارئة روايات»: الشَعر كثيف، شديد السواد، الصدريَّة خضراء، الأكمام نبيذيَّة، التنُّورة سوداء، الخلفيَّة صفراء كليًّا مع رفوف عليها كتب. وفي يدَيها كتابٌ أصفر»[٣]. وليس في نصه تفسيرُ ما الذي يجعل من الكتاب الأصفر روايةً، ولا من صاحبة الشعر الأسود الكثيف قارئةَ روايات. آثَرَ يؤثر البقاء خارج ما يحدُث بين القارئة ورواياتها، عكس أنطوان فيرتز صاحب «قارئة روايات» أخرى، يخيَّل لي أنَّ ڤان غوخ يحيل إليها في تقديم قارئته بصيغة التنكير كما لو انَّ «قارئة الروايات» نوع قائم. صوَّر فيرتز قارئتَه مستلقيَةً عارية، ثيابها ملقاة على حافَّة السرير كما لو انَّها نزعَتها لتقرأ. وما يفوت الناظر من عريِها يعوِّضه فيرتز برسم انعكاسه في مرآة. تبدو القارئة في تأثُّر شديد تشي به طريقة إمساكها بالوسادة فيما شيطان قابع تحت السرير يمدُّها بمزيد من الروايات. تُشعرنا الزاوية والتفاصيل بأنَّ عين الرسّام تلتهم جسد القارئة فيما بقي ڤان غوخ بعيدًا، لكأنَّه «عصفور» ميشال طراد الذي ذهب لرؤية «حِلْوِه بإيدَا كتاب» فاكتفى بأَنْ «سَلِّم على الحلوِه»... من بعيد.

قارئتُه لا تنتظر أن يأتي إليها أحد، كما ظنَّ سانت إيف بقارئة شاردان، ولا تُشبه «الجالسةَ وحيدةً تقرأ». وفي رواية **ملك الهند** يعرف زكريّا أنَّها «مستعدة لاستبدال كتابها السميك برجلٍ يؤْنس وحشتها ولو بكلام كاذب منمَّق تعرف أنَّه كاذب ومنمَّق»[٤]. ليست وحيدة. فالرواية تحديدًا هي النوع

de peinture exposés au Louvre en 1748, Leyde, Elias Luzac Junior, 1748, p. 90: https://gallica.bnf.fr/ark:/12148/btv1b8442814k/f2.item.zoom).

٣) الأصل الإنكليزيّ:

«I have also painted 'Une Liseuse de Romans,' the luxuriant hair very black, a green bodice, the sleeves, the color of wine leafs, the skirt black, the background all yellow, bookshelves with books. She is holding a yellow book in her hands «(Vincent Van Gogh, *The Complete Letters of Vincent van Gogh*, Vol. III, London, 1958, no. W 9, p. 448).

٤) جبُّور الدوَيهي، **ملك الهند**، بيروت، دار الساقي، ٢٠١٨، ص ٨٧.

الذي لا تكون وحيدًا عندما تقرأه، والذي يحتاج قارئه حاجة حيويَّة، إذ لا يصبح رواية إلاّ في يد قارئ/قارئة روايات[٥].

«ملك الهند»: زكريا الذي يعرف

مع ذلك، قرّاء الروايات سيِّئو السمعة عادةً، حتّى في الروايات نفسها: هم مرةً رؤُوس حالمة ترتطم بالواقع ارتطامًا كما عند فلوبير ودوماپاسان، ومرةً أخرى «رؤوس حامية» كما عند جورج صاند، ومرةً ذوو وعي ثوريٍّ ضعيف وأفكار غريبة كما يصفُهم جبُّور الدوَيهي[٦]. إنهم، بطريقة أو بأخرى، تحت تأثير «شيطان» الرواية الذي يشرِّع أذهانهم لتأثير المرويّ. ولكنْ... ماذا عن شيطان على مقلب آخر يعطي الروائيِّين القدرة على سبر أذهان شخصيّاتهم؟ تخيَّله ألان لوساج[٧] يكافئ من أخرجه من القمقم بجعلِه قادرًا على رؤية أحلام النائمين، ومعرفة الدوافع الخفيَّة لأعمال البشر وأقوالهم، وسماع ما يقولونه لأنفسهم كمن يرفع سقف بيت الروح لينظر داخلها.

٢. الدوَيهي وپروتوكولات الضوء

تشفُّ الشخصيّات أمام الراوي فيُنصت لأفكارها، إن أراد، وقد يعرف عن خبايا ذهنها ما ليست هي تعرفه. وفي هذه القدرة السحريَّة اللاواقعيَّة

٥) François Flahault, «Récits de fiction et représentations partagées», *L'Homme*, juillet-septembre 2005, 175–176, «La différence entre fiction et réalité (plus précisément entre le récit de fiction et le récit qui rend compte d'une réalité) ne tient donc pas à la nature même du récit mais à la posture mentale adoptée par le lecteur (ou l'auditeur, ou le spectateur)» (p. 37).

٦) جبُّور الدويهي، **شريد المنازل**، بيروت، ط ٣، دار الساقي، ٢٠١٥، ص ١٢٦: «في البداية اعترض الرفيق ريمون على إشراك نظام في اجتماعاتهم متذرِّعًا بعناوين الروايات التي كان نظام يخلفها في أرجاء البيت، مشيرًا إلى وعيه الثوريِّ الضعيف وبعض الآراء الغريبة التي يطلقها أحيانًا».

٧) في حين تعيد آن مورل بداية الاستكشاف الروائيِّ للوجدان إلى جوزف جوبير الذي لم تُنشَر «دفاترُه» إلا عام ١٨٣٨، يذهب جان-لوي كريتيان إلى اعتبار رواية لوساج **الشيطان الأعرج** (١٧٠٧) أوَّل إرهاصات النوع.
Anne Maurel, *Le Pays intérieur: Voyage au centre du moi. Anthologie des penseurs européens* (1770–1936), Paris, Robert Laffont, 2008.
Jean-Louis Chretien, *Conscience et roman I: La conscience au grand jour*, Paris, Minuit, 2009.

تكمن أقوى عناصر واقعيَّة الرواية[٨]. لكنَّ السحر لا يعمل كما ينبغي إلاّ متى شفَّ الراوي بدوره وخفَتَ صوته كي يفعل شيطانًا الرواية فعلهما. وهذه علاقة عكسيَّة أرساها هنري جايمس بين حضور الراوي وعمق شخصيّاته: كلَّما ارتفع صوت الراوي وثَقُل حضوره في النصِّ خفَتَتْ قدرته على كشف أعماق شخصيّاته أو على خلق شخصيّات لها عمق تُظهِره[٩]، إذ يصعب على الراوي الجهير أن يترك أحدًا سواه يفكِّر، كأنَّ بينه وبين شخصيّاته تنافسًا[١٠].

جبّور مع مترجمته إلى الإنكليزية بولا حيدر، والدكتور عدنان حيدر (زغرتا ٢٠١٧)

جبُّور الدويهي صوتُه خفيضٌ في نصِّه وصارم. يدخل في شخوصه ويَخرج منهم بخفَّة تحجُب عجائبيَّة القدرة الروائيَّة في التلصُّص على أفكار شخوصها. وعلى ضفَّتي الحد بين الخارج والداخل يجرُّ أسلوبه «ذيل مرط مرحَّل»: يروي الحدث والخاطر بالأسلوب نفسه والضمير نفسه، وأحيانًا الزمن نفسه، مؤْثرًا في معظم الأحيان تقنية المونولوغ المسرود (Narrated monologue) بانتقالات رشيقة بين حديث الشخصيَّة الداخليِّ ووصف الأحداث من الخارج: «تبتسم ولا تشبع هي أيضًا من تفحُّصه؛ **إنَّه يطابق فكرتها عن الرجل**. يجيبُها بعد جرعتَين من النبيذ أنَّها فاجأَتْه في باريس...»[١١].

خرائطُ الدواخل المتاح دخولها، أو «الأذهان الشفافة»، وتلك التي لا، في روايةٍ ما، إنما ترتبط بحقل الرؤية الذي يعتمده الراوي، إلا أنَّ الدويهي لا ينفكُّ يعدِّل صلاحيّاته ضمن الرواية الواحدة، فتتَّسع زاويته وتضيق انتقائيًّا تبعًا لجدليَّة الداخل والخارج التي يزيدها جذريَّةً الأسلوبُ الموحَّدُ ويجعلها عنصرًا أساسيًّا من عناصر الحبكة الدويهيَّة.

---

٨) Dorrit Cohn, *Transparent Minds: Narrative Modes of Presenting Consciousness in Fiction*, New Jersey, Princeton University Press, 1978, p. 7.

٩) Henry James, *The Princess Casamassima* (1885–1886), Preface to the *New York Edition* version (1907–1909).

١٠) Wayne C. Booth, *The Rhetoric of Fiction*, Chicago, 1961, p. 164.

١١) جبُّور الدويهي، **ملك الهند**، ص ٧٦.

رواية **شريد المنازل** سيرة مفصَّلة لـ«نظَام العَلَمي» المرتبط به كلُّ ما يحدث فيها. يلحق السارد بـ«نظام» لكنَّه لا يتبنى زاوية نظره. فالسرد يبدأ قبل تعرُّفنا بـ«نظام» ويستمرُّ في غيابه وبعد وفاته. لا يلتزم الدويهي هنا بالتَبْئير الداخليِّ ولا بالتَبْئير صفر (التبئيرُ Focalisation: تقليصُ حقل الرؤْية عند الراوي وحصْر معلوماته، فيجري السرد عبر بؤْرة تحدد إطار الرؤْية وتحصره). نخاله في البداية ساردًا كلِّيَّ المعرفة، وفجأة يختار ألاّ يعرف. هكذا تتخطى معرفته بالعالم معرفة «نظام» (لذا يسرد ما يحصل في غيابه وبعد وفاته)؛ وتتخطى معرفته بـ«نظام» معرفة هذا الأخير بنفسه. تصله رسالة «جنان» بعد طول انتظار فيتدخَّل السارد محلِّلاً مشاعر «نظام» بما يتخطّى وعيَه ذاتَه: «لو تبصَّر نظام في أحاسيسه الماضية لأدرك أن دعوة جنان المتجدِّدة له تشبه المرَّة الثانية التي شرَّع فيه توما باب البستان أمامه. باب الجنَّة يفتح مرَّتين»[١٢]. أو قول الدويهي في مكان آخر: «تعلَّق بها فزاد تسامحُه مع الآخرين وزادت نزعتُه للإنفاق»[١٣]. كأنه يتحدث مع القارئ من خلف ظهر «نظام». لكنَّ السارد الذي يدرك من «نظام» أعماقَه التي لا يدركها هو، لا يتمتَّع بالمعرفة نفسها في ما يخصُّ باقي الشخصيّات، بل له مع كلٍّ منها بروتوكول خاصّ. هكذا تشفُّ رخيمة، ويعتم بلال وتلتبس أولغا. فإذْ تبكي رخيمة يعرف الدويهي أنَّها «بكت لأنَّ «نظام» سمَّاها أمي، ولأنها اشتاقت رؤيتَه، ولأنَّه جاء إليهما، ولأنَّه سيقْفل عائدًا بعد وقت قصير، ولأنَّه صار رجلاً ترافقه النساء»[١٤]. أمّا بلال فلا يعرف الدويهي مغزى ابتسامته: «ابتسم بلال في إشارة إلى أنَّه فهم مقصد شقيقه من السؤال، أو لأنَّه من هؤلاء الذين يبتسمون ردًّا على كلِّ ما يقال في حضورهم»[١٥]. ولا يعرف كذلك إن كانت أولغا «تبكي من الحرقة المصطنعة أو الحقيقيَّة»[١٦]، وإذ يجمعها مع «نظام» في سرير واحدٍ يُبقي على تعامله المختلف مع ذهن كلٍّ منهما: «بلَغا الذروة معًا، أو ادَّعت أنَّها بلغتها هي أيضًا»[١٧].

١٢) جبُّور الدويهي، **شريد المنازل**، ص ١٦٢.
١٣) نفسه، ص ١٦٣.
١٤) نفسه، ص ١٧٣.
١٥) نفسه، ص ٢٠٢.
١٦) نفسه، ص ٢١٨.
١٧) نفسه، ص ٢٣٤.

٣. من قال أنا؟

إن الدويهي، في نقله أفكارَ شخصيّاته، لا يبلغ حدَّ التحدُّث بصيغة الـ«أنا»، وقلَّما يستعمل تقنية المونولوغ المنسوب (quoted monologue). وإذا أتاح لشخصيّاته فرصة البوح بأفكارهم بصيغة المتكلِّم، يفتعل حاملاً ماديًّا أو وسيطًا، وينقل مضمونه بحياد المراقب ويميِّزه كتابةً وطباعةً عن باقي الرواية. قد يكون الحاملُ-الوسيطُ رسالةً ملصقة على الزجاج، كرسالة ڤاليريا إلى عبد الكريم العزّام في **حيّ الأميركان**: «أنا مجنونة مثل أمّي... أحطّم قلبي وقلبك وأرحل»[١٨]. وقد يكون روايةً مستعادة كرواية بهيَّة المراد في **ملك الهند**: «أوَّل مرة قبَّلتُ فيها خطيبي كان ميتًا مرميًّا على الأرض (...) عانقتُ والدي الذي لم يعانقني مرَّةً في حياته (...) حاولت البكاء لكن احترق الدمع في عينيَّ»؛ أو قد يكون دفترَ مذكِّرات كدفتر إيميلي[١٩]: «بكيت دموع جسدي كلَّها»[٢٠]...

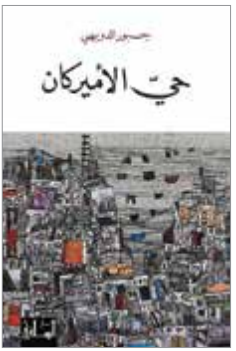

«حي الأميركان»: «انا مجنونة مثل أمّي»

اللافتُ في هذه المقاطع احتواؤُها غالبًا كثافةً عاطفيَّة وجدانيَّة لا يسمح بها الدويهي لنفسه، هو المعتبِرُ الروايةَ فلشًا للعالم لا تكثيفًا له[٢١]، فيحجر على فيض العواطف والانفعالات في بوح ينسبه إلى شخصيّاته بصيغة الـ«أنا»، ويبقى هو في موقع خارجيٍّ، ينقل ما سُمع أو قُرِئَ من وجدانيّات شخصيّاته. وعندها تتَّضح صُوَرُهم فيبدون فجأة كجاين مولوي، جاين المصيبة: أذكى ممَّا يبدون عليه ويكتبون أفضل مما يتكلَّمون.

وللكلام عند الدويهي قصَّة أخرى: يشكِّك غالبًا برواية شخصيّاته عن أنفسهم، ويُحيط حديثهم عن مشاعرهم بشيْء من السخرية: جنان «تفقد رغبتها في الرسم، تقولُها بلهفة كأنَّها ترى رغبتها هذه بأمِّ العين تمشي على قدمَين مبتعدة عنها»[٢٢]. هو عادةً أعرَف منهم بأنفسهم، وحديثهم مع/عن أنفسهم غالبًا ما يكون مقدِّمة بناء «أنا» زائف. من تحيط شبهة اللاصدق

---

١٨) جبُّور الدويهي، **حيّ الأميركان**، بيروت، دار الساقي، ط ٢، ٢٠١٥، ص ٨٥.

١٩) نفسه، ص ٥٢–٥٣.

٢٠) نفسه، ص ٥٢.

٢١) راع نصّ المقابلة التي أجراها معه إدغار دافيديان في صحيفة **L'Orient-Le Jour**، في ١٥ أيّار ٢٠١٩.

٢٢) **شريد المنازل**، ص ١٨٧.

بشخصيّاته التي «تجيد» الكلام: فريد أبو شعر (**طُبع في بيروت**)، السيِّدة ذات الفساتين الزرقاء (**ملك الهند**)[٢٣]؛ إيليّا الكفوري الذي يعيد تأليف هويَّته على الطلب (**مطر حزيران**)، دانيال الذي يبحث عن حجر الفلسفة[٢٤]، وينتقل إلى التحدُّث بالفصحى، مغيِّرًا لهجته، ما إن يفتح سيرة موسى[٢٥] الذي لا تعرف ريّا، وربَّما لن تعرف أبدًا، هل هو معها أو ضدَّها[٢٦]. وها زكريّا «يخلط بسهولة فائقة بين الأحاسيس الصادقة وتلك المستعارة من بعض مطالعاته أو من كلام الآخرين عن الغرام»[٢٧]، ولا يغدو قابلاً للتصديق إلاّ متى «فقَد بلاغته وجعَله صدق مشاعره متلعثمًا لا يكمل جملة»[٢٨]، فينتقل عندها إلى ضفّة الشخصيات الأكثر «مصداقيَّة» كريّا التي «كانت تتمنّى أن تُحْسن الكلام مثل أمِّها»[٢٩] وجاين التي تكتب أفضل مما تتكلَّم.

«مطر حزيران»: هوية على الطلب

إذا كان أسلوب الدويهي يطمس الفوارق اللغويَّة بين الداخل والخارج، فليس لمحو الهوَّة بينهما أو إلغائها، بل ليحفرها بشكل أكثر جذريَّة يعطي اقتفاءها في رواياته دورًا مفتاحيًّا. هذا ما نحاول تبيانه فيما يلي حول ثلاثة من شخصياته: ريّا وفريد وزكريا.

٤. ريّا أو سجينة العراء

مأساة ريّا أنَّها «أمضت حياتها في أمكنة مشرَّعة» لكأنَّها ملقاة على قارعة الحياة. تسكن وتعمل في دوّارٍ «أشبه بالطريق العامَّة». بقيَت تدافع قدر الإمكان عن الطابق العلويِّ فيه «حتّى رجع موسى بشاره واحتلَّه

٢٣) نفسه، ص ٧١.
٢٤) نفسه، ص ٥٨.
٢٥) نفسه، ص ٥٩.
٢٦) نفسه، ص ١٠٨.
٢٧) نفسه، ص ٧٧.
٢٨) نفسه، ص ٨٨.
٢٩) نفسه، ص ١٠٠.

الطبعة الإنكليزية من «مطر حزيران»
بترجمة بولا حيدر

وأجبرها على كرِّ خيط حياتها من أوَّله»[٣٠]. مأساتها أنَّها تريد أن تكون على المقلب الآخر، في الداخل، فـ«طالما حلمَت ببَيت لها ولِرامي (ابنها)، بيت مقفل لا أحد يملك مفتاحه غيرها»[٣١]، لكنَّها عوضًا عن ذلك فوجئت بموسى يعود من المهجر «... ويفتح أبواب حياتها على مصراعيها»[٣٢]. جدليَّة الداخل والخارج في صلب الحبكة.

ذهْن ريا مشرَّع للراوي، بل شرفةُ الراوي الوحيدةُ لا يملك أن يطلَّ على الأحداث من سواها. لذا لن نعرف الباقين سوى بعينَيها، فنستدلُّ على أفكارهم ومشاعرهم من خلال مؤشِّرات خارجية. فنعرف، مثلاً، أنَّ رامي اعتقد أنَّها تمازحُه عندما قالت له إنَّ مدرستها كانت «هنا» حيث لم يرَ شيئًا، لأنَّه ضحك وأصرَّ على رؤية المدرسة[٣٣].

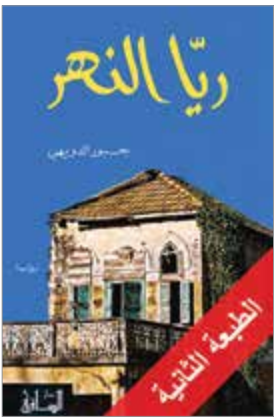

«ريا النهر» أوتوبيوغرافيا داخلية جدًّا

في **ريّا النهر** نكاد نشعر أنَّ ريّا تروي حياتها بنفسها: لا شيء في الرواية يحدث خارج ما تعيشُه وتقولُه. لكنَّ هذه الريّا الحاضرة دائمًا و«تخاف الغياب»[٣٤]، تحْضر بصوت الغائبة. كأنَّ هذا الانزياح يقول «لاسُكْناها» في نفسها أو يبرِّر بقاء سرِّ مقتل موسى موصَدًا في «طابق علويٍّ» محميٍّ داخل «أنا»ها المشرَّع مبدئيًّا للسارد ولنا. هكذا نجدنا أمام نصٍّ من طبقات ثلاث: الأحداث الخارجيَّة (غالبًا بصيغة الماضي)، حديث ريّا الداخليّ (منقولاً بضمير الغائب، وغالبًا صيغة المضارع)، إضافة إلى نُتَف تظهر هنا وهناك تأتينا كأنَّها اقتُطعت اقتِطاعًا من ذهنها فبقيت بصيغة المتكلِّم أو ما يجاورها، كأن تقول «يا ربّ بلا جبر» أو «اللّه يسترنا»:

---

٣٠) جبُّور الدويهي، **ريّا النهر**، بيروت، دار الساقي، ط٢ ، ٢٠١٥، ص ١٠١-١٠٢.
٣١) نفسه، ص ١٠٣.
٣٢) نفسه، ص ١٣٤.
٣٣) نفسه، ص ٥٦.
٣٤) نفسه، ص ١٢٤.

«سلوى وروميو! كم مرَّة تخيَّلتُ وصولَهما في اليومَين الماضيَين. لن تتمكَّن سلوى من النزول وحدها وستضطرُّ للاتِّكاء على شقيقها، عرجاء وفاجرة، **يا ربّ بلا جبر!** لم تأتِ إلى بَيت الأخويَّة ولا إلى الكنيسة. رأتها ريّا في منامها ليلة أمس...»[٣٥]. (...) «قصدَتِ الغرفة دون تردُّد حتّى أنَّها أعملت كعب حذائها في بلاط الممشى خبْطًا، **وليسمعْها من يسمعها**، لتسمعْها سعيدة داخلة إلى غرفة موسى!»[٣٦] (...) «لم يكن في لهجة محمود أيُّ مزاح خلافًا لعادَته. إنَّه الآن وحده مع سعيدة، **ليسترنا الله!**»[٣٧].

في حياتها المفتوحة على مصاريعها، مُشرَّعة للقيل والقال محرومة أدنى درجات الحميميَّة، هي معتصمة داخل «أَنا»ها. يرافقها الدويهي طالما هي في صراع مع حياة لا تنفكُّ «توجِّه إليها صفعات متتالية» لذا «تحلم أحيانًا بإمكان تحاشي الحياة»[٣٨]، فـ«منذ سنوات طويلة لم يعد لدى الدنيا هدايا تقدِّمها إليها»[٣٩].

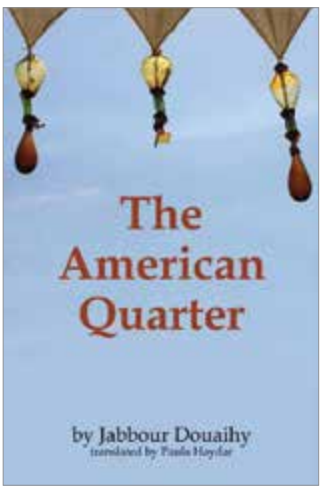

الطبعة الإنكليزية من «حي الأميركان» بترجمة بولا حيدر

هذا الداخلُ الذي عنوانه تلازم ريّا-الراوي يبقى حتّى تنقلب الآية: يصبح موسى وقصَّتُه قفصًا لا تريده أن يُطْبِق عليها[٤٠] وتقرِّر أنَّ حياتها ستظلُّ مشرَّعة «يدخل إليها الناس ويخرجون من دون استئذان»، وأنَّها غيرَت برنامج أحلامها و«لن تعيش وحدها مع رامي بين أربعة حيطان»[٤١]، وأنَّها لن تحاول بعدُ تحاشي الحياة: «لن تهرب، فالحياة لن تحصل في غيابها»[٤٢].

ثنائيَّة الأحداث/الأفكار، الداخل/الخارج، تختفي لأنَّ ريّا ما عادت تريد

٣٥) نفسه، ص ٥٤.
٣٦) نفسه، ص ١٢٨.
٣٧) نفسه، ص ٧٢.
٣٨) نفسه، ص ١٤٠.
٣٩) نفسه، ص ٩٧.
٤٠) نفسه، ص ١٧٣.
٤١) نفسه، ص ١٧٣.
٤٢) نفسه، ص ١٧٥.

الاحتماء في الداخل بل «تودُّ إعلان استسلامها بصوت عال»[٤٣]. لا حاجة بعد لسَمَرها مع الراوي، شريك موسى في كرِّ خيط حياتها من أوله وفتْحها على مصراعَيها. لذا يتوقَّف السرد من حيث بدأ: «بعد الأب والأمِّ كلُّ الأهل جيران»[٤٤].

٥. زكريّا مبارك أو الـ «أنا» القتيل

في **ملك الهند** يبدو الدويهي أقلَّ لصوقًا بشخصيَّته الأساسيَّة: زكريّا بن ابراهيم مبارك الذي يقول لنا، في مطلع الرواية، إنَّه عاد إلى تلّ صفرا «في مطلع الصيف مع موسم الكرز وجبنة الماعز»[٤٥]. لكنَّ هذا الـ«ابراهيم» مُقفَل في وجهنا ووجه الآخرين. لا نعرف من ذاكرته التي يدوس عليها[٤٦] سوى أنَّه أراد ذات يوم أن ينتحر عن أحد جسور باريس أو نيويورك. يحتفظ له الدويهي بعتامة شبه تامَّة في بداية الرواية: يرنُّ هاتفه فـ«ينظر إلى الشاشة ويتجاهل المكالمة»، تريد أخته «أن تعرف هل تزوَّج أو له أولاد، فلا يجيب»[٤٧]، وإذا أجاب فبمطٍّ الشفتين أو «بعبارات قليلة»[٤٨]. يهرب من فضول بائع الجرائد[٤٩]، ويَصْفق باب الحديث بوجه صاحبة الفرن سألَتْه إذا كان يريد شيئًا: «سلامتك».

في نهاية الفصل الأوَّل لا يعود زكريّا مضطرًّا للتظاهر بالنوم. يصفُه الدويهي جالسًا «كمَن كان يستريح وغفا»[٥٠]، لكنَّه ميت! عيناه مفتوحتان «ربَّما لا تصدِّقان ما حدث، وتقاسيم وجهه تعبِّر عن وجع الأرجحُ أنَّه شعر ببدايته ولن يذوق تمامه»[٥١]. مات زكريّا محتفظًا خلف عينَيه المفتوحتَين بسرِّ «ما حدث». مشى الدويهي مع زكريّا باتِّجاه كرم المحموديَّة لكنَّه غادره لَحظَتَئذٍ ليبقى «ما حدث» سرًّا في عينين مفتوحتَين.

---

٤٣) نفسه، ص ١٧٤.
٤٤) نفسه، ص ٧ و١٧٦.
٤٥) **ملك الهند**، ص ٦.
٤٦) نفسه، ص ٩.
٤٧) نفسه، ص ٨.
٤٨) نفسه، ص ٩.
٤٩) نفسه، ص ٩–١٠.
٥٠) نفسه، ص ١٤.
٥١) نفسه، ص ١٥.

في **ريّا النهر**، عكْسَ التوزيع الصارم لما يُرى وما لا يُرى من الدواخل، يضيء الدويهي أذهان شخصيّاته انتقائيًّا، فينقل لنا أفكار تلميذ كلِّيَّة الطبِّ الذي يفكِّر إنْ عليه التبليغُ أنَّه رأى مسدسًا قرب الجثَّة[٥٢]، فيما يختار ألاّ يحسم ما مرَّ في ذهن الطبيب: «رفع الطبيب كتفَيه ومطَّ شفتَيه. ربَّما شكَّك في ما استنتجه حول الجريمة أو لم يصدِّق كلام الرقيب»[٥٣].

بعدها يسيل الزمن في **ملك الهند** وينصاع لجميع أنواع الاستباق والاسترجاع والتذكُّر والتوقُّع. لا اتِّجاه ممنوعًا عليه، جميع الاتِّجاهات مباحة، وجميع الأذهان متاحة. يتجوَّل الدويهي بين شخصيّاته، يدخل أذهانهم ويخرج، بل يسافر في الزمن ليُنصت إلى ما قالوه لأنفسهم في المهاجر منذ عقود. يعود إلى الجدَّة فلومينا «التي أوصلَتْنا إلى هنا» (وفْقَ تعبير أخت زكريّا)، يقرأ أفكارها على متن باخرة أقلَّتها إلى مرسيليا فيكتشف: «اعتقدت أنَّها ستموت هناك معلَّقة بين السماء والماء، وقمم جبل لبنان لا تزال تحت نظرها»[٥٤]، ثمَّ يستقبلها في بروكلين مع المسيو لاغرانج الذي رحَّب بها «قائلاً في سرِّه إنَّ القدر أرسل إليه هذا الوجه الصبوح»[٥٥]. لكنَّه يخصُّ زكريّا بالقسط الأكبر من ألعاب الإضاءة. يجول معه في مغامراته العاطفيَّة فيبدو معتمدًا البثَّ المباشر من داخل الشخصيَّة، مقاطعًا إيّاه من وقت لآخر بجملة تحليليَّة يتيحها امتيازه المعرفيُّ على شخصيّاته كما: «كانت المصادفات، أو ربَّما نزعة دفينة لديه، تضعُه دائمًا على طريق نساء أكبرَ منه سنًّا»[٥٦]، أو «استمرّا هكذا يتوهَّمان أنَّ ما نسجَتْه لهما المصادفة نادر»[٥٧]، أو «بعد أن أنهيا تفاهمهما العاطفيَّ، وهو العقد الشائع بين المتحابِّين في بداية الطريق، ولا بدَّ أنَّ الإثنين أبرما عددًا منه خلال تجاربهما العاطفيَّة السابقة»[٥٨]. هنا يبدو الراوي أعرف بزكريّا من زكريّا نفسه، يعرف «طبعه الأصليَّ»[٥٩]، لذا لا تغشُّه التوبات الموقَّتة وإن آمَن بها صاحبها. ويدخل الدويهي ذهن زكريّا حين «يتأمَّل حاله مع

٥٢) نفسه، ص ١٧.
٥٣) نفسه، ص ٢٠.
٥٤) نفسه، ص ٢٦.
٥٥) نفسه، ص ٢٧.
٥٦) نفسه، ص ٧٢.
٥٧) نفسه، ص ٧٦.
٥٨) نفسه، ص ٧٨.
٥٩) نفسه، ص ٨٧.

ماتيلد» ويقرِّر هجرها، ثمَّ يقارن بين ما يعرفُه من داخل الشخصيَّة وما لا يمكن معرفته من الخارج: «وكان صعبًا التنبُّؤ بأنَّ سبب ابتسامته العريضة كلَّما رآها، وقبلاته التي استعادت بعض حراراتها، هو اقتراب ساعة تحرُّره». ثمَّ يعيد خلط الأوراق ليقول إنَّ هذا الرحيل الذي اعتقد زكريّا والسارد معًا أنْ لا أحد يتوقَّعه. لم يفاجئ أحدًا كأنَّه «كان متوقَّعًا». وإلى امتيازاته المعرفيَّة يستعمل سارد **ملك الهند** ما تسمِّيه دوريت كون الامتياز الأخلاقيَّ: فيصف هجر زكريّا ماتيلد بالفعلة الدنيئة واللئيمة[٦٠].

وكلَّما توسَّع السرد ذهابًا وإيابًا بين حياة زكريّا وعائلتِه ومنطقتِه وتفاصيل تقدُّم التحقيق في ملابسات مقتله، نكتشف أنَّ انسحاب الراوي من ذهن زكريّا بدأ قبل حادثة كرم المحموديَّة، يوم ميتتِه الأولى، يوم «هزمَتْه الحياة بالضربة القاضية»[٦١]. قتلَتْهُ «امرأة لا يتجاوز عمرها الستَّ سنوات»[٦٢]. لا يعود له «داخل» بعد هذه اللحظة، لا يعود إنسانًا بل إناءً مليئًا رمادًا مختومًا عليه باسم ماري. لا داخل له، صوته الداخليُّ ما عاد يُحتمل، يُسكِتُه زكريّا بالأقراص المنوِّمة والويسكي. «يتكوَّم في السرير، يتَّخذ وضعيَّة الطفل في أحشاء أمه، يرفع الغطاء إلى فوق رأسه ويهرب من الصوَر التي تلحُّ عليه (...). يوقف من وقت لآخر خيط أفكاره وذكرياته بصوت حادٍّ يطلقه نحو السماء»[٦٣]. يغطِّي رأسه من الخارج هربًا من صوَر في رأسه، يصرخ عاليًا هربًا من صوت داخله، يحمل «داخله»/قلبه/ابنته في الخارج/قارورة زجاجيَّة. لا شيء يأتينا من داخل ذهنه. الرجل الذي يجيد الكلام الكاذب والمنمَّق ما عاد يقوى على اللفِّ والدوران: «لا قدرة له على ذلك». يبقى سرُّ «ما حدث» مدفونًا في حِداد زكريّا، والحِداد هذا أكثف وأعتم من أن يُضاء: «رجَحَت لديه في النهاية فكرةُ أن يرقد هنا بين أقاربه وأهل بلدته»[٦٤]، لذا ربَّما زار المقبرة وتداول مع وكيل الوقف في كلفة ترميمها. لعلَّه انتحر إذًا. بل هو قُتل. والدليل أنَّه كتب في دفتر إيميلي: «أريد أن أعيش من أجل ابنتي ماري، من أجل أن تبقى في ذاكرة أحد، إذا انطفأْتُ ينطفئ ذكراها، وقد أجدُ هنا في بلادي أسبابًا للاستمرار من أجلها»[٦٥]. قد يجِد، وقد لا، فيعود وينتحر كما تنبّأ المساعد

---

٦٠) نفسه، ص ٨٥–٨٧.
٦١) نفسه، ص ٩٠.
٦٢) نفسه، ص ٩١.
٦٣) نفسه، ص ٩٠.
٦٤) نفسه، ص ١٠.
٦٥) نفسه، ص ١٩٠.

الاجتماعيُّ الذي عاينه بعد مقتل ابنته[٦٦]. لن نعرف. ما نعرفه أنَّه مات قبل أن يموت. قتلَتْه طفلة قد يكون انتحر من أجلها أو قرَّر أن يعيش ميتًا رغم سلاسل تشدُّ به إلى الجحيم. أمّا اللغز الذي يهمُّ الضيعة والقضاء والأجهزة الأمنيَّة وروّاد تويتر فلا يحتمِل أن يبقى معتمًا، لذا يضيء جبُّور الدويهي ذهن المحقِّق ويُسمعنا إيّاه بصيغة «المونولوغ المنسوب»، يختار من الاحتمالات جميعها «الميتةَ الأقلَّ ضررًا والأخفَّ لبكة»[٦٧].

٦. فريد بو شعر أو الـ«أنا» الموصَد

تشفُّ «أنا» ريّا باستثناء «طابق علويّ» يحوي سرَّ جريمة اقترفَتْها فعلاً أو تمنِّيًا، ويشفُّ زكريّا ما خلا ثقبًا أسود هو حدادُه على فقيدته/قاتِلتِه، أمّا فريد أبو شعر في **طُبِع في بيروت** فمُقفل إقفالاً هرمسيًّا. لا نعرف الكثير عمّا يدور في خاطر هذا «البطل-رغمًا-عنه»، مع أنَّه يفضِّل «التحدُّث مع نفسه على تحمُّل الثرثرة والمزاح المتكلِّف»[٦٨]، و«ينحت تعابيره كأنَّ هناك من يسمعها ويدوِّنها مباشرة في دفتر البلاغة الأزليِّ»[٦٩]. كأنَّ حديثًا داخليًّا كهذا يجمع الغزارة (المتأتِّية من تفضيله على الكلام مع آخرين) والأسلوب، وينبغي أن يغري الراوي بالتلصُّص عليه. ومع ذلك لا يقول لنا شيئًا يُذكر عن هذه البلاغة الصامتة. لا يجد حوله أيَّ حديث جديرًا بمقاطعة حديثه الداخليِّ، ولا يعطينا الدويهي أيَّ تفصيل عن حديثه الداخليِّ. يحمل كتابه، كما لو كان ذاتًا خارجيَّة، ففيه «عصارة كيانه». وطالما العصارة في الكتاب، في الخارج، لا يبقَى في الذات ما يستحقُّ أن يُروى. لكنَّ الكتاب أيضًا موصَد في وَجهنا. نعرف أنَّه ليس شعرًا[٧٠] ولا شيء سوى

«طُبع في بيروت»: فريد أبو شعر في الإقفال الهرمسي

٦٦) نفسه، ص ١٨٠.
٦٧) نفسه، ص ١٩١.
٦٨) نفسه ، ص ٢٤.
٦٩) نفسه، ص ١٦٩.
٧٠) نفسه، ص ٨.

ذلك. عنوانه، «الكتاب»، قلَّما يبدِّد الغموض. والكاتب لم يجد مَن يهدي إليه الكتاب سوى نفسه[٧١]. وإذا الكتاب الذي لا يمكن أن يُقرأ من عنوانه ولا من إهدائه تجاوز رفضَ الناشرين له ونجح في اجتياز باب المطبعة إلى المكتبات، فإنَّ فريدًا لا يرضى له بأن يكون «كتابًا مفتوحًا»، بل يجب أن «تحميه صفحاتُه المطويَّة بعضها على بعض فلا يدخل إليه قارئ حشريٌّ عابر صدفةً أمام رفوف مكتبة»[٧٢]. مع ذلك يسترق الراوي السمْع إلى عالم فريد الذهنيِّ. يضيِّع كتابه فنظنُّ أنَّنا نسمعه، لمرَّةٍ، يفكِّر. يسُمعنا الراوي إيّاه يقول في نفسه: «إعادة الكتابة تشبه الأكلة المسخَّنة التي تحاول أمُّه إقناعه بها يوم لا تفتح نفسها على إعداد طبخة جديدة»[٧٣]. ننتبه إلى أنَّ الجملة ليست منه. تبدو تدخُّلاً دويهيًّا في أفكاره. العاري المكسور الذي ينتابه خوف عميق من أن تبتلع لجَّة النسيان السوداء ذكرياته، والذي يخشى أن تشوبَ حديثَه مع نفسه شوائبُ أقلُّ كثافةً ونبلاً من «عصارة الكيان»، ليس هو ذاته من قد يخفُّ ويظرف حتّى يشبِّه إعادةَ الكتابة بـ«الأكلة البائتة». إنه جبُّور يتدخَّل في «تحرير» أفكار فريد تخفيفًا ثقْلَ فجيعة تخرج من فمِه محرَّكَةً منوَّنَة، إمعانًا في جوٍّ سخرية يخيِّم على **طُبع في بيروت** بشكل عامٍّ وعلى فريد بشكل خاصّ، هو الذي لم يصادق أحدًا، لذا هو موصَد إزاء زملائه من الشخصيّات أيضًا. له في الرواية حبيبتان كلتاهما معجبةٌ بلُغتِه التي لا تفهمها. بيرسيفون «مدَّت يدها اليمنى بحركة لاإراديَّة باتِّجاه المخطوطة كأنَّ هذه «العصارة» ستكون بادية فيها ما إن تقلِّب صفحاتها»[٧٤]. وإذا استثنينا كلبًا نبَح جوابًا عن إلقاء فريد مقاطِعَ من كتابه قبالة معبد باخوس[٧٥]، فلُونا هي الوحيدة التي قرأ عليها بعضَ ما في كتابه. لكنّ لونا لا تفهم العربيَّة. وما حاجتها للفهم؟ المهمُّ أن تطرب، ففريد يهتمُّ بالطرب أكثر من اهتمامه بالتفكير. لمّا قرأ ما ورد في مقدِّمة كتاب **المواقف** لمحمد بن عبد الجبار بن حسن النفَّري أنَّ موضوع الكتاب هو «القبض على تفتُّح الذات على الوجود الداخليِّ الصرف الذي تكتنزه من الأزل (...) أطربه الوجود الداخليُّ الأزليُّ الصرف هذا (...) فشعر بالحاجة الملحَّة إلى الكتابة من دون أن تحضره فكرة بعينها»[٧٦]. إنه إذًا

---

٧١) نفسه، ص ٣٠.

٧٢) نفسه، ص ٣١.

٧٣) نفسه، ص ٥٣.

٧٤) نفسه، ص ١٢.

٧٥) نفسه، ص ١٢١.

٧٦) نفسه، ص ١٢٢.

كاتب ولا أفكار. حين يأتيه الوحي وينتشله من نومه، لا يأتيه فكرةً بل عبارة[٧٧]. «أناهُ» موصَدٌ حدَّ إنكار الواقع: تحترق المطبعة، يعود الزوجان كرم معًا، يذهب هو إلى السجن، ينشأ تنظيم الدولة الإسلاميَّة في العراق والشام ويملأ الشاشات رعبًا. أمّا عالمه فعلى قياس المسافة بينه وبين دفتره الأحمر. عالم يتقلَّص في نهاية الرواية إذ يضمُّ فريد «كيانه» إلى صدره «وقد صمَّم على ألاّ يضيع منه، ويستسلم بعدها «لقيلولة لم يحظ بها من زمن طويل»[٧٨]. وعكسَ «نصوص» في روايات أخرى تملأ من الخارج ثقوب معرفتنا «الداخليَّة» بالشخصيّات، جاء نصُّ فريد ذهنًا مغلقًا، لا لأنَّ فيه ما يفوق الوصف، ولا لأنَّ ألمه، كألم زكريا، يفوق الاحتمال، بل لأن ليس فيه ما يستحقُّ السرد.

٧. البستان واليراعة

الروائيُّون، في تصويرهم الحياةَ الذهنيَّةَ، يقفون على الفالق المعرفيِّ الأقدم: ما شعورُ أن تكون وطواطًا؟[٧٩]، وأن تكون ريّا أو زكريّا؟ يمكن اختصاره هكذا، أو اعتماد أيٍّ من أسمائه التقنيَّة الكثيرة: هو الفالق التفسيريُّ عند ليفين، أو الثنائيَّة الدلاليَّة عند ريكور، أو ثنائيَّة وجهات المعرفة عند هابرماس[٨٠]. الفالق قائم ومستحيل التجسير، فلا فرق إن كنت تؤمن بوجود روح «هبطَت إليك من المحلِّ الأرفع» أو كُنت تعتبر الحياة الذهنيَّة إفرازًا دماغيًّا. لا فرق إن اعتبرت أنَّ ما يقول هو «أنا» مصنوع من هيولى، أو جبنة سويسريَّة كما ذكَر پوتنام[٨١] (الدويهي هنا يفضِّل جبنة

٧٧) نفسه، ص ١٢٣.

٧٨) نفسه، ص ٢٢١.

٧٩) أنظر:

Thomas Nagel, «What Is It Like to Be a Bat?». *The Philosophical Review*, 1974, 83 (4), p. 435–450.

٨٠) أنظر تباعًا:

Joseph Levine, «Materialism and qualia: the explanatory gap». *Pacific Philosophical Quarterly*, 1983, 64, p. 354–361.
Paul Ricœur, *Ce qui nous fait penser: La Nature et la Règle* (avec J.P. Changeux), Paris, Odile Jacob, 1998.
Jürgen Habermas, *Entre naturalisme et religion. Les défis de la démocratie*, trad. C. Bouchindhomme et A. Dupeyrix, Paris, Gallimard, 2008.

٨١) أنظر:

Hilary Putnam, *Mind, Language and Reality. Philosophical Papers*, vol. 2. Cambridge: Cambridge University Press, 1975.

الماعز). وفي جميع الحالات ستبقى لكلٍّ «أنا» زاوية نظر فريدة، هي في الوقت عينه شرفتُه على الخارج ولاقابليَّتُه للقراءة من الخارج حصرًا. وإذا أمكن لدماغ مستمرٍّ حيًّا في سائل خاصٍّ في برطمان أن يفكّر، فكيف نتأكّد أنَّه يفكّر؟[٨٢]. العلوم، بين فورة وضعانيَّة وأخرى، تدَّعي ردم هذه الهوَّة ثم تتراجع لأنَّ البحث العلميَّ يحتاج حصانة الـ«أنا» ضمانةً للتصديق والدحض العلميَّين. أمّا الرواية فتجتاز الهوَّة تخييلاً، فترتُقها وتحفرها في آن. وهكذا الدويهي يقدِّم شخصيّاته، يضيئهم ويخفيهم في الوقت عينه. يأتي إليهم من سجلّاتهم الاجتماعيَّة: تواريخ عائلاتهم وطوائفهم، تعليم تلقَّوه أو لم، أطعمة وروائح وأصوات تؤثِّث ذاكراتهم ومآسٍ تجري في دماء عائلاتهم بعِلمهم أو لا. لذا يظهرون في النصِّ مصحوبين بملفّات تعريف الارتباط (cookies). ينسج حولهم أمكنتهم ومواضيهم، تضيق احتمالات كينونتهم، يقترب أكثر فيصف تصرُّفاتهم وحركاتهم، يتقدَّم خطوة ليصوِّر ما قد يقولونه في عتمة حديثهم مع أنفسهم، وقلَّما يعبُرُ العتبة الأخيرة ويتحدَّث كما لو كان هُم. جبُّور لا ينتهك هذا الحصنَ الأخير ففعل الكتابة عندَه مَقود بالدفاع عن حصن أخير يُخفي ما يقلب معطياتنا عن الشخصيّات رأسًا على عقب.

ظنَّ الإله موموس أنَّ في البشر عيبًا خِلقيًّا هو لامنظوريَّةُ أفكارهم، واقترح تصحيحَه بوضع نافذة على قلوبهم تتيح رؤية ما يضمرون. شيطان الرواية كان أحذَق: يتيح النظر اختلاسًا داخل علبة الذهن السوداء بما لا يُفْسد إيروسيَّة المرويِّ عنهم ولا يقيِّد حرِّيَّة المرويِّ لهم.

«شريد المنازل»: بستان توما لاختلاس النظر

الـ«أنا»؟ لعلَّه عند الدويهي كبُستان توما في خاتمة **شريد المنازل**: مُتاح لاختلاس النظر لكنَّ فيه فسحةً محرَّمةً كتلك التي «بين شجرة التوت الشاميِّ وجمِّ الورد الجوريِّ»[٨٣]، لا تضيئُها اليراعات المتزاحمة إلاَّ لتزيد السرَّ فيها سحرًا وعتامة.

---

٨٢) بالإحالة إلى پوتنام مجددًا:
Hilary Putnam, *Reason, Truth and History*, Cambridge University Press, 1981.

٨٣) **شريد المنازل**، ص ٣٤٥.

السفّاح جمال باشا في لبنان:

١٩١٥: أول دُفعة لبنانيين منفيين إلى القدس

هيام جورج ملّاط[١]

فور اندلاع الحرب العالمية الأولى، ودخول تركيا الحرب في تشرين الأول ١٩١٤، وبعد تعيين وزير البحرية جمال باشا (أَحد قادة «تركيا الفتاة») قائدَ «الجيش الرابع في الشرق»، تمّ في ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٤ إلغاء امتيازات جبل لبنان المقررة بنظام ١٨٦١ المعدّل عام ١٨٦٤. ولدى دخول الجيش العثماني تمّ فورًا تنظيم أول لائحة بلبنانيين اعتبرتهم الدولة العثمانية أعداء لها يتوجب إبعادهم عن لبنان. وتركّز هدف جمال باشا على تفكيك الإدارة في متصرفية جبل لبنان، ونشْر الخوف والشكوك والارتياب بين المواطنين لحملهم على عدم الثورة جراء تصرفات الجيش العثماني والمجلس العرفي.

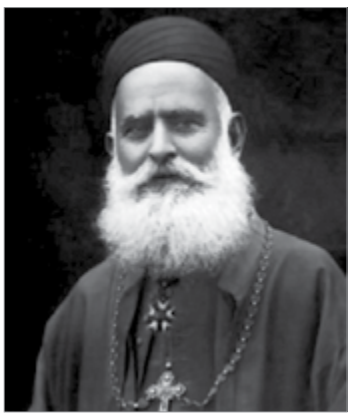

المطران أنطُون عريضة (١٨٦٣–١٩٥٥ – البطريرك منذ ١٨٣٢)

شهادة المطران عريضة

لدى دخول الجيش العثماني إلى جبل لبنان ساد المجتمعَ جوٌّ رعب ودسائس من تصرف مسؤولين عثمانيين صدرت عنهم ممارسات لم يألفها الجبل منذ الفتح العثماني عام ١٥١٦. وفي يوميات المطران أنطون عريضة (البطريرك لاحقًا) وصفُ حادثة جرت له في نهاية ١٩١٤ تشكل نموذجًا لما سينتشر من تصرُّف خلال الحرب[٢]:

---

١) محام واستاذ جامعي، رئيس سابق لمجلس إدارة الصندوق الوطني للضمان الاجتماعي فمؤسسة المحفوظات الوطنية. وهذا النص فصلٌ في كتابه الجديد «الحرب العالمية الأولى في ذاكرتي» (يصدر قريبًا).

٢) د. جهاد عيسى: **يوميات المطران أنطون عريضة** (١٩١٠–١٩١٩) ص ١٣٢–١٣٤، منشورات «رابطة قنوبين للرسالة والتراث»، ٢٠١٨.

«كان سيادته قد أرسل تحريرًا جوابيًا لرئيس دير لورنس في فرنسا يُعْلمه فيه بوصول تعريف بقدَّاسات كان قد تكرم بها عليه، ويشكر في الوقت ذاته تقدمته، ويدعو له في ختام التحرير بتوفيقه ونجاح الشعب الافرنسي المحسن إليه مراعاة لآداب الكتابة. ولما كانت العلائق قد توترت بين دولتنا العلية وبين دولة فرنسا، بسبب الْتحام الحرب بينها وبين سائر الدول الأوروبية ولم يبقَ من واسطة للمواصلة إلا طريق إيطاليا المفتوحة لحيادها في هذه الحرب، أرسل سيادته تحريره الجوابي مع تلميذ من أبرشيته كان مسافرًا إلى رومية لمواصلة دروسه فيها. ولسوء الحظ أمسك رجالُ التفتيش ذلك التحرير بحجة أن فيه ذكْرًا لفرنسا. ودفعه إلى قلم الترجمة فتُرجم إلى التركية، وأُحيل إلى متصرف طرابلس رشيد بك طليع الدرزي اللبناني الذي، وإن لم يجد في التحرير ما يستوجب المؤاخذة، اضطُر إلى إرساله للولاية تسكيتًا للإشاعات المختلفة وتنصُّلاً من المسؤولية. وهكذا صار إرسال التحرير إلى الولاية. أما الوالي فقد بعث هو به إلى المشير في الشام، وهذا إحالة إلى قومندان مفرزة جبل لبنان الذي جعل مقامه في عاليه، فأصدر هذا أمره إلى متصرف جبل لبنان يطلب منه استقدام سيادته إلى عاليه لأجل سؤال وجواب. لبى دولةُ المتصرف الأمرَ وخابر سيادته بشأن حضوره، فاعتذر أولاً عن الحضور بداعي انحراف صحته، لكنه ما لبث أن توجَّه هو وكاتبُ أسراره في ٢٥ كانون الأول ١٩١٤ إلى مدرسة مار يوحنا مارون حيث يقضي غبطتُه [أي البطريرك الحويك] فصل الشتاء في هذه السنة، ليعرض له حقيقة الواقع، فأصحبه غبطته بأحد كتَبَة أسراره بعد أن زوَّده ببركته الرسولية، وسافر هو ومن معه بعد ظهر السبت في ٢٦ كانون الأول سنة ١٩١٤. قضوا ليلتهم في البترون بضيافة مديرها عزتلو ابراهيم بك عقل، وفي ٢٧ منه سافروا إلى انطلياس فمرُّوا في طريقهم على المعاملتين لمقابلة جرجي بك زوين قائمقام البترون، ثم واصلوا سيرهم إلى أنطلياس المقر الشتوي لسيادة المطران بولس عواد، فرحب بسيادته وبمن معه.

البطريرك الياس الحويك «أبو لبنان الكبير» (١٨٤٣–١٩٣١)

في ضيافة القومندان

وفي الغد صباحًا توجهوا إلى عاليه فوصلوها قبل الظهر، وساروا توًّا إلى دار القومندان، فرخَّص لهم بعد الاستئذان بالدخول عليه. وبعد أن تبادل كلٌّ من سيادة المطران عريضة وسعادة القومندان عبارات السلام، سأله سعادته عن التحرير إذا كان بخط سيادته وإمضائه، فأجابه «نعم»، واختتامه بعبارة دعاء للمكتوب إليه هو من قبيل المجاملة مراعاة لآداب الكتابة. أجابه سعادته: «ليس الغرض من استقدامك إلينا إلا للمباحثة معك بشؤون البلاد اللبنانية». وأخذ سعادته يحدثه عن نظام لبنان بأنه يبقى محفوظًا بغير السلام أي لا يؤخذ منه عسكر ولا تكاليف حربية، ثم عن سبب منع الولاية تصدير الأغلال إلى لبنان، وعن سائر الأمور الحيوية التي تعود إلى راحة اللبنانيين. ولما كان سيادته قد شعر بأن القومندان وسائر رجال الحكومة غير المحلية قد تصورَت في مخيلاتهم أوهام لا نصيب لها من الصحة، زاعمين عدم إخلاص الموارنة وسكان لبنان لدولتهم العثمانية، شرع يبيِّن لسعادته فساد هذا الزعم الباطل. وبعد ذلك أخذ سعادته يلاطف سيادته بعبارات ودادية، عارضًا عليه خدمته، ثم شيَّعه إلى طريق العربية مما أوجب شكر سيادته له».

يتابع المطران عريضه: «بعد هذه المقابلة سرنا إلى اللوكندة، ثم عدنا من عاليه إلى انطلياس حيث بتنا عند سيادته عواد، وروينا له ما كان من أمر المقابلة. وفي الغد، أي في ٢٧ منه، نزلنا إلى بيروت لمقابلة نيافة القاصد الرسولي، وأعلمناه بما كان فسّر بذلك. وبعد الظهر زرنا سيادة المطران بطرس شبلي مطران بيروت، وأفادنا هو أيضًا عن سبب دعوته للشام. وفي المساء عدنا إلى انطلياس مقر سيادة عواد، وبتنا في كرسيه. وفي ٢٨ توجهنا للبترون حيث زرنا أولاً قائمقام القضاء، وكان منزله غاصًّا بالمأمورين والأَوجه في قضائه، حضروا لديه بناء على الأوامر العالية القاضية بالاجتماع في سراي بعبدا للمخابرة بشؤُون لبنان في ٢٩ منه...».

ثلاثة متصرفين

مع إلغاء نظام المتصرفية عُيّن على جبل لبنان تباعًا ثلاثة موظفين عثمانيين بصفة متصرفين على الجبل وهم: علي منيف بك (من ٢٥ أيلول ١٩١٥ إلى ١٥ أيار ١٩١٧)، إسماعيل حقي بك (من أيار ١٩١٧ إلى ١٤ تموز ١٩١٨، وهو شكَّل لجنة علمية من الأب لويس شيخو اليسوعي والأب

أنطُون صالحاني اليسوعي والمؤرخ عيسى اسكندر المعلوف وسواهم من كبار المفكرين لوضع كتاب «لبنان مباحث علمية واجتماعية» فصدر عن المطبعة الأدبية عام ١٩١٧ وهو من أبرز المراجع التاريخية والثقافية عن لبنان) والثالث كان ممتاز بك (من ٢٥ آب إلى ٣٠ أيلول ١٩١٨)[٣].

أُشيرُ هنا إلى شهادة يوسف الشنيعي من بعبدا (توفي عن ٩٠ عامًا) كان يقصها عليَّ في بعبدا، وسجَّلها جوزيف نعمه كما يلي: «في أوائل الحرب العالمية الأولى، مع احتلال الأتراك جبل لبنان، أصبحتُ سائقًا لعربة المتصرف التركي علي منيف. كان أنيق المظهر، جميل الهندام، حليق الذقن والشاربين، يتكلم الفرنسية، ويقرأ وهو في العربة. ولاحقًا، لأنه صهر طلعت باشا، أصبح وزيرًا للأشغال العامة في الأستانة، وحل محله على متصرفية جبل لبنان إسماعيل حقي ابن مفتي ديار بكر. هذا المتصرف لازمتُه وقتًا طويلاً. كان أكولاً، يفضل المأكولات التركية على اللبنانية، ويحتسي العرق اللبناني. استقدم معه طاهية من الأستانة لإعداد طعامه. كان كاتمًا حذرًا، إذا أراد الكلام مع مرافقه سعيد حمادة خاطبه بالتركية كي لا أفهم شيئًا. كان يحب للبنانيين، وسعى إلى تخفيف ضائقة المجاعة التي ذهبت بعشرات الآلاف منهم، كما يذكر المتقدمون سنًّا (...) وفي غمرة الحرب نُقل إسماعيل حقي إلى ولاية بيروت، وحل محله ممتاز بك على رأس المتصرفية اللبنانية. لم يكن على معرفة باللبنانيين فاقتصر على زيارة إسماعيل حقي وبعض كبار الموظفين الأتراك في بيروت. وكنت سائقَ عربته، وأعرف أنهم في اجتماعاتهم يتداولون أحاديث الحرب المستمرة بين دولتهم والحلفاء، ويتوجسون شرًا من الهزيمة. عندما علم ممتاز بك بسقوط عكا في أيدي الحلفاء ركب العربة وأسرعتُ به من بيروت إلى بعبدا. عرَّج على منزله، جمع أوراقه الخاصة، أمر أمين صندوق المتصرفية (تركي مثله ومحط ثقته) بأن يفتح الصندوق ويأخذ ما فيه من مال ففعل وتسلمه ممتاز بك (نحو ٥٥,٠٠٠ ليرة تركية = ٥٥ ألف ليرة) ثم ركب العربة وأمرني بالسير به إلى المريجات حيث التقى إسماعيل حقي والي بيروت هاربًا من الحلفاء، فاصطحبتُهما معًا إلى رياق واستقلاّ القطار الحديد المسافر إلى الأستانة، وغادراني بدون حتى كلمة وداع لشدة ما كانا عليه من الهلع والضعضعة»[٤].

---

٣) لحد خاطر: **عهد المتصرفين في لبنان**، ص ٢٠٢–٢٠٩، منشورات الجامعة اللبنانية ١٩٦٧.

٤) جوزيف نعمه: **صفحات من لبنان**، الجزء الثالث، ص ١٠٩–١١١ – ١٩٨٣.

عهد منيف بك

أتوقف هنا مجدَّدًا عند ما كتبه المطران أنطُون عريضة في يومياته عن استلام علي منيف بك متصرفيةَ جبل لبنان (تشرين الأول ١٩١٥) لِما كان عليه الفرمان السلطاني من أهمية في تاريخ لبنان[٥]: «...كان قد ورد لسيادته تلغراف من دولة علي منيف بك، متصرف لبنان الجديد، يبشره به بتعيينه متصرفًا على جبل لبنان، ويدعوه إلى حضور قراءة الفرمان العالي نهار الخميس ٣٠ أيلول. ولما كان بُعْد سيادته عن مركز المتصرفية يحول دون الوصول إليه في الوقت المعين، اعتذر عن الحضور موَقَّتًا، وقدَّم تهانيه بلسان البرق إلى دولته ناويًا تقديم الواجب بالذات في أول فرصة ممكنة. ولدى مطالعة نص الفرمان المدْرج في جريدة «الحقيقة»، والوقوف على خطاب دولته، تبين منهما أَنَّ تعيين المتصرف الجديد كان رأسًا من جلالة مولانا السلطان، بدون مصادقة الدول الست الموقعة على نظام لبنان، وأَنَّ برتوكول لبنان قد صار إلْغاؤه، ولم يَعُد للأجانب سبيل للمداخلة في شؤون لبنان، بل لحضرة السلطانية، بإنعام من تعطفاتها الشاهانية، حفظت للبنان ما كان له من الامتيازات الأساسية، وهي الإعفاء من الخدمة العسكرية، وعدم وضع ضرائب حديثة على الجبل...».

وعن يوسف الحكيم في مذكراته[٦]: «قبل أن تطأ قدما جمال باشا مقرَّه العسكري في دمشق، أذاع في ٢٨ تشرين الثاني ١٩١٤ بلاغًا إلى أهل جبل لبنان دعاهم فيه إلى الإخلاص لدولتهم العلية، واعدًا باستمرار عطفها عليهم بما منحَتْهم من نظام خاص يضمن رفاهيتهم، فلا تُزاد عليهم ضريبة ولا يكلَّفون بالخدمة العسكرية».

... وجاء أوهانس، صديق لبنان

أوهانس باشا قُيُومجيان، آخر متصرف على جبل لبنان، ترك مذكرات صدرت عام ٢٠٠٣[٧]، روى فيها اجتماعه العاصف في دمشق مع جمال باشا

---

٥) د. جهاد عيسى: المرجع المذكور ص١٤٤–١٤٥.

٦) يوسف الحكيم: **بيروت ولبنان في عهد آل عثمان**، منشورات المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦٤، ص ١٥٩.

٧) Ohannés Pacha Kouyoumdjian: ***Le Liban à la veille et au début de la guerre, Mémoires d'un gouverneur 1913–1915***, Centre d'Histoire Arménienne contemporaine. عرَّبَهُ جوزف كالوستيان: «مذكرات أوهانس باشا قيومجيان متصرف جبل لبنان ١٩١٣–١٩١٥» ص ٢١٣–٢١٤، دار البيروني ٢٠١٥.

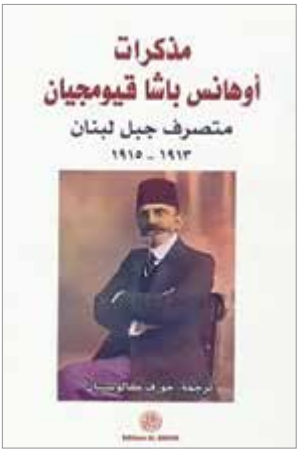

أوهانس باشا (١٨٥٢–١٩٢١) – آخر المتصرفين (١٩١٣–١٩١٥)

الذي عرض عليه لائحة بأسماء أشخاص مقرّر نفيهم. حاول أوهانس باشا، بذكائه وصدقيته ونزاهته، التقليل من أهمية هؤلاء ودورهم محاولاً تجنب تنفيذ قرار النفي. وكان أوهانس باشا المتصرف الوحيد الذي كتب مذكراته بدون اعتبارات شخصية أو طائفية وبدون مراعاة أحد. وفي مذكراته سردُ التقلبات السياسية وفق الظروف ومفاصل القوى واهتمامه لمصالحه الخاصة قبل كل شيء. وفي لقائه الطويل مع جمال باشا في دمشق، حول لائحة المنفيين، ورَد: «بسَط الباشا إحدى الأوراق الكثيرة المبعثرة فوق مكتبه وقرأَها لي. تضمنَت قائمة النفي أسماء نحو أربعين شخصًا معظمهم موظفون بدا أن إقامتهم في لبنان مضرَّة بالأمن وبمصالح الدولة العثمانية. قال لي: «جميع هؤلاء عملاء أو أتباع دول الوفاق، ومدينون بمراكزهم لحماية القناصلة. لم أعد أحتمل حضورهم في الجبل. أطالب بإرسالهم قريبًا إلى دمشق فيبقون تحت رقابة الشرطة حتى إشعار آخر. ومَن يمارسون وظيفة يجب إقالتهم فورًا». وبرغم إلحاحي رفض جمال باشا أن يكشف لي كيف تمّ إعداد هذه القائمة ووفْق أيّ تبليغات. حاولتُ إفهامه أن هذا التدبير سيؤدي إلى نتيجة عكسية تمامًا للنتيجة المرجوة، وسيفقد بوجهته السخيفة الثقة بأعمال الحكومة التركية الأولى في لبنان، ولن يوحي لأحدٍ بالاحترام، وسيشجع الدساسين الكثر في البلاد والمصطادين في الماء العكر ممن كانوا يعيثون فسادًا في غرف انتظار القناصلة والآن يتسللون إلى أروقة القيادة العسكرية العليا. قلت له: «إذا أردت إلقاء اللوم على جميع الذين كان لهم بعض الارتباط بالعملاء الأجانب في سوريا، سيتراكم عليك الشغل كثيرًا، وعندها ينبغي ترحيل جميع اللبنانيين تقريبًا ولن تصيب إلا عددًا قليلاً منهم، ولأكثرهم قابلية التماس العذر لهم، فلم يستجدّ معروف القناصلة إلا لتأمين مورد رزق زهيد لهم. لماذا إيلام بعض العائلات الفقيرة وتدميرها؟ أَلِتُشعرَ اللبنانيين بوطأة سيطرتك؟ لكنك تراهم جميعًا متواضعين وخاضعين بين يديك. أما أن تأمل أن يكون المرحَّلون رهائن سياسية، فإنك واهم: لا أحد في لبنان سيهتم بمصيرهم». كان جمال يتصور أن يميز وصوله بضربة تحدث أثرًا في النفوس، وأن يقوم لا على إعلاء شأن الدولة العثمانية وحسْب بل على إيقاف اللبنانيين عند حدهم بينما يتوجه هو إلى القتال في مصر. كان في نفسه شعور الشبان الأتراك

جياشًا ضد الجبليين اللبنانيين الأحرار من بقايا التعصب وكره الأجانب المكبوت منذ زمن بعيد. كانت له ضغائن قديمة وعميقة جاء لشفاء غليله منها. هكذا كان نقاشنا حادًا حتى لاحظتُ اعتراضاتي أنفدت صبره. لامني بنزق على ما اعتبره في كلامي إفراطًا في الحساسية. صاح بي: «أتنسى إذن إننا في الحرب»؟ عندئذ أعلنت له أنني لست راغبًا في البقاء زمنًا أطول في لبنان إذ بات وجودي في هذه الظروف عقبة في وجه حكومة السلطنة. قلت له: «أنا انتمي الى السلك الدبلوماسي، ومهمتي في هذه البلاد لم يعد لها مبرر. قد يفي بالغرض أيُّ موظف من وزارة الداخلية بصورة أفضل. قدمت استقالتي إلى الباب العالي بلا جدوى، وأكرر عليك استعدادي لتوقيعها مثلما تملي عليّ». حينئذ هدأت ثائرته وأعلن أنه لا يقبل استقالتي، ووافق على تقليص قائمة المحكوم عليهم، شاطبًا منها أسماء الأكثر عوزًا. أما الآخرون فكان ينبغي إرسالهم إلى دمشق ما إن يتقدم إليّ بطلب رسمي»[٨].

صلَف جمال باشا ونفْي اللبنانيين

هكذا، في ٣١ كانون الأول ١٩١٤، دُعِيَ عدد من اللبنانيين إلى اجتماع في سراي بعبدا، هم الذين شكَّلوا الدُفعة الأولى التي نقم عليها جمال باشا وأراد أن يجعل منهم مثالاً للآخرين في تعاطيه مع لبنانيين رأت الدولة العثمانية أن شبهات تحوم حول إخلاصهم لها.

يومذاك لم يكن جمال باشا قرر بعدُ نصب المشانق، فكان اختيارهم لمكانتهم ولدورهم في المجتمع السياسي والاجتماعي دليلاً على منحى جمال باشا فور تسلمه زمام الأمور في الشرق. مع أن قسمًا كبيرًا من هؤلاء المنفيين سيلعب أدوارًا سياسية واجتماعية بارزة في بداية عهد لبنان الحديث كما يستدل من مراجعة أسمائهم.

الذين تمّ استدعاؤهم ونُفُوا إلى القدس: نعوم باخوس[٩] (عضو مجلس إدارة جبل لبنان ثم نائبًا)، نقولا غصن (عضو مجلس إدارة جبل لبنان)، الشيخ بان الخازن (مدير ناحية جبيل)، ابراهيم عقل (حاكم صلح قضاء البترون)، كميل الشدياق (أمين سر القلم الأجنبي في متصرفية جبل لبنان)، الدكتور أنطوان العضم، محمد زين الدين (رئيس محكمة الشوف)،

٨) أوهانس باشا: المرجع المذكور ص ٢١٣–٢١٥.

٩) عن نعوم باخوس: مقال المؤرخ منير وهيبه الخازن في مجلة «كسروان»، السنة الثانية، العدد ٤٠، ١٥ نيسان ١٩٨٢، ص ٢٧.

رشيد نخلة (١٨٧٣–١٩٣٩)

رشيد نخلة (مدير العرقوب ولاحقًا واضع النشيد الوطني)، مصطفى العماد (رئيس دائرة الجزاء في متصرفية جبل لبنان)، الأمير فائق شهاب (قائمقام البترون)، خليل عقل[١٠] (عضو مجلس إدارة جبل لبنان)، الياس كسبار (رئيس محكمة البترون ووالد الوزير ونقيب المحامين ادمون كسبار)، حبيب البيطار (قائمقام كسروان)، الأمير عهبدالله شهاب (مدير الساحل)، بولس نجيم (رئيس القلم الأجنبي في متصرفية جبل لبنان ومؤلف كتاب «قضية لبنان» الصادر عام ١٩٠٨ في باريس بتوقيع جوبلان، ولاحقًا في العشرينات مدعي عام التمييز)، يوسف فريفر (جدّ كاتب هذا النص) مدير ناحية جونية[١١].

يوسف فريفر (١٨٨٤–١٩٦٤)

وفور تجمُّع هؤلاء اللبنانيين، إذا بمحمد رضا بك (قائد المفرزة العسكرية في جبل لبنان) وفي حضور المتصرف أوهانس باشا وضباط عثمانيين، يعلن أن على اللبنانيين الإخلاص للدولة، وان الامتيازات التي يُفيدون منها هي منحة من السلطان تقرر إلغاؤُها. وفي ختام الاجتماع تبلغوا أمر أن ينتقلوا في اليوم التالي إلى دمشق للقاء جمال باشا.

محمد رضا: أَنا أُميت.. وأَنا أُحيي

عن الخوري أنطون يمين في مؤلفه عن «لبنان في الحرب»[١٢] حول ذاك الاجتماع: «كان محمد رضا باشا مدير دفّة الأمور في الديوان العرفي يفكر في كيفية تعذيب الشعب اللبناني طبقًا لرغائب جمال.

محمد رضا باشا (١٨٤٤–١٩٢٠)

١٠) جان شرف «**آل عقل شديد في تاريخ لبنان الحديث والمعاصر**»، ص ١٧٥، بيروت ٢٠٠١. ويوسف الحكيم: «**بيروت ولبنان في عهد آل عثمان**»، ص ١٦٠ وما بعدها، المطبعة الكاثوليكية ١٩٦٤.

١١) هيام ملاّط: **يوسف مخايل فريفر** – بيروت ٢٠٠٨.

١٢) أنطون يمين: **لبنان في الحرب**، الجزء الأول، ص ١٩–٢٠، بيروت ١٩١٩.

في اليوم الأخير من كانون الأول ١٩١٤ أوعز إلى اوهانس باشا متصرف لبنان أن يدعو إلى سراي بعبدا الإكليروس والمأمورين والمشايخ وأعيان اللبنانيين.

بوصولهم إلى السراي، ترأس رضا باشا الاجتماع، وألقى خطابًا حثهم فيه على الإخلاص للدولة العثمانية، وعلى وجوب المدافعة عن حقوقها والوقوف بوجه أعداء قد يحاولون احتلال الجبل.

أنهى خطابه وقال للمتصرف: «إن فريقًا من ذوات لبنان يعبثون في البلاد كل فساد بتشيُّعهم إلى دول الأعداء». أصدر أمره بوجوب إبعادهم إلى القدس الشريف عبرةً لكل لبناني تقوده جرأته إلى التلفظ باسم فرنسا أو إنكلترا أو روسيا. أنكر أوهانس باشا هذا العمل على محمد رضا فاستشاط هذا الأخير غضبًا على المتصرف قائلاً له بكل حدة: «لا يخفى عنك أننا الآن في حرب، وأن الأحكام العرفية تشمل لبنان. أنا المميت وأنا المحيي. واعْلمْ أن حكمي هذا هو باكورة أعمالي العسكرية في لبنان. وسينفى بلا شفقةٍ كلُّ لبناني تقع عليه شبهة انحياز إلى دولة من دول الأعداء».

صورة تجمع المنفيين اللبنانيين إلى القُدس سنة ١٩١٥. ويبدو من اليمين:
الصف الأول جُلُوسًا: جوبلان = الدكتور بولس نجيم (رئيس القلم الأجنبي في متصرفية جبل لبنان)، الأمير عبدالله شهاب (مدير ناحية الساحل)، يوسف بك فريفر (مدير ناحية جونيه).
الصف الثاني جُلُوسًا: حبيب بك البيطار (قائمقام كسروان)، الشيخ الياس كسبار (رئيس محكمة البترون)، خليل بك عقل (عضو مجلس الإدارة، الأمير فائق شهاب (قائمقام البترون)، مصطفى بك عماد (رئيس دائرة الجزاء في متصرفية جبل لبنان)، رشيد بك نخلة (مدير العرقوب)، محمد بك زين الدين (رئيس محكمة الشوف).
الصف الثالث وُقُوفًا: الدكتور أنطوان العضم، كميل بك الشدياق (أمين سر القلم الأجنبي في متصرفية جبل لبنان)، ابرهيم بك عقل (حاكم صلح قضاء البترون)، الشيخ بان الخازن (مدير ناحية جبيل)، نقولا بك غصن (عضو مجلس إدارة جبل لبنان)، نعوم بك باخوس (عضو مجلس إدارة جبل لبنان ثم نائب).

عندئذ أوعز أوهانس باشا، المخلص للبنان، إلى أولئك المحكومين الاثنَي عشَر أن يمتثلوا سريعًا للأوامر. تبلغوا الحُكْم وساروا إلى القدس يودعهم بالدموع الأهل والمعارف. ومنذ ذاك الحين تحولت أفراح أكابر اللبنانيين إلى أتراح وصاروا ينتظرون من ساعة إلى ساعة وصول الأمر القاضي بإبعادهم عن الوطن العزيز».

عذاب المنفيين

وعن هذا الاجتماع بالذات، ورد في كتاب الصحافي والأديب إميل يوسف حبشي «جهاد لبنان واستشهاده»[١٣]: «في الأسبوع الأخير من الشهر وبإيعاز من جمال ومحمد رضا بك قومندان بيروت ولبنان دعا المتصرف إلى بعبدا رؤساء الدين والموظفين وأعيان الجبل لأمرٍ يتعلق بمصلحة البلاد. لبى الدعوةَ لبنانيون من شمال لبنان إلى جنوبه، في مقدمتهم المطران عبد الله الخوري نيابةً عن البطريرك سيد الجبل. وفي آخر يوم من السنة كان رضا بك في صدر الموظفين ينتظر الجماعة، وأوهانس باشا إلى جانبه. وبعد ساعة أصبحت باحة السراي بحرًا مائجًا بالرؤوس البشرية. أشار رضا بك إلى المتصرف، ومن حوله عمال الحكومة، بالدخول إلى القاعة الكبرى ليتذاكروا ببعض الشؤون قبل أن يخاطب الشعب. دقت الساعة الأولى بعد الظهر، والناس ينتظرون خروج القائد وأتباعه وبين المنتظرين بضعة نفر من الشبابيين[١٤] لم نكن معهم لنروي رواية شاهد. غير أننا واثقون بما نقول لما لنا من الثقة بالمخبرين الكثيرين. خلاصة ما قاله رضا بك لعمال الحكومة: نصحهم بالإخلاد إلى السكينة والإخلاص للدولة والدفاع عن حقوقها والوقوف في وجه خصومها إذا حاولوا الدخول إلى لبنان بما لديهم من العدة والقوى، وما يشبه ذلك من الألفاظ. الأمير فائق شهاب (حاكم قضاء المتن) ردّ على القائد: «لبنان على ما تعرفون غير مسلح». أجاب القائد: «أعرف ذلك لكن السلاح الذي يحمله يكفي للدفاع». قال شهاب: «إذَن نلقي بنفوسنا في أتون النار»، فأجاب القائد: «لا. تدافعون ما أمكن السبيل، يشارككم الجندي العثماني الذي نبعثه إليكم». قال: «نعم، ودفاعنا على قدْر سلاحنا». احمرت عينا محمد رضا من الغيظ وحفظها في صدره. ثم خرج يتبعه المتصرف مطرق الرأس وخلفه الموظفون. أطل برأسه من شرفة الرواق وخاطب المنتظرين بلغته

١٣) إميل يوسف حبشي: **جهاد لبنان واستشهاده**، ص ٢٦–٢٩، مطبعة طبارة، ١٩٢٠.

١٤) أهالي بيت شباب.

التركية ما معناه: «أيها اللبنانيون، نحن في حالة حرب، وأنا أدعوكم إلى السكينة والهدوء. عرفَت الدولة، أيدها الله، أنكم تخلصون الحب لها، فتعطَّفَت وخلَّصَت لبنان من أشراك الأجانب، وأرسلَت جيوشها إليه للدفاع عنه وحفظ مصلحته. فشارِكوا أنتم هذا الجيش بالذود عن بلادكم، ودافعوا عنها بأرواحكم إذا جاءها عدوكم. والسلام».

«الْتفُّوا حول عرش السلطنة» تَنجَوا.

قابل الناس خطابه ببرودة، ما خلا الذين كانوا على دعوة المير شكيب ارسلان. بعد محمد رضا تقدَّم أوهانس باشا ليخاطب اللبنانيين، والكلمات تخرج من فمه فتعْلَق على شفتيه. عرف منها المجتمعون أنه كان ولا يزال مخْلصًا لعرش عثمان، وأنه يرى من قبيل النصيحة ان يلتف اللبنانيون حول هذا العرش الثابت، يفْدونه بدمهم، وأن ينفلتوا من حبائل الأجنبي. قال هذا وانتهت حفلة الدفاع عن البلاد، أو حفلة الدعوة إلى السلاح، وعاد الناس وهم يلعنون الدعوةَ تُنْفِقُ البلاد في سبيلها أكثر من أربعة آلاف ذهب ليقال فيها كلمة لا معنى لها، بل ليشتروا بهذا المبلغ الكبير أقوال قومندان عاليه التي تشهد له بصدق العبودية. كان من فضل الحكومة، بعد نهاية الحفلة، أنْ أصدرت أمرها بسفر المير فائق المذكور، وبولس نجيم رئيس القلم الأجنبي، ومصطفى بك العماد رئيس دائرة الجزاء رحمه الله، ومحمد زين الدين رئيس محكمة الشوف، والشيخ بان الخازن مدير جبيل، وابراهيم بك عقل مدير البترون، ويوسف بك فريفر مدير جونيه، وغير هؤلاء بالسفر إلى الشام حيث يجتمعون بمن تقدمهم. ويعيِّن لهم الفاتح البلاد التي يُبْعَدُون إليها. وذنْبُهم أنهم لبنانيون، فيهم المخلصون، ووجوه لهم الكلمة النافذة في قومهم». في اليوم التالي، جميع اللبنانيين المطلوبين انتقلوا بسكة الحديد من بعبدا إلى محطة رياق. فور بلوغهم دمشق طلب منهم جمال باشا الحضور إلى مقر إقامته في فندق فكتوريا على المرجة، وخلاصة ما قال لهم «أعرف أنكم تتساءلون عن سبب دعوتكم إلى دمشق. إن وجودكم فيها اليوم، بعيدين عن لبنان، هو آمن لكم بكثير».

شهادة رشيد نخلة

الشاعر رشيد نخلة أرّخ تلك الحقبة، وما كتبه يؤكد ما كان يرويه لي جدي يوسف فريفر عن نفيه معه إلى القدس. عن رشيد نخلة[١٥]:

١٥) رشيد نخله: **كتاب المنفى**، ص ١٥٨، طبعة ١٩٥٦.

«السفاح» جمال باشا (١٨٧٣–١٩٢٢)
وتحكّم بالأهالي خلال حُكمه (١٩١٥–١٩١٦)

«خرجنا من مجالس الباشا، ينظر واحدنا إلى الآخر، كأننا أدركنا أن ظلام الحوادث أخذ ينزل علينا وعلى بني قومنا في سرعة مخيفة». بقي الجميع شهرًا في دمشق تحت المراقبة دون أن يتمكن أحد من إعطاء أخبار عنه إلى أهله في لبنان. بعد إنصرام الشهر أمر جمال باشا بنفي جميع اللبنانيين إلى القدس[١٦]. وكان النفي أرحم مما سيؤول إليه مصير دفعات أُخرى من لبنانيين استدعاهم جمال باشا.

الانتقال إلى القدس سرده رشيد نخلة في مذكراته[١٧]: «كان الليل قد أرخى سدله، والمطر يتساقط، والبرد يدبّ على قدمين فوق الأرض، ساعة وقف بنا القطار في محطة «السيلة» في طريقنا إلى المنفى. قيل لنا إن خطّ الحديد ينتهي هنالك، وإن علينا أن نصعد في الجبل، وحقائبنا في أيدينا، حتى نبلغ المخيّم العسكري حيث نقضي ليلتنا في تلك الضيافة السعيدة! كان يرافقنا في القطار ضابط اسمه أدهم وجماعة من الجند بعضُهم عرب وبعضُهم تُرك. وأدهم أفندي هو كالغول في الخرافات القديمة: له جثة كالجدار، ورأس كقبّة القبر، وفم كباب جهنم، عنقه ضعيفة سابلة كأنها «شعرة معاوية» التي لا تنقطع. ولأدهم أفندي سيف أسود عريض شُدّ إلى وسطه كأنه سيف جلاّد لا سيف ضابط، فتحسّ لصوته في الأرض وحشة وغلظة. لما نزلنا من القطار وعلمْنا أنْ لا بيت في المحطة ولا فندق، وأن لا بُدّ للقطار من الرجوع، وفي خاطر أدهم أفندي يدور أن نصرف ليلتنا بين المطر والزمهرير في رواق المحطة، لا في المخيّم العسكري كما قيل لنا، حتى يطلع الصباح وتجيئنا العربات من نابلس! أقبلْتُ وجماعة من رفاقنا نشرح لأدهم أفندي كيف أن الذئاب لا تقوى على المبيت في العراء تلك الليلة. قال «الغول»: «إذن كيف يكون الإخلاص للدولة؟»، قلنا: «وما علاقة الإخلاص بالأمر. القضية قضية خوف من الريح والمطر، ومن الموت بالبرد القارس». قال: «وكيف يكون الإخلاص للدولة إن نحن لم نخضع لأوامرها؟».

١٦) **ذكريات فرنسوا خوري**، ص ٤٠ وما يليها، ١٩٥٤.

١٧) رشيد نخلة: **كتاب المنفى**، ص ١٦٧–١٦٨، بيروت ١٩٥٦.

كتاب «قضية لبنان» لبولس نجيم،
صدر في باريس سنة ١٩٠٨ بتوقيع جوبلان

«كدنا نموت من البرد»

وهوّن الله علينا في آخر الأمر وأدرك أدهم افندي أنّ من الخيانة للدولة أيضًا أن نموت من البرد في رواق المحطة، فينبغي أن نصعد وإياه عند ضابط المخيم في رأس الجبل نسأله خيمة نستظلها حتى مطلع الصباح. حمل كل منا حقائبه، إذ لا حمّال في المحطة، ورحنا في تصعيد عنيف فوق تربةٍ لزجةٍ لو حطّ عليها العصفور لانزلق. وظلّت بنا الحال هكذا حتى بلغنا مركز قيادة المخيّم، فإذا هي خيمة بيضاء، فيها مصباح يكاد ينطفئ، ورجل عريان منطرح فوق سرير. وقفنا في باب الخيمة. وما هي إلا بضع لفظات بالتركية رفع بها أدهم أفندي صوته، حتى انتصب الرجل على قدميه، وفي يده شيء كاللحاف يحاول أن يستتر به، وانفجر في سباب تركي من الطراز الأول. نظرْنا في ضوء المصباح الضئيل إلى وجه أدهم افندي كأننا نسأله أن يرينا هو هذه المرة شيئًا من «الإخلاص للدولة»، لكنه ابتلع ريقه، فحضرة قائد المخيم سكران، عميان، عريان، ورتبته العسكرية فوق رتبة صاحبنا. ولولا عودة القائد إلى شيء من الوعي بعد قليل، لما كان لنا في تلك الليلة أن نقتعد حقائبنا في خيمة قاصية، مخرّمة ينبع منها المطر من فوق ومن تحت ومن كل جانب. ولما أقبل الصباح جاءتنا العربات من نابلس، تتمايل من وعورة الطريق، لتُقِلّنا إلى تلك المدينة. ومن وحل إلى وحل، ومن ورطة إلى ورطة، والمطر متلاحق والعربات متثاقلة، هكذا ظلّ بنا السير حتى بلغنا نابلس في آخر النهار نابلس».

بعد أخذ وردّ أمضى المنفيون ليلتهم في الفندق الألماني، ومنه استأنفوا في الصباح السفر إلى القدس هدف منفاهم. ويذكر رفيق جدي يوسف

فريفر إلى المنفى الشاعر رشيد نخلة في كتابه[١٨] ما يبرر اختيار القدس منفى لأولئك اللبنانيين: «كانت بيروت حتى أمس، عام ١٩١٩، دار غربة لنا، يهبطها واحدنا فلا يجد فيها عادات بني قومه وتقاليدهم في معظم الأطوار والمعايشات، فيحس الغربة والبعد عن الجبل. لذا كانت القدس سنة ١٩١٤ جديرة بان تغدو منفى للبنانيين، يجدون فيه الوحشة ويبيتون على الشوق إلى لبنان. وعلى الخصوص قبل العهد بهذه السيارات التي قرّبت الأبعاد، وقصّرت المسافات. لم يكن على جمال باشا أن ينتقي لنا منفىً في جبال نجد، مثلاً، أو في تهائم اليمن بدلاً من القدس، إذ المهم عنده أن نموت من الشوق إلى أرض الوطن!»

تظاهرة فرَح: «العثملّي فَتَح لبنان»

عند وصول الموكب إلى القدس بالمنفيين طافت بهم العربات من فندق إلى آخر، وكان الليل هبط والمطر لا يزال يتساقط. يكمل رشيد نخلة[١٩]: «المهتمون بأمرنا في دائرة الشرطة لم يجدوا لنا في ذلك الفندق مواضع للمبيت، فكان علينا أن ندور في ما يلي «باب الخليل» من الشوارع، لعلّنا نستطيع أن نلقي الرحال في واحد من تلك الفنادق. عادت بنا العربات على أعقابها، تهوي وترتقي في شوارع ضيّقة وأزقة متعرجة. وبينما نحن في بعض العطفات إذا جماهير من الناس، وجلبة وأهازيج، وتصفيق بالأيدي، من أول الشارع إلى آخره. أطللنا من العربات نتسقّط الخبر، فعلمْنا أن القوم في تظاهرة كبيرة فرَحًا بفتح لبنان على يد جمال باشا، وبسَوق الأسرى منه، وبوصولهم إلى القدس في تلك الساعة، مغلوبين صاغرين بعد الفتكة الحامية والمعممة العوان. لم أتمالك من الضحك، وعلى الخصوص حين توسطت بنا العربات الجماهير، ورأيت سربة من الفتيان في هوس، ونزق وطرب شديد يرقصون ويتغنّون بقولهم: «العثملّي بعون الله فتح لبنان». أدركنا أنه يراد بنا حينئذٍ التطويف في الشوارع، توكيدًا لنبأ الفتح لا تفتيشًا عن فنادق للمبيت... ورأينا أن جمال باشا كان قد زوّر لنا أسباب المجد ودواعي الفخر على أتمّ ما يكون التزوير. فلما أفضى بنا التطويف إلى «فندق مرقس» على «باب الخليل» – أي أننا عدنا من حيث ذهبنا – لقينا كل شيء هُيِّئَ لنا فيه من قبل، فرُحنا نترامى على المقاعد من شدة الإعياء. وكانت الجماهير لا تبرح محيطة بالفندق، والأهازيج والأصوات تدخل علينا من النوافذ».

---

١٨) رشيد نخلة: **كتاب المنفى**، ص ١٧٦.

١٩) رشيد نخلة: **كتاب المنفى**، ص ١٨٠–١٨١.

عن هذه المرحلة التاريخية (نفْي الدُفعة الأولى من اللبنانيين) ثمة شهادةُ الأمير فايق شهاب (قائمقام البترون عند نفْيه عام ١٩١٤) رواها للصحافي ألبير أديب (كان يحرر في جريدة كرم ملحم كرم الأُسبوعية «العاصفة» قبل تأسيسه مجلتَه الأدبية الراقية «الأديب» سنة ١٩٤٢)، وصدَرت في العددين الخامس (١٩٣٢/١/٢٩ – ص ٦) والسادس (١٩٣٢/٢/٥ – ص ١٦). وهنا هذان الجزءان مع تصحيح الخطأ المطبعي في المقطع الأخير من الجزء الأول (٣٠ كانون الأول ١٩١٦)، والصحيح: ١٩١٤.

كيف اظهرت تركيا رجال لبنان؟ ...

الامير فايق شهاب يحدثنا عن نفيه الى القدس والاناضول

« الامير فايق شهاب »

كيف اظهرت تركيا رجال لبنان؟ ...

الامير فايق شهاب يحدثنا عن نفيه الى القدس والاناضول

«صاحبةُ السعادة» السلطانةُ بيروت الجالسةُ سعيدةً على الشاطئ الأَزرق

نبيل شحادة
عضو جمعية تراث بيروت

إيزيدور جاستن سڤرين تايلور (Isidore Justin Séverin Taylor) رحالَة ومؤلف متعدد الفنون والدُرَب. فرنسي من أصل إنكليزي، ولد في بروكسل سنة ١٧٨٩، وكان له دور في تطوير المسرح الفرنسي وتأسيس جمعيات للممثلين والموسيقيين والمعماريين والنحاتين والرسامين. توفي عن ٩٠ عامًا سنة ١٨٧٩.

سافر إلى بلدان كثيرة، منها الشرق حاجًّا إلى الأراضي المقدسة في فلسطين، فأثمرت رحلته كتابًا أصدره سنة ١٨٣٩ «سوريا، فلسطين- الحج إلى القدس والأماكن المقدسة» (١٨٣٩) وكتب عن بيروت مسحورًا بها، فوصفها بأجمل النعوت، كأنه ينقش في صفحات خيالنا صورًا غنيّة مشوِّقة عن مدينة تنهض وتظهر من عالم السحر والألوان.

ثلاث خطوات قبل القراءة

قبل أن نبدأ رحلتنا معه في بيروت، نتوقف عند ثلاث نقاط تزيد من شغفنا وتقييمنا الموضوعي والتاريخي ما كتبه تايلور.

١. أهمية هذا النوع من كتابات رحالة أجانب زاروا الشرق، سيَّاحًا أو حجَّاجًا، أنهم قدموا عروضًا تاريخية، وسردوا وقائع، ووصفوا أماكن ومعالم كثيرة، وأسسوا لأدبٍ دوَّن جزءًا من مسيرة الإنسانية عكَسَ توجهاتهم وقناعاتهم الدينية والسياسية والثقافية. وهي كتابات شطحت أحيانًا إلى مسارات تحيّز وعنصرية واعتمدت ضروبَ تشكيك وطعن وتجريح في النظرة الجامدة إلى الشرق، وأحكامًا نمطية مسبقة على أهله لأسباب منها عائقُ اللغة وجهلُ ثقافةِ المنطقة وفهم حقيقة عاداتها فحكموا على المظاهر من دون البحث والتدقيق والتعمق لمعرفة الحقائق وكشف الأسباب. لكن كل هذا لا يُخفي موضوعية ومصداقية اعتمدها كثيرون في كتاباتهم، وقدَّموا صورًا ومشاهدات واقعية بعيدةً عن المبالغة والأوهام. فهدفهم العلمي كان إثارة اهتمام نظرائهم الغربيين بهذا الشرق،

LA SYRIE,
L'ÉGYPTE, LA PALESTINE
ET LA JUDÉE,
LE BARON TAYLOR ET LOUIS REYBAUD.
PARIS.

الجزء الثاني من الكتاب – طبعة ١٨٣٩

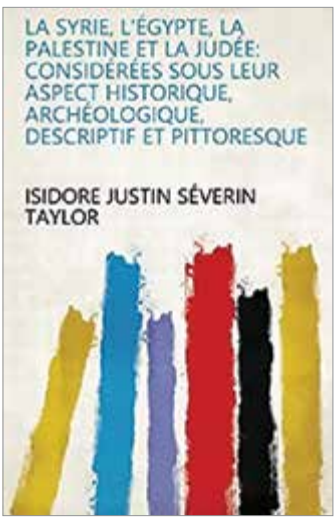

الغلاف الخارجي للطبعة الفرنسية

طبعة ثانية للكتاب

وحثَّهم على زيارةِ مناطقه والتعرفِ على شعوبه وأديانه ودراستِها في جميع المجالات.

٢. «**معرفة الآخر**»، وهو ما سجله تايلور في الصفحات الأخيرة من كتابه عن فروقات كبيرة في العادات والتقاليد وأنماط الحياة بين المجتمعات الشرقية والمجتمعات الغربية، كأنه يدعونا إلى قراءة ما كتبَ بحكمة وعقلانية. فالبَوْن واسع بين عالمنا وعالمهم، وتعقيدات الفروق كثيرة، ويَصعُب مدّ جسور تواصل حضارية حقيقية ومنطقية دون المعرفة الدقيقة والاحترام المتبادل. من هنا ما جاء في آخر كتابه: «أول ما يَلفت عند الوصول إلى سوريا وفلسطين، كما في جميع المناطق العثمانية (الشرق)، تناقض بين عاداتهم وعاداتنا. نحن نرتدي ملابس ضيقة وقصيرة، هم يرتدونها طويلة وفضفاضة. نحن نُنْمي شَعرنا ونَحلق اللحى، هم يُنمون لُحاهم ويَحلقون شَعرهم. كشْف الرأس عندهم علامة حمق وهو عندنا علامة احترام. هم يؤدون التحية بشكل مستقيم، ونحيّي نحن بالانحناء. هم يجلسون أرضًا ليأكلوا، نحن نرتفع عنها. يكتبون بشكل مخالف ما نعرفه. معظم الأسماء عندنا مذكّرة وعندهم من الإناث. الطابع العام لدى أهل الشرق: التديّن مع عبوس وكآبة وسلوك هادئ حيادي. ومع غياب ملذات عامة تنشط في مدننا، أفراحهم تقتصر على حفلات الزواج، ولا حاجة عندهم لإلهاءات جديدة كما في مجتمعنا الأوروبي. إنما إذا غُصنا على أعماق الطبيعة الشرقية، نجد فيها الخير والإنسانية والمثابرة والاستمرارية في الصداقات كما في الكراهية والشجاعة الغريزية والكرامة والنبل والأمان في التزاماتهم».

٣. ظاهرة لافتة مميزة بين النبوءة وسِعَة الاطلاع واستنتاج ما رآه وعايَنَه في رحلاته، حيال معرفة مسبقة من مراكز القرار في العواصم الغربية بسقوط الدولة العثمانية قبل حدوثه بأكثر من ٦٠ عامًا. جاء في نصه: «يتصرف الأتراك كأسياد متعصبين ليحكموا هذه البلدان الجميلة التي عرف أسلافهم كيف يغزونها. تدهوُرُ أمبراطوريتهم واضح، وهي مستمرة لأن القوى المسيحية لم تعرف بعد كيف تشاركهم فيها بسبب الانقسامات الدينية المختلفة، والتحاسُد بين الدول الأوروبية وطموحاتها. وطالما قيل إن الأتراك يعسكرون تحت الخيم في أوروبا، وهذا ثابت إذ سيتم إعادتهم إلى أعماق آسيا. والمقاطعات المسيحية على ضفاف نهر الدانوب أو البوسفور والسوريون سيحصلون على الحرية الكاملة. ومدينة القدس المقدَّسة ستُسلَّم الينا ثانيةً».

بيروت الدائمةُ الخُضرة

لم يكتب تايلور عن بيروت بانتظام متناسق، بل ينتقل فجأةً من موضوع إلى آخر: نكون معه في الميناء فينتقل إلى وصف المزارع المحيطة ببيروت، ثم يعود إلى رصيف الميناء وسفُن متنوعة الأشكال ترسو فيه. فلنرافقْه في وصوله على متن سفينة تقترب من شاطئ بيروت، ولنلاحظْ كيف رأى المشهد الرائع والموقع المذهل الذي تنتصب عليه بيروت: «تحتل بيروت تلةً خضراء رشيقة تنحدر إلى البحر، تحيط بها يمينًا ويسارًا تلال صخرية صغيرة تقوم عليها تحصينات عثمانية ذات مظهر رائع».

لا يكتفي تايلور بهذه الصورة السريعة بل ينقل صورة أكمل للموقع: «الأرض تتموّج هنا بلطف، تنفصل عن جبل لبنان، تخرج إلى البحر مسافة

بيروت ١٨٥٨ – إدوارد لير

فرسخين (٩ كلم) خلف خط الشاطئ لتشكل زاوية العودة شمالاً حيث نهر بيروت» (...) «فمدينة بيروت غير منتظمة الشكل: هي مفتوحة من جهة البحر، ومن جهة لبر فمحاطة بسور حجري رملي ناعم».

ويسحره موقع بيروت فيصفه بطريقة مختلفة وتعابير جديدة كما ليُقنع القارئ بروايته ووصفه، فبيروت «تجلس رشيقةً على الجزء الشمالي من لسان أرضي يمتدُّ من سفح جبل لبنان إلى أمواج البحر الشفافة، تحيط بها حدود ساحرة من حدائق دائمة الخضرة ، تبرّدها نسائمُ ناعمةٌ تنحدر من الجبال المحيطة بها».

في حضرة «السُلطانة بيروت»

ينبهر تايلور بموقع بيروت المميّز الفتّان، هو المحبُّ السفَرَ وعاينَ في رحلاته مدنًا وخلجانًا، سهولاً وجبالاً. لكنه في حضرة بيروت يعترف بالصعوبة في وصف عظمة مكانها: «لا يمكن تكوين فكرة عن عظمة هذا الموقع. تنظر إلى هذه المساحات الواسعة فلا ترى إلاَّ كثيرًا من الخضرة النضرة واللامعة. هنا مدرجات ممتلئة بأشجار التوت الأبيض. هناك غابات كثيفة ومعتمة من أشجار الخرّوب، وأبعدَ قليلاً: أشجار تين وجمّيز وبرتقال تتجمع في بساتين عطرة على طول ساحل البحر. وفي الأفق تمتد أشجار الزيتون بحيرةَ أوراقٍ رمادية ولامعة». ويكتب في مكان

بيروت ١٨٩٨

آخر: «بين أبرز أسباب شهرة بيروت نُدرة جمال محيطها، وروعة مزارع توت تطغى على المدينة من جميع الجهات، وجانب خلّاب لآثارها القديمة المنتصبة بين أنواع الزهور، وبيوتها الرشيقة المتناثرة بالمئات بين أشجار الليمون والصبّار والخروب تنمو على ترابها. وبأكثر من طريقة، تستحق بيروت لقب «السعادة» كما سمّاها الأمبراطور أُغسطُس».

وكعادة رحالة ومسافرين يصلون إلى بيروت فتلْفتهم مشاهد جبال لبنان مشكِّلَةً خلفية عالية بهية للمدينة «السلطانة» الجالسة سعيدة على شاطئ المتوسط الأزرق، يكتب: «بعيدًا عن المدينة تنتصب جبال لبنان بقممها ذوات الزوايا ومنحدراتها القوية فتكشف عن مسالك بينها ضيّقة، وتُضاعف الجبال سلاسلها الثانوية الأصغر أو تزيدها ثلاث مرات، كما لتشكّل خطوطَ دفاعٍ حصينةً تمنع الوصول إلى داخلها».

زائرُها يثير الحسد

عن داخل أسوار المدينة يكتب تايلور: «المنازل والمتاجر والأسواق في بيروت مبنيّة عمومًا أفضل مما في مناطق الساحل. معظم المنازل هنا من الحجر، وأعلى من مدن أخرى في الشرق. الشوارع ليست نظيفة مع أنها مرصوفة وواسعة. السبب: ندرة المياه، وتضطر النساء إلى الذهاب بعيدًا لجلب المياه».

وكأن تايلور لاحظ خطأً سرْده فاستدرك مُغْدقًا أوصافًا محببة على بيروت التي أرادها في ذهن القارئ الغربي مميّزة ومغايرة: «على أن بيروت مدينة نشطة، مبهجة، غنية، منهمكة ومجتهدة. هي المستودع والميناء والمنفذ البحري المناطق المحيطة بها».

بيروت – آذار ١٨٣٥

وكأنما تايلور يعتبر زيارته بيروت مثيرةً حسد الآخرين بما لها من سمعة طيبة في حُسن الإقامة واعتدال المناخ وتَوَفُّر خدمات كثيرة يحتاجها فيها الأوروبيون بعيدًا عن بلدانهم وحياتهم المعتادة. أراد إثارة شوقهم إلى زيارة الشرق عبر بوابته التاريخية: بيروت ولا أي مدينة أخرى فتكون بيروت أول لوحة ساحرة تراها عيونهم فينطبع في بالهم ما فيها من مزيج غريب السحر والواقع معًا: «غنيّة بيروت بزهورها وثمارها المتنوعة. هي للمسافر إقامة يحسده عليها الآخرون، ونقطة تلاقي الأجانب حين يزورون الشرق».

أَهَمُّ موقع على طول الساحل

سرَدَ تايلور خلال إقامته في بيروت صورة جامعة وشاملة عن تطور اقتصاد المدينة، وتجارة كبيرة كانت تجري فيها: «إلى هنا تنزل المنتجات من المرتفعات العالية، ويمر الحرير السوري لنقْله إلى مدينة «بْرُوسّ» (وسَط فرنسا) فتُصنَع منه أقمشة مشهورة تُباع في أسواق الشرق وأوروبا. ومقابل هذا الحرير يأْخذ أهلُ الجبال كمياتِ الأَرُزّ الوافدة من دمياط المصرية، والتبغ من اللاذقية، والقهوة من اليمن، والقمح من البقاع وحوران».

من هذه التفاصيل التجارية استنتج تايلور السبب: «بيروت اليوم في طريقها الواثق إلى التقدم، بتأثير حجاج وتجار أوروبيين يزورونها باستمرار. باتت بيروت أهمَّ مكان على كل الساحل، فهي مستودع التجارة في كل سوريا، ومينأؤها آمن تمامًا ومليْءٌ دومًا بالسفن». وبما يشبه إعلانًا تسويقيًّا، يكتب: «في هذه المدينة جميعُ وسائل الرفاهية للحياة: المساكن مريحة، اللحوم الصحية، الفواكه اللذيذة، الخبز يصنعه خبازون أجانب على الطراز الأوروبي».

يا «مينا الحبايب» يا بيروت

يكتب: «على مدخل ميناء بيروت تنتصب قلعة قديمة متهالكة مجهزة بستة مدافع تتحكم بالميناء المخصص لرسو السفن» فيجد له دورًا تجاريًّا واقتصاديًّا كبيرًا لكثرة السفن فيه، فيضيف: «تزدحم السفن الأوروبية والمراكب العربية الخفيفة ومراكب الصيد والزوارق البخارية في هذا الميناء الذي يشكّله رصيف وحيد تغمره أحيانًا موجات البحر فتتغلب عليه وتصيب رُكَبَ الرجال العرب المقرفصين عليه (...). وهو مزوّد برصيف صغير كان عميقًا ومؤاتيًا السفنَ لكنّ إهمالاً مزمنًا طاله فملأه بالأنقاض والرمال. إنما تجر اليوم أعمال فيه لإعادته إلى صورته الأولى».

كوكبة الأضداد والعادات الشرقية

زائر بيروت، كما حال تايلور، يلفتُهُ التنوع الطائفي والعرقي بين سكان المدينة التي بدأت تعيش الانتعاش الاقتصادي، وارتفاعًا ملحوظًا في عدد سكانها، وبدءَ توافد التجار اليها من مناطق وبلدان عدة، فيؤكد أنها المكان الأمثل لمعرفة حقيقة العادات الشرقية: «بيروت مدينة نصف مسلمة ونصف مسيحية، يمكن فيها التعرف على العادات الشرقية أكثر من أي مكان آخر، مع أننا سمعنا عن هذه العادات مرات عديدة، وفهمناها بشكل خاطئ».

ثم يصف ما في بيروت من نقائض وأضداد، وما في أحيائها وشوارعها من ناسٍ وقيَم، ومشاهد تختزل سحر الشرق بمكوناتها المتناغمة والمتناقضة: «في هذه المدينة منازل ذات أسقف مسننة ودرابزينات معلقة ونوافذ ذات أضلاع كثيرة وشِباك خشبية مطلية إنما يُمكن ساكنها أن يَرى منها دون أن يُرى. وفيها صنوبرات مبرومة كالمظلات وأبنية جميلة، وأديار أرثوذكسية أو مارونية ذات هندسة معمارية ضخمة، ومساجد ذات أعمدة رفيعة، وفي شوارعها عرب يتجادلون بأصوات عالية، وجِمال تمرّ وهي ترغو وكلاب تعوي. إنه الشرق كله هنا».

وتذهِلُ تايلور صفةٌ سامية تتميز بها بيروت عبر مراحل تاريخها: «في بيروت تسامح كبير. فيها مقر الأسقف اليوناني، والأسقف الماروني، ومقر إقامة مجلس يهودي، وجماعة البروتستانت، وعدد كبير من مشايخ الدروز وعلماء المسلمين، وأربع كنائس للمسيحيين: واحدة للروم الكاثوليك، ثانية للعرب الكاثوليك، ثالثة للموارنة، رابعة للبروتستانت، وثلاثة مساجد جميلة بمآذنها وساحاتها ونوافيرها المتدفقة. وفي وسط المدينة يرتفع مهيبًا المسجدُ الكبير (...)».

ويعدو إلى موقع بيروت ومناخها: «بسبب موقعها المنحدر قليلاً، تتمتع بيروت بميزة المدينة الجافة والصحية. لكنها صيفًا لا تعود الإقامة فيها مريحة بسبب الحرارة ومياهها الفاترة».

هوية المدينة الغامضة

فور وصول تايلور إلى بيروت كانت مشاعره وانطباعاته مشوّشة غير واضحة. إنما مع الأيام وتَرَجُّله من علياء الأفكار المسبقة إلى الواقع الراهن وانغماسه في أجواء المدينة، وضُحَ له الأمر وزال الْتباس يطبع غالبًا الواصلين إلى هذه المدينة. وهذه انفعالات ومشاعر يعيشها دومًا كل

غريب يصل إلى بيروت. فهي ليست مدينة نمطية بل حيّة صاخبة متلونة يلوم بعض الوقت والحنكة للتعرف عليها واستكشافها وفهْم ناسها وثقافاتهم المتعددة في مساحة جغرافية صغيرة واستثنائية. ويحتاج زائرها إلى بعض الراحة وجلسة مراجعة يجمع فيها قطع ألغازها ويضعها في إطار واحد ليفهم حقيقة المدينة وروحها وهويتها المختبئة والمستترة خلف مئات الوجوه والمشاهد والمعالم.

لكن تايلور، بنظرة الرحالة المتمرس العارف بأحوال الشعوب والأمم، التقط حقيقة ما زالت ثابتة: «بيروت لا تُخفي ندوب جراحها. لم تكن دائمًا سعيدة ومسالمة لذا تحتفظ بذكرى تقلبات عاشتها، وتغيير أسيادها حتى لم تعد تعرف لمن تنتمي».

كما في قصص «ألف ليلة وليلة»

يدخل تايلور إلى تفاصيل نبحث عنها بين السطور والكلمات من مشاهداته أحوالَ الناس وأساليب حياتهم ومظاهرهم وعاداتهم، فيصف لنا بعضًا من أزياء يختال بها أصحابها في شوارع المدينة وأزقتها: «إنه الزي العربي ببساطته المبهرة وفخامة السلاح والخيول، وهما أُولى رفاهيات العرب». ثم يفاجئُنا بصورة أخرى كأنه انتزعها من قصص «ألف ليلة وليلة» أو أنه أراد منْح القارىء الغربي جرعة تروي فضوله وصورة يسرح بها في خياله البارد فيتمتع بمحتوياتها في أجواء خرافية مصطنعة ومضخمة: «هنا النساء يضعن عمامات على رؤوسهن ويرتدين سترات مطرزة، وأخريات متزينات بالذهب المنقوش والمرصع لآلئَ وأحجارًا كريمةً وثيابًا فضفاضة تستر أجسادهن». ومن الذهب و اللآلئ وكهوف الكنوز وأحلام الثراء، يهبط إلى مشهد دنيوي أقرب إلى الواقعية: «الرجال يجلسون أمام أبواب المقاهي، يدخّنون النرجيلة أو الغليون، فيما تمرّ النساء مغطّياتٍ بالحُجُب البيضاء، يعبرن المدينة متجهات إلى الحمّامات للاسترخاء والمرح».

ولا يكتفي تايلور بالصورة. يتجرأ فينقل لنا مادة سمعية من أسواق وشوارع بيروت تاركًا لخيال قارئه أن يسرح ويمزج بالكلمات مشهدًا ضاجّاً ينبض بالحياة على خشبة مسرح افتراضي: «هنا تسمع عاليةً صرخات العمال اليوميين، وسائسي الحمير والباعة المتجولين، ومن أعلى المآذن تسمع أصوات المؤذنين داعيةً ببطء إلى الصلاة».

يرى تايلور بيروت غامضةً إنما متوازنة، ممتلئة بإيمان فطري، وبواقعية تعينها – منذ ولادتها على هذا الشاطئ الممتع – على المصاعب

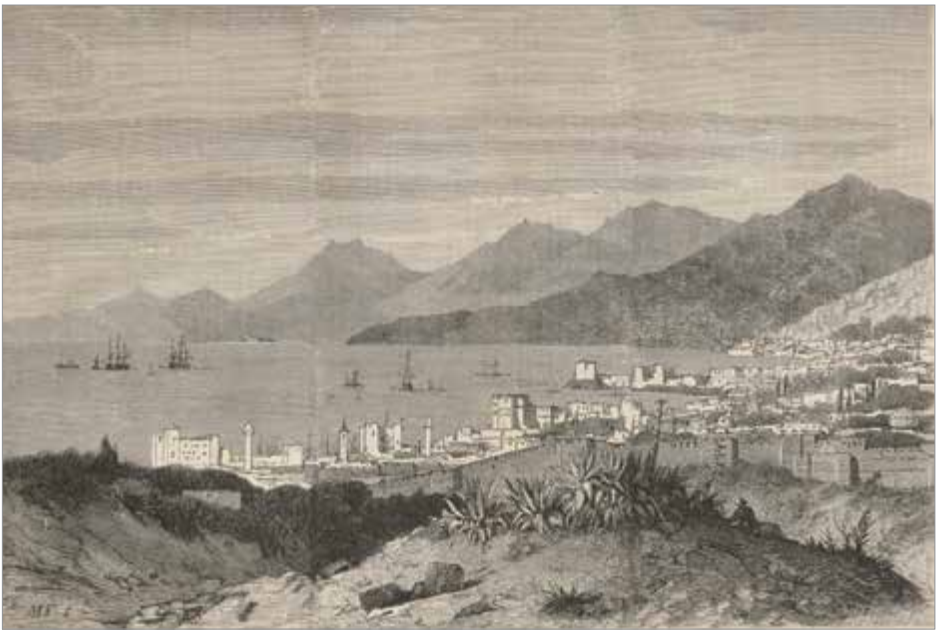

بيروت – رسم موريل فاتيو لجريدة «لوموند»

والمتغيرات عبر التاريخ: «هكذا بيروت، كجميع البلدات الساحلية وجميع بلدات الشرق، يعيش سكانها الذين صاغتهم الطاعة والايمان بالقضاء والقدر، حياة رتيبة إنما هادئة مع قليل من الأفراح وقليل من الأحزان».

تجربة الحمّام الشرقيّ

لم يشذ تايلور عن مسافرين مرُّوا ساعاتٍ أو أمضَوا أيامًا في بيروت منتظرين القوافل تُقِلُّهم إلى فلسطين، أو سفنًا بخارية تحملهم عبر البحار عائدين إلى بلادهم، ويكونون عاشوا في بيروت تجربة جسدية شاقة ومميّزة فنالت إعجابهم وكالوا لها المديح، من زيارة أحد حمّامات بيروت والغوص في إحدى «رفاهيات الشرق»، كما أسماها تايلور واعتبرها «أعظم متعة للنساء والرجال».

يعرّف تايلور بإيجازٍ الحمام الشرقي (يسميه الأوروبيون غالبًا «التركي») فيُدخل قارئه إلى أجواء ساحرة: «تطوير حسّي للحمامات اليونانية والرومانية، وهو سلسلة غرف تنيرها قباب صغيرة مزيّنة بزجاج ملّون، أرضها مرصوفة بقطع رخامية بألوان مختلفة، وعلى جدران فسيفساء

إيزيدور في شبابه...

... وفي أواخر حياته

وأعمدة صغيرة مغاربية من الرخام المنحوت». ويكمل مفصِّلاً هذه التجربة الأصيلة، من مدخل الحمام وهي «غرفة كبيرة، سقفها عال وجيِّدة التهوية، مجهّزة بمصاطب لوضع الملابس. ومنها نعبُر غرفًا مختلفة تزداد حرارتها تدرُّجًا فلا يشعر الداخل بالفرق بينها: هي أولاً حرارة الهواء الخارجي ثم الجو الناعم الدافئ، ثم تأخذ الحرارة بالارتفاع ببطء حتى تصل إلى الجزء الأخير حيث يرتفع بخار الماء المغلي من الأحواض ويكاد يخنق الواصلين إلى هناك. في هذا المكان الذي لا يدخله الضوء بقوة فرنٌ يُسَخّنُ المياه إلى درجة حرارة عالية جدًا، معطّر بالزيوت تنبعث منه الروائح الحلوة». هكذا يضع تايلور قارئه بسرعة داخل أجواء الحمّام بغرفه وألوانه وحرارته وبخاره وعطوره، ثم يُقارن مجدَّدًا مع الحمّام الأوروبي البسيط من حوض مستطيل أو حوض محفور بالصخر، يرتمي المستحمُّ فيه للاستحمام. بينما الحمّام الشرقي متعة مختلفة ومجموعة طقوس ومناخات تشارك فيها حواس السمع والبصر والشم لفوائد صحية أكيدة، وانتعاش في النفس، وتوهُّج في البشرة. ويرى تايلور الحمام الحمّام الشرقي في مراحل متعددة، منها مكان «يستلقي فيه الشخص على أرضية من الرخام ويظل ساكنًا عليها بلا حراك تحت سحابة بخار معطّرة تخترق تدريجيًّا مسامات الجسم، فيرتاح الجسم على درجة حرارة غير عادية، وتتسرب الرطوبة الناعمة تدريجيًّا إلى الجلْد وتسترخي العضلات وتلين الأطراف».

تدليك وغُطُور

لا يكتفي تايلور بذكر تأثره بالحمّام الشرقي بل يتوغل بعدُ فيذكر محاسنه البدنية ومنافعه الصحية كتدليك المستحم في المرحلة التالية: «يصل خدَم الحمّام فيمسكون بالمستحم وهو مستلق على حصيرة ناعمة، رأْسه على وسادة، أطرافه مرخيّة، يفرقع أحدهم مفاصل أصابعه ويأخذ بتدليك جسد المستحم بقفاز من شَعر الخيل، وفَرْكِهِ بسرعة فيتحرك الدم إلى الجلْد بحيوية لا تصدَّق. هذا التدليك لا يعرفه الأوروبيون، هو من أعظم مسرَّات الحمّام الشرقي». ويختم بالمرحلة الأجمل في تجربة الحمام الشرقي: «بعد الانتهاء من التدليك، نترك هذا الجو الحار لنخرج عبر الغرف التي مررنا بها عند الدخول. وفي إحداها يظهر خادم الحمام مرة أخرى فيُلقي على كتفَي المستحم رغوة الصابون ويصب عليها ماءً فاترًا فماء الورد لتعطير الجسد، ويُترك المستحم ممدَّدًا على أريكة، ويُقدم له التبغ المنكَّه والقهوة والشراب البارد ليستعيد قوته».

ويخرج تايلور من «حمّامه» الرائع بأحاسيس رائعة، فيصف ساعاته فيه بأنها رفاهيات يعيشها المسلمون، وهو عندهم «واجب ديني تجد فيه النساء تسلية في عزلتهن، فيناقشن شؤُونهن الصغيرة وحفلاتهن وأعراسهن، ولا يقترب الرجال من الحمامات إبان الأوقات المخصصة للنساء بل يجتمعون حلقاتٍ في أماكن أخرى يتحدثون في مسائل السياسة والتجارة».

زيتية لأحد الحمامات العامة في بيروت

آثار وخرائب

وكما تستهوي الرحالةَ الأَجانب آثارُ الأقدمين ومعالمُ القرون السابقة (أحد عوامل الجذب في أسفارهم) يسرد تايلور آثارًا وخرائب في أماكن من بيروت: «الآثار والأنقاض موجودة غربًا خارج الأسوار، حتى لنخال كأن المدينة كانت مما هي الآن عليه. والسهل الشاسع التابع أراضيها تغنَى فيه أشجار توت أبيض لتغذية دود القز الذي يُربّى على نطاق واسع في البلاد».

قبل المغادرة

كأننا بتايلور، وهو يغادر بيروت ليكمل رحلته في أرجاء سوريا وصولاً إلى القدس، يقف عند مرتفَع يطل على هذه المدينة التي افتُتن بها، يلقي عليها النظرات الأخيرة، مسترجعًا كل ما كتبه عنها، واثقًا من أنه لم يترك أيًّا من مفاتنها إلاّ ذَكَرَه ووفَّاه حقه من الوصف الجذاب.

المتَين لؤْلؤَةُ المَتْنَين

شربل النجار

المتين اليوم

من قلب التاريخ

قلّما قريةٌ واكبَت وطنًا في تعرّجات تاريخه، كما المُتَيْن واكبت لبنان. ومن مروياتها أنْ كلّما عرف لبنان حدثًا مفصليًّا، كانت المُتَيْن في قلب ذلك الحدث. فهي منذ أواسط القرن السادس عشر تواكب تباعًا نشأة لبنان.

بلغَها الدروز والأروام من جنوبي سوريا، واللمعيّون من حلب مرورًا بكفرسلوان. وبعد عقود من وصول الأوّلين استقطبت أرضها الوسيعة فلاّحين وحرفيّين موارنة من شمال جبل لبنان، فرحّب بهم الإقطاع الدرزيّ.

ومنذ القرن السابع عشر أخذت تنهض الضيعة بدروزها وأروامها وموارنتها، بإقطاعيّيها متدرِّجين من مقدّمين الى أمراء، بفلاّحيها وحرفيّيها منتقلين من عمّال وفَعَلة غرباء وموسميّين الى أصحاب بيوت ومواشٍ ودور عبادة فتحوّلوا من حال النزوح الى حال الإستقرار ثمّ التجذّر.

الدراسات حول تاريخ المُتَيْن القديم والوسيط لا تزال في بداياتها. المتقدم منها غير مُستكمَل بعد، والثابت منها أن وادي مجرى نهر بيروت شكّل منذ ما قبل الميلاد طريقًا في اتّجاه الأعالي، وتأسّست تجمّعات مأهولة كانت محطّات قوافل تتنقّل بين بيروت والبقاع. ومن نماذجها: المُسَيْقة أو (المُسَيقى) والجوز، وهي تجمّعات سكنيّة ومحطات قوافل تجاريّة بين الساحل اللبنانيّ والداخل السوريّ مرورًا بسهل البقاع.

برج المُسَيقى (من الحقبة الرومانيّة)

نواويس في موقع الجوز
بجوار الزعرور (من الحقبة الرومانية)

بقايا عمار من موقع الجوز، وكسْر فخّاريات
في محيط منطقة الزعرور

قبل القرن السادس عشر كانت المتَين مجرَّد مزرعة، ثم باتت قرية تواكب تاريخ لبنان عبر مسارات صيرورته. وتاريخ لبنان الحديث بدأ مع تضافُر عوامل عدّة، أبرزَها اللقاء الدرزيّ المارونيّ في الجبل اللبناني الأوسط. ولعل أول وثيقة عن تاريخ المُتَيْن كشَف عنها عبد الرحيم أبو حسين (باحث وأستاذ في الجامعة الأميركيّة-بيروت) ضمن كتابه «صناعة الأسطورة» وفيها أن دروز آل معن في الشوف ودروز عين دارة ودروز المُتَيْن وسواهم رفضوا دفع الضريبة للعثمانيين، كما ورد في «دفتر الأمور المهمّة العثماني» (١٥٦٥). وكان أبو حسين ذكر هذه المعلومة في كتابه الأوّل «لبنان والإمارة الدرزيّة في عهد العثمانيّين».

تكوُّن عائلاتها

في التقليد المتوارث والمكتوب أنّ آل القنطار ثاروا على العثمانيّين وساعدوا المعنيّين وحالفوا الشهابيّين في معركة عين دارة التي بعد انتهائها (١٧١١) كافأ حيدر الشهابيّ آل أبو اللمع برفْعهم الى درجة الإمارة وتجنَّب المسّ بآل القنطار في البقاع وزحلة والمُتَيْن. في العام ١٧٤٨ اصطدم اللمعيّون بآل القنطار لأن هؤلاء منعوهم من الإستحواذ على مصادر مياههم، فاستدرجهم اللمعيّون إلى وليمة أقاموها شرقيّ ساحة المُتَيْن وغدروا بهم واستولوا على مصادر مياههم في المروج . ناصب آلُ القنطار الشهابيّين عداءً مستحكِمًا طيلة فترة استعداء بشير الشهابي الثاني زعامةَ بشير جنبلاط فحالفوا جنبلاط وكانوا في عداد جنده.

وفي المرويّات أنّ أوّل الواصلين المستقرين في المُتَيْن وفدوا إلى جبل لبنان من جنوب سوريا عبر سهل البقاع، في طريق من وادي التيم إلى قرى البقاع فالمُتَيْن سلكته عائلات ثلاث:

١. عائلة آل القنطار من «كفتين» (محافظة إدلب شماليّ سوريا). نزحت الى جبل الدروز فزحلة ومنها لجأت في القرن السادس عشر الى المتين بعدما تطاعنت سنواتٍ مع العثمانيين.
٢. عائلة آل الحدّاد من «أزرع» (حوران) الى الفرزل فبسكنتا فالمُتَيْن.
٣. عائلة آل بو نادر من «صوي» (حوران) وهي قرية آل صوايا التي إليها نسبتهم.

آل القنطار دروز وآل الحدّاد أروام، وكذا آل بو نادر المتحدرون من طائفة الروم الأورثوذكس قبل ان يتحوّلوا الى المارونيّة في النصف الآخر من القرن السابع عشر.

آل بو اللمع جاءوا الى جبل لبنان من جهات حلب، سكنوا كفرسلوان ومنها وفدوا الى المُتَيْن.

في النصف الآخر من القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر وصل إلى المُتَيْن آل بلوط من «صريفا» في البقاع، وبرز منهم في القرن التاسع عشر القاضي علي بلّوط (نحو ١٨٤٥) ومنصور حيدر بلّوط (نحو ١٨٦٥).

أُصول آل الحلبي تعود الى «كفتين» (محافظة إدلب) هجروها الى جبل الدروز ثمّ توزّعوا شمالاً ووصل قسم منهم الى المُتَيْن. وفي رأي آخر أنّ آل الحلبي وفدوا من حلب، وقد يكون الشيخ بشير جنبلاط استقدمهم منها وأسكنهم قرًى عديدة. ونشُك في هذا الرأي.

آل مرداس يعودون بأصولهم الى مدينة حلب. نزحوا الى كفرسلوان ومنها الى المُتَيْن مع وصول آل بو اللمع إليها في أواخر القرن السادس عشر واوائل السابع عشر.

المسيحيّون الموارنة وفدوا من شمال جبل لبنان باتجاه جنوبه، واستقرّوا في المُتَيْن (منتصف القرن السابع عشر) وهي عائلات تنتسب بأصولها الى قرى شماليّة في حدث الجبّة والبترون وبلاد جبيل، نزحوا لضيق مناطقهم بهم بسبب وفرة توالدهم، وبسبب ظلم ولاة طرابلس وآل حمادة الشيعة المولَجين جباية الضرائب لحساب ولاة طرابلس ومَن ورائهم من مماليك وتركمان. وجميع العائلات المارونيّة المُتَيْنية وفدت الى المُتَيْن من هناك. ووفد بيت سلامة من «جربتا» (البترون) بعدما كانوا في حدث الجبّة. وجاء آل الناكوزي من «حدتون» البترون، وأبو سليمان من «تولا «البترون وبارود من «تنورين» وخيرالله من «تولا-البترون» والنجار من «العاقورة» فبسكنتا ثمّ المُتَيْن.

هكذا تكوّن المجتمع المُتَيْني بإقطاعِه وفلاّحيه وحِرَفيّيه. وسيطر الإقطاع على الأرض ومَنْ فيها نحو قرنين، واشتدّ نفوذه بين ١٧١١ (إنتصار حيدر شهاب في معركة عين دارة) و١٨٦٠ (المجازر في الجبل وتناحر الأسر الإقطاعيّة في ما بينها).

قصر المير يوسف بو اللمع غرب ساحة المتين – الميدان (تمّ ترميمه بعد معارك ١٩٧٦)

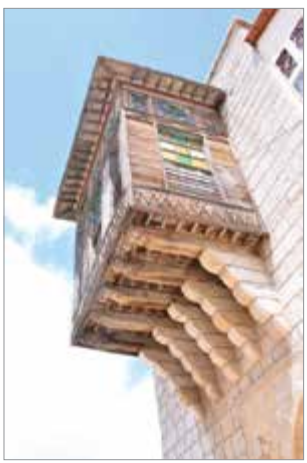

كشف قصر المير قبلان بو اللمع يُشرف على الميدان

الشبكة الاجتماعية

مع نهاية نظام الإقطاع (منتصف القرن التاسع عشر) أخذت العائلات الإقطاعية تغيب عن المسرحين السياسي والاقتصادي لترثَها عائلات

بورجوازيّة كانت تعمل في تدبير شؤون الإقطاعيّين، وأثْرت من خير الإقطاع الذي آل بعضه إليهم، ومما أنتجته صناعة الحرير والعلاقة المتينة مع الدير والتجارة وزراعة أراضٍ انتقلت ملكيّتها من الإقطاع إلى تلك العائلات الحديثة الثراء، بالشراء أوً بوضع اليد. ومن أبرز العائلات البورجوازية في المُتَيْن: آل الجميّل وكان منهم في خدمة لمعيي المُتَيْن وأصابوا ثراء واسعًا. وترافق ضمور سلطة عائلة آل بو اللمع الإقطاعية مع بروز عائلة عقل المخوجيّة (نسبة الى لقب «خواجة»).

ساحة المتين
في بداية الستينات

العقليّون صادقوا اللمعيّين، بدءًا من تنصُّر لمعيّي المُتَيْن (١٨٣٥) على مذبح كنيسة مار جرجس المارونيّة. كان عقل شديد في الثامنة والعشرين يوم وقف عرّابًا للأمير المتنصّر أسعد بو اللمع (١٨٣٥). وفي خمسينات القرن التاسع عشر تراجع وضع اللمعيّين الاقتصاديّ والسلطوي، وازدهر اقتصاد آل عقل إنما لم يتسلموا السلطة. لم يلعب عقل شديد دورًا سياسيًا مهمًّا، وفق وثائق تؤكّد أنّه كان ذات فترةٍ شيخَ صلح المُتَيْن. عاش في القرن التاسع عشر (١٨٠٧–١٨٩٢) وجمع ثروة من عمل الأرض وصنع الحرير بأحدث الوسائل التقنيّة عصرئذٍ ولم يعمل في السياسة، إنما تعاطاها ولداه شديد وخليل زمن مجلس إدارة متصرّفية جبل لبنان (بعد١٨٦٠) وتعاطاها سائر أولاده على مستوى مشيخة الصلح ثم «المخترة» في المُتَيْن والمزارع التابعة لها. ومع زوال نظام المتصرّفية وقيام دولة لبنان الكبير (١٩٢٠) انحسرت سلطتهم وطنيًّا ومحليًّا برغم محاولات حبيب عقل استعادة وهج عرفته هذه العائلة.

بموازاة آل عقل شديد برزت بجوار آل بو اللمع عائلة أبو سليمان، وأصولهم من تولا البترون. فسنة ١٧٠٩ كُنّي جرجس بن الخوري بطرس بن يونان أبو سليمان بأبي صعب، ولحسن تدبيره ودرايته عيّن مدبِّرًا وأمينًا للأمراء أولاد الأمير مراد اللمعيّ. ولمّا فرّ المير يوسف شهاب

الى راشيا من وجه عمه الأمير منصور (١٧٦٢) أرسل عياله الى المُتَيْن ليقيموا عند الأمراء أولاد الأمير نصر فأنزلهم هؤلاء في بيت أبي صعب جرجس أبو سليمان ليكون مدبّرهم. كانوا أصدقاء المير يوسف شهاب (وفْق «تاريخ الأعيان في جبل لبنان») وأصدقاء مدبّره سعد الخوري. ومن القرن الثامن عشر أدرك آل أبو سليمان المُتَيْنيّة السلطة المحلّية في نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. ففي أواخر التاسع عشر خرق آل أبو سليمان في الإكليروس الديري والأبرشي وجاءوا بأموال من المهجر وظّفوها في صناعة الحرير، وبرز منهم حرفيّون عملوا في صناعة الخمور وصناعة الأحذية. وأهم قوى وقفت في وجه آل عقل انطلقت من صناعة الحرير عبر تحالف قرويّ بين غالب الخوري أبو سليمان وشاهين يونان أبو سليمان وسواهم من سكان الحارة التحتانيّة في المتين.

لم ينقطع سيل أموال الهجرة إلاّ مع انقطاع طريق البحر. فمنذ ١٩١٥ في الحرب العالميّة الأولى أقفل البريطانيّون والفرنسيّون طريق البحر إلى الشواطئ العثمانيّة وفي وجه آلة الحرب التركيّة المتحالفة مع الألمان. لكن المال تدفق من جديد بعد المجاعة في جبل لبنان (بين ١٩١٥ و١٩١٧) ونعمت به المُتَيْن. بعد ١٩١٨ أخذ يغادر المُتَيْن سنويًّا نحو ثلاثين مواطنًا، وخصوصًا بين ١٩٢١ و١٩٢٤ وفْق قيود الإحصاء الفرنسي الأول. واستمرّت الهجرة خصوصًا إلى الأرجنتين، ثم تباطأت إثر الأزمة الإقتصاديّة الكبرى (بعد ١٩٢٩) وما تلاها من حرب عالميّة قطّعت أواصر التواصل بين الدول وعزلت بلدانًا وضيّقت الآفاق أمام المهاجرين حتى حدود الانغلاق التام.

بيروت تسرق المتين

مع عهد الإنتداب تملّكت بيروت مركزيّتها وانحدر إليها الحرفيّون الصنّاع يستثمرون في أولادهم بالعلْم، وسرَت مقولة يذكرها «عتّاق» المُتَيْن: «العلْم مقابيل العملة».

لم تعرف المُتَيْن حداثتها قبل منتصف القرن العشرين. في زمن الإنتداب قامت أولى العائلات المُتَيْنية تستثمر في العلْم العالي خارج المُتَيْن، متكبدةً أثمانًا باهظة وتضحيات كبرى لتكسر علاقات اقتصادية فاجتماعية كانت تحكم فئات المجتمع المُتَيْني المأزوم بين «مَرْبى» إقطاع و«مَرْبَى» مخوجيّة وسلطة كنسيّة تماشي الإقطاع والمخوجيّات على حساب الناس. وكان صاحب «العملة» يواجه صاحب «اللاعملة» ويتغلّب دومًا عليه. فلجأ صاحب اللاعملة إلى العلْم.

بدأ تفكك النظام القرويّ المقفل في المْتَيْن مع نظام الانتداب لحصْره حصر نشاطات الدولة في العاصمة بيروت. وركّز الموارنة من تجّار وكبار صناعيّين أعمالهم في العاصمة مع نهضتها منذ إعلان دولة لبنان الكبير. وكان للموارنة صرح تعليمي مهمّ: مدرسة الحكمة، أنشأها المطران يوسف الدبس سنة ١٨٧٤ وفتح أبوابها أمام طلاب العلْم في العام التالي وشاءها مدرسة لجميع اللبنانيّين من جبليّين وساحليّين وسهليّين، ومن مسلمين ودروز ومسيحيّين.

الى مدرسة الحكمة أسس الموارنة مستشفى الجعيتاويّ (١٩٢٧) وكاتدرائية مار جرجس على الطرْز الإيطاليّ (انتهى بنيانها سنة ١٨٩٤). ومنذئذٍ تحوّل موارنة الجبل من القرى الى المدينة شتاءً بهدف أساسيّ واحد: تعليم أولادهم. كانوا حرفيين بين حدّادين ونجارين ومنجّدين وخيّاطين ومزارعين وموظفين، فجعلوا من أولادهم محامين وأطباء ومهندسين وموظفين أساسيين وأدباء ومعلمين في المدارس والجامعات الكبرى.

مدرسة الحكمة ١٨٨٢ عن كتاب فؤاد دبّاس «مصوّرون في بيروت» (بالفرنسيّة)

النُجومية الرياضية

هذا التبدّل التدريجي غيّر مفاهيم كثيرة كانت سائدة في القرية. توجّه الأولاد الى التلاقي والتآلف بينما كان الآباء على افتراق وانقطاع وتخاصم بين حارةٍ وأخرى. أهمّ تلك التجمّعات: تلاقي أولاد الحارات وأولاد الطوائف في جمعيات ونوادٍ. وأبرز ما لقّحت به مدرسةُ «الحكمة» أولادَ المْتَيْن، عدا العلْم، مزاولة كرة القدم. وباتت ساحة المْتَيْن من أزهى ملاعب المَتْنَين، حوّلها اللاعبون أيّام الآحاد صيفًا أيامَ مهرجانات تتخطّى الحسابات السياسية القروية الضيّقة وتنقل الشباب الى التحرّر الفكريّ والاجتماعيّ والسياسيّ.

خمسينات القرن العشرين:كرة القدم أيام الآحاد في صيفيات المتين

يروي المْتَيْنيون أنّ رئيس الجمهوريّة كميل شمعون أمرَ في خمسينات القرن العشرين بـ«تزفيت» الساحة فألغى ملعب كرة القدم إذ لا يصح ملعب على الإسفلت، فانتقل الشباب الى الكرة الطائرة عرفت عزًا استمرّ حتى ١٩٧٥. لم ينقطع المْتَيْنيّون عن مزاولة الكرة الطائرة حتى إبان الوجود السوري في البلدة، فعادت اللعبة إلى وهج وطنيّ لم يخْبُ إلاّ مع الأزمة الإقتصادية بعد ٢٠١٨. والفضل في ازدهارٍ اللعبة الى رئيس نادي المْتَيْن السابق ميشال أبو فرحات اللاعب والمدرّب والإداري والحَكم الدوليّ في رياضة الكرة الطائرة.

النجـومية الثقافية

عرفت المْتَيْن عزًّا مدينيًّا في مرحلتي الانتداب والاستقلال. فمقابل نزوح المْتَيْنيين إلى المدينة صعدت المدينة إلى المْتَيْن. تعدّدت المدارس، ونشأت مدرسة رسميّة بدعم الأهالي، ووصلت مياه الشفة الى المنازل، ورتفعت أعمدة الكهرباء والهاتف وشُقّت الطرقات في داخلها عريضة واسعة، بفضل أحد أبنائها الذي برز في المجال العسكريّ مع ثلاثينات القرن العشرين: الكولونيل الياس المدوّر قائد الدرك في عهد إميل إدّه (١٩٣٧) زمن المفوّض السامي داميان دو مارتيل، وفي زمن الانتداب نشأت بلدية المْتَيْن وعرفت سلسلة رؤساء أعطوا جلّ وقتهم وخبرتهم لجعل المْتَيْن من البلدات النموذجِيّة، منهم يوسف سلامة ومارون النجّار وسليم يوسف أبو رزق وأسعد شاهين أبو سليمان ويوسف نصرالله أبو سليمان وأنيس الحداد وأسعد أبو عبدالله سلامة ولطف الله أبو سليمان وجوزف أسعد أبو سليمان.

وستقطبت المْتَيْن نشاطات ثقافية على مستويات وطنيّة. ففي ساحة المْتَيْن غنّت صباح، وغنى نصري شمس الدين، وحاضر سعيد عقل والسيد موسى الصدر وغسّان تويني وآخرون في قاعة النادي أو صالة مدرسة مار يوسف الكبرى في المْتَيْن وهي جامعة مختلف طوائف الضيعة وأحزابها وعائلاتها وتلاوين جمال وذكاء شبّانِها وشابّاتها.

السيد موسى الصدر والخوري يوسف عون وعضوان من نادي المتين على مدخل مدرسة الرّهبان بعد محاضرة الإمام الصدر: «المسيح في الإسلام» (١٩٧١)

ليالي الزجل

وازدهرت سهرات الزجل في مقهى خير الله. وكان في «بورة السيّدة» مقهى طانيوس بو رزق سلامة «لا سيغال» الذي شهد زجليات خليل روكز وموسى زغيب وزغلول الدامور وطانيوس الحملاوي، في أهمّ حفلات الزّجل في لبنان. ويروي شهودٌ أنّ صفوف السيّارات في تلك الأمسيات الزجليّة كانت تبدأ من أعالي المتين الى مُشِيخَا (القرية الجارة والشقيقة التوأم)، ويختنق المقهى بالناس وينتشر المستمعون على سطوح الحافلات الكبرى ويفترشون الطرقات حول المقهى وتستمرّ الحفلة حتى الصباح. وعن صاحب «لا سيغال» (في حديثه إلى ديانا عبدو بارود سنة ٢٠٠٧ ونشرتْه على موقع المُتَيْن) أنّ أوّل مباراة زجليّة أقيمت في لبنان بين فرقتين زجليّتين (١٩٦٣) كانت في «لا سيغال» بين فرقة خليل روكز برئاسة موسى زغيب وفرقة زغلول الدامور (جوزف الهاشم)، وكان الشاعر سعيد عقل بين الحضور. ويؤكّد المعلّم طانيوس أنّ المقهى صرف تلك الليلة مئة لوح ثلج، طول واحدها متر وعرضه وسماكته ٢٠ سنتيمتراً، وأمّن أربعون نادلاً خدمة الحضور الذين بلغوا نحو ٢٥٠٠ شخص جاءوا من الشمال والجنوب والبقاع وبينهم عدد كبير من المغتربين.

... وجاءت الحرب

مع بدء الحرب في لبنان (١٩٧٥) عانت المُتَيْن منها بقهْر ومرارة. رابض فيها الجيش السوري (حتى ٢٠٠٥)، وفي صيف ١٩٨٢ دمّر الطيران الإسرائيلي القصر اللمعي بمحاذاة ساحة المُتَيْن وكاد أن يقضي القصف على عائلات لجأت إليه بشيبها وشبابها وأطفالها.

قصر المير يوسف إثر المعارك في المتين (١٩٧٦)

لم يكن لجميع المُتَيْنيّين منازل في بيروت، مع ذلك هاجرت منها سنة ١٩٧٦ عائلات كثيرة. ولما هدأ المدفع عاد المُتَيْنيون الى منازلهم.

بعد ١٩٧٨ مرّت المُتَيْن بهزّات كبرى بين قصف الجيش السوري منازلها، وقصف الطيران الإسرائيلي (حزيران ١٩٨٢).

بعد ١٩٨٢ هدأت الأحوال، ونجحت المُتَيْن بين ١٩٧٨ و٢٠٠٥ في أنْ تنأى عن زحف عمرانيّ عشوائي غير خاضع لأي تخطيط مُدني.

منذ ١٩٧٦ عرفت المُتَيْن هجرة طلاّبيّة كثيفة باتّجاه أوروبا وفرنسا تحديدًا. وأخذت القوى الشابّة تبحث عن عمل في الخليج العربيّ فشهدت المُتَيْن (كسائر القرى التي خدشتها الحرب) نزيفًا شبابيًّا لم ينقطع منذ ذلك التاريخ.

سنة ١٩٩٦ جرت ثاني دورة انتخابات نيابية بعد الحرب، وكان من حظّ المُتَيْن أن فاز المحامي شاكر أبو سليمان عن المقعد الماروني في المتن الشمالي ممثّلا المَتنيين بشكل عام وأهله المُتَيْنيين بشكل خاص. إقترع له في المُتَيْن ١٠٥٨ ناخبًا وحجبَ نحو ٤٨٩ أصواتهم عنه وهو ما يُعتبَر دليلاً على أنّ مشكلةً كانت قائمَةً في البلدة. وبين ١٩٩٦ و٢٠٠٠ ترأّس أبو سليمان لجنة الإدارة والعدل النيابية وتبنى رفع الخراب في ساحة المُتَيْن. وفي فترة نيابته شُقّت طرقات في المُتَيْن وواكب الجهد في مجلس النواب ومع مختلف الوزارات لإنشاء المدرسة المهنيّة في المُتَيْن.

لم يكن شاكر أبو سليمان الجسر الوحيد الذي وصل بين المُتَيْن ومركزيّة بيروت، بل سبقه متينيون آخرون، بينهم جوزف الياس بو غصن سلامة الموظف الكبير في وزارة الداخليّة ومحافظ لبنان الشماليّ وأوّل مدير عام للأمن العام زمن شارل حلو وسفير لبنان في إيطاليا وتونس في مراحل تالية.

لم يكن النسق الفاسد في الإدارة المحلّية مكشوفًا في الأرياف اللبنانيّة، بل كان الصيت الحسن والكرامة الشخصيّة والسهر على الخير العام هو الشغف والهدف من أيّة إندفاعة نحو تحمّل المسؤولية. غير أنّ الفساد كان معششًا داخل السلطنة وأيام المتصرّفيّة وزمن الحرب الكبرى وطوال فترة الانتداب وفي زمن دولة الإستقلال. ويتذكر كثيرون من المُتَيْن هذا النسق المخجل فيها أيّام الحروب وما بعد الحروب، إنما يذكر الكثيرون عن قيم وأخلاق وكرامات ومآثر فرديّة وقامات متينيّة نشرت ظلالها على مساحات واسعة من لبنان.

أعلام ساطعون

كان الماضي مختلفًا في المُتَيْن، وكلّ ماضٍ جميل. المير قبلان بو اللمع صار منّا وفينا مع الأيّام ، والآباتي عمانوئيل عقل سلامة كما مبارك سلامة كما اغناطيوس أبي سليمان ثلاثة رؤساء عامّين متينيّين تعاقبوا على رئاسة الرهبانيّة البلدية اللبنانيّة في حقبات متفرّقة. والياس المدوّر قائد الدرك عام ١٩٣٧ ويوسف صرّوف صاحب «النيو رويال أوتيل» منذ ١٩٣٤ عملا في السياسة ففتحا طريقًا للتنمية في المُتَيْن، والخوري يوسف أبي سليمان والخوري لويس النجّار والخوري فرنسيس بو نادر وسليم بو رزق وسليم بو فرحات وشبل الصبّاغ ومارون وسمعان النجّار وألفرد أبو سليمان وفؤاد القنطار وضاهر مخايل الناكوزي وغيرهم علّموا وكرزوا ووعظوا وخطبوا ونظموا شعرًا ودبَّجوا نثرًا وقالوا قولاً حكيمًا، وجوزف سلامة والمطران خليل أبي نادر وشاكر ابو سليمان.

سنة ١٩٩٨ أُجريت أولى دورات الانتخابات البلديّة بعد الحرب ففاز بالرئاسة الأستاذ جوزف عقل، وسار بالمُتَيْن على دروب إنماء كانت بحاجة ماسّة إليها. قدّم البلدة على البيت، والعامّ على الشخصي، وعزة النفس على المنصب. لم يرأس بلديّة المُتَيْن إلاّ لدورة واحدة، وبتوجيه منه انتخبت المتين سنة ٢٠٠٤ رئيس بلديّة آخر لا يزال حتى اليوم.

في تسعينات القرن الماضي استعاد متينيّون كُثُر منازلهم ورمّموها بأجمل ممّا كانت عليه، إلا أن المساهم الكبير روجيه صرّوف رمّم كنيسة في جوار بيته ثمّ بيتَه وقصرًا لمُعيًّا اشتراه وقدّمه هديّة لبلديّة المُتَيْن. وسنة ٢٠١٠ تم تدشين هذا القصر في احتفال كبير شاركت في إحيائه السيّدة ماجدة الرومي.

ماجدة الرومي في افتتاح القصر البلدي (تموز ٢٠١٠)

ذاكرة المتين: الغلاف جَدّ المؤلف وجدّته لأُمّه

Mirrors of Heritage

Refereed journal
published twice a year
by
The **Center for Lebanese Heritage (CLH)**
at
The **Lebanese American University (LAU)**

Henri Zoghaib – Editor

Issue No. 15 – Fall 2021 / Winter 2022

Fine Arts heritage: **Ibrahim Georr, Radwan Chahhal**

Press heritage: **Lebanese journalists in Tangier-Morocco**

Special section: **The stateship in the Lebanese heritage**

Literary heritage: **Mapping Jabbour Doueihy**

Historical heritage: **First Lebanese exiled to Jerusalem, Beirut in 19th Century, Mtein village**

Center for Lebanese Heritage
Lebanese American University, Kraytem, Beirut – Lebanon

Phone: +961.1.78 64 64 (ext: 1600)
P.O. Box: 5053 13 Beirut – Lebanon
email: clh@lau.edu.lb

www.lau.edu.lb/centers-institutes/clh

Facebook: Mirrors of heritage مجلة مرايا التراث

Design and layout by STRATCOM–LAU

Cover: Beirut in 1898 – Painted by Johann Friedrich Perlberg (German 1848–1921)

Mirrors of Heritage

Issue No. 15 – Fall 2021/Winter 2022

LAU
الجامعة اللبنانية الأميركية
Lebanese American University

Special section
The stateship in the Lebanese heritage

- **Ibrahim Georr, Radwan Chahal**
- **Lebanese journalists in Morocco**
- **Mapping Jabbour Doueihy**